من صبح الأعشى

المختار من التراث العربي

٢٤

من كتاب

صبح الأعشى في كتابة الإنشا

القلقشندي

أحمد بن علي بن أحمد الفزاري

٧٥٦-٨٢١هـ=١٣٥٥-١٤١٨م

السفر الرابع

اختار النصوص وعلق عليها وقدم لها

عبد القادر زكار

* الخلافة والخلفاء
* الديار المصرية
* اقليم تونس



منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق — ١٩٨٣

النصوص المختارة
والمداخل إليها

«١»
الخلافة والخلفاء



يشتمل هذا الجزء على الحديث عن الخلافة والخلفاء،والحديث عن مصر وتونس من المغرب العربي،ويشتمل الجزء الذي يليه على الحديث عن المشرق العربي وبعض الحدود التي كانت منه قديماً واقتطعت منه حديثاً .

الحديث عن الخلافة والخلفاء يتناول تاريخ ثمانية قرون مرت من الخلافة الاسلامية .

والحديث عن أقاليم مصر والمغرب العربي ومشرقه فيه وصف وضبط للمدن والنواحي ، وفيه عرض موجز للحكام الذين حكموا هذه الأقاليم جاهلية وإسلاماً ، وقد اقتصرت في بعضها على العهد الإسلامي وحسب .

وأهم من هذا وذاك الحديث عن ترتيب هذه الأقاليم ، حيث عرض الوجه الحضاري من أسعار وموازين ومقاييس ، ونقد وأزياء ، ومواكب الحكام وهيئاتهم في قصورهم ومجالسهم ، والوظائف العامة والخاصة والأرزاق . ونرى الفارق الكبير في الإقليم الواحد بين عهد وعهد ، وفي العهد الواحد بين إقليم وإقليم .

نجد البساطة عند قوم والإسراف عند آخرين . ولقد تجاوز الفاطميون بخاصة حدود الإسراف إلى درجة من الهدر والإتلاف ليظهروا بمظاهر الترف والعظمة في مواكبهم ومجالسهم والأعياد ، وهيئاتهم ولباسهم وشارات ملكهم .

ويجد الدارس الاجتماعي صورة غنية مبسوطة أمامه ، واذا كان هذا العرض يهم الباحثين فانه ضروري للمسرحيين والقصاصين . فقد ذكر القلقشندي أنواع الأزياء ووصف المجالس والمواكب .وفيما ذكر وثيقة تاريخية اجتماعية عن ذاك العصر .

وهذا المختار ليس أكثر من دليل فمن أراد المزيد رجع إلى الصبح يقتبس من أنواره .

* * *

الخلافة والخلفاء

في ذكر الخلافة ومَنْ وليها من الخلفاء ، ومَقَرَّاتهم في القديم والحديث ، وما انطوت عليه الخلافة من الممالك في القديم ، وما كانت عليه من الترتيب ، وما هي عليه الآن(١) ، وفيه فصلان :

الفصل الأول

في ذكر الخلافة ومن وليها من الخلفاء : من خلفاء بني أمَيَّةَ بالشام ، وخلفاء بني العباس بالعراق ، وخلفاء الفَاطِمِيِّينَ بمصر ، وخلفاء بني أمَيَّةَ بالأَنْدَلُسِ

أما الخلافة فالمراد بها خلافة النبيّ -صلى الله عليه وسلم- بعده في أمته . ولذلك كان يقال لأبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه : خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن الراجح أنه لايجوز أن يقال في الخليفة خليفة الله .

وأما مَنْ وليها من الخلفاء ، فعلى أربع طبقات :

---

(١) أي في عصر القلقشندي المؤلف [•]

الطبقة الأولى

الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم

وأوّلهم : « أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه » بويع بالخلافة في اليوم الذي مات فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وبقي حتّى تُوُفِّيَ لتسع ليالٍ بَقينَ من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، ودفن مع النبي صلى الله عليه وسلم ، في حُجْرة عائشة رضي الله عنها .

وبويع بعده « عمر بن الخطاب رضي الله عنه » في اليوم الذي مات فيه أبو بكر رضي الله عنه ، بعد أن عَهِدَ له بالخلافة ، وتُوُفّي يوم السبت سَلْخَ ذي الحجة الحرام سنة ثلاث وعشرين بطعنة أبي لُؤْلُؤَة : غلامِ المغيرة بن شعبة ، ودفن مع النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضي الله عنه .

وفي أيامه فُتحت الأمصار : ففتحت دِمَشْقُ على يد خالد بن الوليد وأبي عُبَيدة بن الجراح ، وتبعها في الفتح سائرُ بلاد الشام ففتحت بَيْسَانُ ، وطَبَرِيّةُ ،

وقَيْسَارِيّة ، وفِلَسْطِينُ ، وعَسْقَلاَنُ ، وبَعْلَبَكُّ ، وحِمْصُ ، وحَلَبُ ، وقِنَّسْرِينُ ، وأنطَاكِيّةُ ؛ وسار إلى بيت المَقْدِسِ في خلال ذلك ، ففتحه صُلْحاً .

وفُتِح من بلاد الجزيرة الفراتية : الرَّقّةُ ، وحَرَّان ، والمَوْصِل ، ونَصِيبِينُ ، وآمِدُ ، والرُّها .

وفُتِح من العراق : القَادِسِيّةُ ، والمَدَائِنُ ، على يد سعد بن أبي وَقّاص ، وزال مُلْكُ الفُرْسِ ، وانهزم مَلِكُهم يَزْدَجِرْدُ إلى فَرْغَانَةَ من بلاد التُرْك .

وفتحت أيضاً كُوَرُ دَجْلَةَ ، والأبُلّة ، على يد عُتْبَةَ ابن غَزْوَانَ .

وفتحت كُوَرُ الأَهْوَازِ على يد أبي موسى الأشعري .

وفتحت نَهَاوَنْدُ ، وإصْطَخْرُ ، وإصْبَهَانُ ، وتَسْتُرُ ، والسُّوسُ ، وأَذْرَبِيجَانُ ، وبعض أعمال خُرَاسَانَ .

وفتحت مِصْرُ ، والإسْكَنْدَرية ، وأنْطَابُلُسُ ، وهي بَرْقَةُ ، وطَرَابُلُسُ الغرب ؛ على يد عمرو بن العاص .

وبويع بالخلافة بعده « عثمان بن عَفّانَ رضي الله عنه » لثلاثٍ بَقَيْنَ من المحرّم سنة أربع وعشرين ؛ وقتل بالمدينة لثمانَ عشرةَ ليلةً خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين ، وقيل يوم الأضحى ، وقيل غير ذلك .

وبويع بالخلافة بعده « علي كرّم الله وجهه » يوم قَتْل عثمان ، وقتل لسبعَ عشرةَ ليلة خلت من رمضان سنة أربعين من الهجرة بالعراق ، ودفن بالنّجَف على الصحيح المشهور .

وبويع بالخلافة لابنه « الحسن » بالكوفة من العراق يوم قتل أبيه ، وسلم الأمر لمعاوية لخمس بقين من ربيع الأوّل سنة إحدى وأربعين ، وقيل في ربيع الآخر ، وقيل في جمادى الأولى ، ولحق بالمدينة فأقام بها إلى أن تُوفّي بها في ربيع الأوّل سنة تسع وأربعين ، وقيل ست وخمسين .

* * *

الطبقة الثانية

خلفاء بني أمية

أوّلهم : « مُعَاوِيَةُ بن أبي سُفْيَانَ » كان أميراً

على الشام في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، واستمرَّ بها إلى أن سلّم الحسنُ إليه الأمرَ ، فاستقلَّ بالخلافة، وبقي حتّى توفي بدِمَشْقَ مستهلَّ رجب الفرد سنة ستين من الهجرة ، وقيل في النصف من رجب ، وهو أوّل من رتب أمور الملك في الإسلام .

وقام بالامر بعده ابنه « يَزيدُ » بالعهد من أبيه ؛ وبويع له بعد وفاته في رجب سنة ستين ، وتوفي لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل سنة أربع وستين .

وقام بالأمر بعده ابنه « مُعَاوِيةُ » وبويع له بالخلافة في النصف من شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين ، فأقام بالخلافة أربعين يوماً ، وقيل ثلاثة أشهر ، وقيل عشرين يوماً .

وقام بالأمر بعده « مَرْوَانُ بن الحكَم » وبويع له بالخلافة بالجابيَة في رجب سنة أربع وستين ، ثم جُدّدت له البَيْعَةُ في ذي القَعْدَةِ من السنة المذكورة ؛ وتُوُفّيَ بالطاعون بدِمَشْقَ في شهر رمضان سنة خمس وستين .

وقام بالأمر بعده ابنه « عبد الملك » بالعهد من أبيه ؛

وبويع له بالخلافة في الثالث من شهر رمضان المذكور ، وتوفي بدِمَشْقَ منتصف شوّال سنة ست وثمانين .

وقام بالأمر بعده ابنه « الوليد » بالعهد من أبيه ؛ وبويع له بالخلافة يوم موت أبيه ، وتوفي بدِمَشْقَ في منتصف جمادى الآخرة سنة ست وتسعين .

وقام بالأمر بعده أخوه « سليمان بن عبد الملك » وبويع له يوم موت أخيه الوليد ، وكان أبوه قد عهد أن يكون هو الخليفة بعد أخيه الوليد ، وتوفي بدَابِقَ لعشر خلون من صفرَ سنة تسع وتسعين .

وقام بالأمر بعده ابن عمه «عمر بن عبد العزيز» بعهده له؛ وبويع له بالخلافة يوم موته ، وتُوُفّي بخُنَاصِرَة لخمس وقيل لستٍّ بقين من رجب سنة إحدى ومائة .

وقام بالأمر بعده « يزيد بن عبد الملك بن مَرْوان » بعهد من أخيه سليمان أن يكون له الأمر من بعد عمر بن عبد العزيز ، وقيل : بعهد من أبيه أن يكون له الأمر بعد أخيه سليمان ، ولكنه سلم لابن عمه عُمَر ؛ وبويع

له يوم موت عمر ، وتوفي بجَوْلانَ لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة .

وقام بالأمر بعده أخوه « هشام بن عبد الملك» بعهد من أخيه يَزِيدَ ؛ بويع له بالخلافة في يوم موته ، وتوفي بالرُّصَافَةِ لِسِتٍ خَلَوْنَ من ربيع الأوّل سنة خمس وعشرين ومائة .

وقام بالأمر بعده « الوليد بن يَزيدَ بن عبد الملك » بويع له بالخلافة لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ، وقتل لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين (١) .

وقام بالأمر بعده ابنه « يزيد » المعروف بالناقص ؛ سمي بذلك لنقصه الجندَ ماكان زادهم يَزِيدُ ؛ بويع له بالخلافة يوم قَتْلِ الوليد ، وتوفي بدِمَشْقَ لعشر بقين من ذي الحجة من السنة المذكورة .

وقام بالأمر بعده أخوه « إبراهيم بن الوليد » بويع

---

(١) أي ومئة فكانت خلافته سنة واحدة وشهرين .

له بالخلافة بعد وفاة أخيه في ذي الحجة المذكور ، فمكث أربعة أشهر ، وقيل أربعين يوماً ثم خلع نفسه .

وقام بالأمر بعده « مَرْوان بن محمد بن مروان بن الحكم الجعدي » بتسليم إبراهيم بن الوليد الأمرَ إليه ؛ وفي أيامه ظهرت دعوة بني العباس ، وقصدته جيوشهم فهرب إلى مصر ، فأُدرك وقتل بقرية يقال لها بُوصِير من الفَيُّوم ، وبزواله زالت دولة بني أُمَيَّة .

* * *

الطبقة الثالثة

خلفاء بني العَبّاسِ بالعِراق

وأوّل من قام بالأمر منهم بعد خلفاء بني أُمَيّةَ « السّفّاحُ » وهو أبو العبّاس عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس : عمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ بويع له بالخلافة بالكوفة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وتوفي بالأنبار لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة .

وقام بالأمر بعده أخوه « المنصور » أبو جعفر عبد الله ؛ بويع له بالخلافة يوم موت أخيه السّفّاحِ ، وتوفي

بطريق مكة وهو محرم بالحج سنة ثمانٍ وخمسين ومائة ؛ ودفن بالحَجُونِ .

وقام بالأمر بعده ابنه « المَهْديّ » أبو عبد الله محمد ؛ بويع له بالخلافة يوم مات أبوه بطريق مكة وهو يومئذ ببغداد ، وتوفي بماسَبَذانَ في المحرّم سنة تسع وستين ومائة .

وقام بالأمر بعده ابنه « الهادي » أبو محمد موسى ؛ بويع له بعد أبيه يوم موته وهو غائب (١) ، فسار إلى بغداد ودخلها بعد عشرين يوماً ، وتوفي لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل سنة سبعين ومائة .

وقام بالأمر بعده « الرشيد » أبو محمد هارون بن المَهْديّ ؛ بويع له بالخلافة ليلة مات أخوه الهادي ، وتوفي ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة .

وقام بالأمر بعده ابنه « الأمين » أبو عبد الله محمد ، ويقال أبو موسى ، ويقال أبو العبّاس ، بالعهد من أبيه

(١) كان مقيماً بجرجان يحارب أهل طبرستان بعسكر أبيه .

هارون الرشيد ؛ وبويع له صبيحة الليلة التي توفي فيها أبوه الرشيد ، وقتل لخمس بقين من المحرّم سنة ثمان وتسعين ومائة .

ثم قام بالأمر بعده أخوه « المأمون » أبو العبّاس » ، ويقال أبو جعفر عبد الله ، بالعهد له من أبيه الرشيد أن يكون له الأمر بعد أخيه الأمين ؛ وبويع له بالخلافة يوم قتل أخيه الأمين ببغداد وهو غائب ؛ وبويع له البيعة العامة لخمس بقين من المحرّم سنة ثمان وتسعين ومائة ، وتوفي بأرض الروم لليلة بقيت من رجب ، وقيل لثمان خلون منه سنة ثماني عشرة ومائتين ، ودفن بطَرَسوسَ .

وقام بالأمر بعده أخوه « المعتصم بالله » أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد ؛ بويع له بالخلافة يوم موت أخيه المأمون وهو يومئذ بطَرَسُوسَ ، فسار إلى بغداد ، فدخلها مستهلَّ رمضان سنة ثماني عشرة ومائتين ، وتوفي بسامَرّا لثماني عشرة ليلة مضت من ربيع الأوّل سنة سبع وعشرين ومائتين .

وقام بالأمر بعده ابنه « الواثق بالله » أبو جعفر هارون ؛

بويع له بالخلافة يوم موت أبيه ، وتُوُفِّيَ بِسُرَّ مَنْ رَأَى لِستٍّ بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين .

وقام بالأمر بعده أخوه « المتوكل على الله » أبو الفضل جعفر ؛ بويع له بالخلافة يوم موت أخيه الواثق ، وقتل لثلاث خلون من شوّال سنة سبع وأربعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده ابنه « المستنصر بالله » أبو جعفر محمد ؛ بويع له بالخلافة صبيحة قتل أبيه المتوكل ، وتوفي بسَامَرّا لثلاث خلون من ربيع الآخر ، وقيل لخمس خلون من ربيع الأوّل سنة ثمان وأربعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده « المستعين بالله » أبو العباس أحمد ابن المعتصم بالله المتقدّم ذكره ؛ بويع له بالخلافة في اليوم الثاني من موت المستنصر ، وخلع نفسه لأربع خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين ، وجهز إلى واسط ، فقتل بها في آخر رمضان من السنة المذكورة .

وقام بالأمر بعده « المُعْتَزّ بالله » أبو عبد الله محمد ، وقيل أبو الزبير بن المتوكل على الله المتقدّم ذكره ؛

بويع له ببغداد حين خلع المستعينُ نفسَه ، وبايعه المستعين فيمن بايع ، وخلع لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين ، ثم قتل بعد ذلك .

وقام بالأمر بعده « المهتدي بالله » أبو عبد الله ، ويقال أبو جعفر محمد بن الواثق بالله المتقدّم ذكره ؛ بويع له بالخلافة بعد ليلتين من خلع المعتز بالله ، وقتل لأربع عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين ، وكان يقال : هو في بني العباس مثل عمر بن عبد العزيز في بني أُمَيّةَ .

وقام بالأمر بعده « المعتمد على الله » أبو العباس ، ويقال أبو جعفر أحمد بن جعفر المتوكل المتقدّم ذكره . بويع له بالخلافة يوم قتل المهتدي بالله ، وتوفي لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده « المعتضد بالله » أبو العباس أحمد ابن الموفق ، طلحة بن جعفر المتوكل ؛ بويع له بالخلافة يوم قتل المعتمد على الله ، وتوفي ببغداد لسبع وقيل لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين .

وقام بالأمر بعده ابنه « المكتفي بالله » أبو محمد عليّ ؛ بويع له بالخلافة يوم موت أبيه المعتضد وهو غائب بالرَّقّة ، وكتب إليه بعد ذلك فأخذ البيعة على من عنده وسار إلى بغداد، فدخلها لثمانٍ خَلَوْنَ من جمادى الأولى من سنته ، وتوفي ببغداد لثلاث عشرة ليلة ، وقيل لثنتي عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده أخوه « المقتدر بالله » أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالله المتقدّم ذكره ، وخُلع لعشر بقين من ربيع الأول سنة ست وتسعين ومائتين .

وبويع « المرتضي بالله » أبو محمد عبد الله بن المعتز ، فأقام يوماً وليلة ثم اضطرب عليه الأمر فاختفى ، وعاد الأمر إلى المقتدر فظفِر بابن المعتز فصادره ، ثم أخرج من دار السلطان ميّتاً لليلتين خَلَتا من ربيع الآخر من السنة المذكورة ، ثم خَلَع المقتدرُ بالله نفسَه ؛ وبويع بالخلافة أخوه القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد فأقام يومين ، ثم عاد الأمر إلى المقتدر بالله وبقي حتّى قُتِلَ لثلاث خلون من شوّال سنة عشرين وثلاثمئة .

وقام بالأمر بعده أخوه « القاهر بالله » المتقدم ذكره ، لليلتين بقينا من شوّال سنة عشرين وثلاثمئة ، ثم خلع وسُمِلت عيناه لِستٍّ خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة .

وقام بالأمر بعده ابن أخيه « الراضي بالله » أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله المتقدّم ذكره ، وتوفي لست عشرةَ ليلة خلت من ربيع الأوّل سنة تسع وعشرين وثلاثمئة .

وقام بالأمر بعده أخوه « المتقي بالله » أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر بالله المتقدّم ذكره ؛ بويع له بالخلافة لعشر بقين من ربيع الأوّل سنة تسع وعشرين وثلاثمئة . وخُلع وسُمِلت عيناه لعشر بقين من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة .

وقام بالأمر بعده ابن عمه « المستكفي بالله » أبو القاسم (١) عبد الله بن المكتفي بالله المتقدّم ذكره ؛

---

(١) كذا في العقد الفريد (ج٣ ص ٥٧) والنجوم الزاهرة (ج٣ ص ٢٧٣) أيضاً . وفي حياة الحيوان (ج١ ص ١١٥) : « أبو العباس » .

بويع له بالخلافة يوم خلع المتقي بالله بمشاركته له ، ثم خُلع وسُمِلَتْ عيناه في جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة .

وقام بالأمر بعده ابن عمه « المطيع لله » أبو القاسم ، ويقال أبو العباس الفضل بن المقتدر بالله المتقدم ذكره ، بويع له بالخلافة يوم خلع المستكفي ، وخلع نفسه منها للعجز بالمرض في الثالث عشر من ذي القعدة سنة ثلاث وستين وثلاثمئة .

وولي الخلافة بعده ابنه « الطائع لله » أبو بكر عبد الكريم ؛ بويع له بالخلافة يوم خَلْع أبيه المطيع لله ، وقُبِضَ عليه لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة إحدى وثمانين وثلاثمئة فخلع نفسه .

وقام بالأمر بعده « القادر بالله » أبو العباس أحمد بن إسحاق ؛ بويع له بالخلافة يوم خلع الطائع ، وكان غائباً بالبطائح فأُحْضر ، وجددت له البيعة ببغداد في شهر رمضان من السنة المذكورة ، وتوفي حادي عشر ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه « القائم بأمر الله » أبو جعفر عبد الله ، بالعهد من أبيه ، وجدّدت له البيعة بعد موت أبيه ، توفي ثالث عشر شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة .

وقام بالأمر بعده ابن ابنه « المقتدي بأمر الله » عبد الله بن ذخيرة الدّين محمد بن القائم بأمر الله المتقدّم ذكره ، وتوفي فجأة في الخامس والعشرين من المحرّم سنة سبع وثمانين وأربعمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه « المستظهر بالله » أبو العباس أحمد ؛ بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه ، وتوفي سادسّ عشر ربيع الآخر سنة اثنتَيْ عشرة وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه « المسترشد بالله » أبو منصور الفضل ؛ بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه المستظهر ، وقتل في قتال الباطنية سابعَ عشر ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه « الراشد بالله » أبو جعفر المنصور ، بالعهد من أبيه ، وجدّدت له البيعة يوم قتله ، وخلع في منتصف ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده « المقتفي لأمر الله » أبو عبد الله محمد بن المستظهر المتقدّم ذكره ؛ بويع له بالخلافة يوم خلع الراشد بالله ، وتوفي ثاني ربيع الأوّل سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه « المستنجد بالله » أبو المُظَفَّرِ يوسف ؛ بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه المقتفي ، وتوفي تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه « المستضيء بالله » أبو محمد الحسن ؛ بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه المستنجد من أقاربه بَيْعَةً خاصة ، وفي عشره (١) بَيْعَةً عامة ، وتوفي ثاني ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه « الناصر لدين الله » أبو العباس أحمد ؛ بويع له بالخلافة يوم موت أبيه المستضيء ، وتوفي أوّل شوال سنة اثنتين وعشرين وستمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه « الظاهر بأمر الله » أبو نصر

---

(١) أي عاشر ربيع الآخر التالي للبيعة الخاصة الواقعة في التاسع.

محمد ؛ بويع له بالخلافة يوم موت أبيه الناصر . وتوفي رابع عشر رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه « المستنصر بالله » أبو جعفر المنصور ؛ بويع له بالخلافة يوم موت أبيه الظاهر . وتوفي لعشر خلون من جمادى الأولى سنة أربعين وستمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه « المستعصم بالله » أبو أحمد عبد الله ، بويع له بالخلافة يوم موت أبيه المستنصر بالله ؛ وقتله هُولاَكُو مَلِكُ التّتَارِ في العشرين من المحرّم سنة ست وخمسين وستمائة . وبقتله انقرضت الخلافة العباسية من بغداد ؛ وهو الثامن والثلاثون من خلفاء بني العباس ببغداد إذا عدّت خلافة ابن المعتز ، وحسبت خلافة القاهر أولاً وثانياً خلافةً واحدة .

* * *

الطبقة الرابعة

خلفاء بني العبّاس بالديار المصرية من بَقايا بني العبّاس

وأوّل من قام بأمر الخلافة بها « المستنصر بالله » أبو القاسم أحمد بن الظاهر بالله أبي نصر محمد المتقدّم

ذكره ، وذلك أنه لما قتل التتر المستعصم المتقدّم ذكره ، بقيت الخلافة شاغرةً نحواً من ثلاث سنين ونصف ، ثم قدم جماعة من عرب الحجاز إلى مصر في رجب سنة تسع وخمسين وستمائة أيامّ الظاهر بيبرس ، ومعهم المستنصر المذكور ، وذكروا أنه خرج من دار الخلافة ببغداد لمّا ملكها التّتَرُ ، فعقد الملك الظاهر له مجلساً حضره جماعة من العلماء ، منهم الشيخ عز الدّين بن عبد السلام شيخ الشافعية ، وقاضي القضاة تاجُ الدين ابن بنت الأعز الشافعي ، وهو يومئذ قاضي الديار المصرية بمفرده ، وشهد أولئك العرب بنسبه ، ثم شهد جماعة من الشهود على شهادتهم بحكم الاستفاضة ، واثبت ابن بنت الأعز نسبَه ، ثم بايعه الملك الظاهر بالخلافة وأهلُ الحلِّ والعقد ، وأهتم الملك الظاهر بأمره ، واستخدم له عسكراً عظيماً ، وتوجه الملك الظاهر إلى الشام وهو صحبته فجهّزه من هناك بعسكره إلى بغداد طمعاً أن يستولي عليها وينتزعها من التتار ، فخرج إليه التتار قبل أن يصل بغداد فقتلوه ، وقتلوا غالب عسكره في العشر الأوّل من المحرّم سنة ستين وستمائة . فكانت خلافته دون السنة ؛ وهو

أوّل خليفة لقب بلقب خليفة قبله ، وكانوا قبل ذلك يلقبون بألقاب مرتَجَلَة .

وقام بالأمر بعده « الحاكم بأمر الله » أبو العباس أحمد ابن حسين بن أبي بكر ابن الأمير أبي علي القبيّ ابن الأمير حسن بن الراشد بالله أبي جعفر المنصور المتقدّم ذكره في الخلفاء ببغداد . قدِمَ مصر سنة تسع وخمسين وستمائة ، وهو ابن خمسَ عشرةَ سنة في سلطنة الظاهر بيبرس . وقيل إن الظاهر بعث من أحضره إليه من بغداد ، وجلس له مجلساً عاماً أثبتَ فيه نسبَه ، وبايعه بالخلافة في سنة ست وستين وستمائة ، وأشركه معه في الدعاء في الخطبة على المنابر ، إلا أنه منعه التصرفَ والدخول والخروج . ولم يزل كذلك إلى أن وليَ السلطنة الملكُ الأشرف خليل بن المنصور قلاوون ، فأسكنه بالكبش بخط الجامع الطولوني ، فكان يخطب أيام الجمعة في جامع القلعة ويصلي ، ولم يطلق تصرفه إلى أن تسلطن المنصور لاجين ، فأباح له التصرف حيث شاء وأركبه معه في الميادين ؛ وتوفي في شهور سنة إحدى وسبعمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه « المستكفي بالله » أبو الربيع سليمان بالعهد من أبيه الحاكم ؛ وبويع له بالخلافة يوم موت أبيه ، واستقرّ على ماكان عليه أبوه من الركوب والنزول وركوب الميادين مع السلطان إلى أن أعيد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة المرّة الثانية بعد خلع الملك المظفر بيبرس الجاشنكير في شهور سنة تسع وسبعمائة ، فحصل عند السلطان منه وحشة ، فجهزه إلى قُوص ليقيم بها ، وبقي بقُوص حتّى توفي في سنة أربعين وسبعمائة .

وولي الخلافة بعده ابنه « المستعصم بالله » أبو العباس أحمد بعهد من أبيه المستكفي بأربعين شاهداً بمدينة قوص ، ودعي له على المنابر في العشر الأخير من شوّال سنة أربعين وسبعمائة .

ثم خلعه الناصر محمد بن قلاوون ؛ وبايع بالخلافة « الواثق بالله » أبا إسحاق إبراهيم بن الحاكم بأمر الله المتقدّم ذكره ، وأمر بأن يدعى له على المنابر ، وتحمل له راية الخلافة ، فجرى الأمر على ذلك . وكان قد همّ

بمبايعته بعد موت المستكفي فلم يتم له . فلما توفي الملك الناصر في العشرين من ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، أعيد المستعصم بالله أحمد المتقدّم ذكره إلى الخلافة بعد خلع الواثق ابراهيم وبقي حتّى توفي رابعَ شعبان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة .

ثم ولي الخلافة بعده أخوه « المعتضد بالله » أبو الفتح أبو بكر بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان سابع عشر شعبان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، وتوفي عاشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعمائة .

وولي الخلافة بعده ابنه « المتوكل على الله » أبو عبد الله محمد بن المعتضد بالله المتقدّم ذكره بالعهد من أبيه المعتضد ، واستقرّ له الأمر بعد وفاة أبيه يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعمائة . وبقي حتّى خلعه الأمير أيْبَكْ أتابكُ العساكر في سلطنة الملك المنصور عليّ بن الأشرف شعبان بن حسين .

وولي الخلافة مكانه « المستعصم بالله » أبو يحيى زكريا بن الواثق إبراهيم المتقدّم ذكره ، فأقام في الخلافة

دون ثلاثة أشهر . ثم أعيد المتوكل على الله محمد بن أبي بكر إلى الخلافة ثانياً في أواخر المحرّم أو أوائل صفر سنة تسع وسبعين وسبعمائة واستمرّ حتّى قبض عليه الظاهر برقوق واعتقله بقلعة الجَبَل في مستَهَلّ شهر رجب سنة خمس وثمانين وسبعمائة .

وولّي الخلافة مكانه « الواثق بالله » أبو حفص عمر بن الواثق بالله إبراهيم المتقدّم ذكره : فبقي حتّى توفي في العشر الأوّل من شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ، فأعاد الظاهر برقوق المستعصم بالله زكريا المتقدّم ذكره ثانياً إلى الخلافة ، والمتوكل على الله في الاعتقال . والناس لايَرَوْنَ في كل ذلك الخليفةَ غيره .

ثم عنّ للملك الظاهر برقوق بعد ذلك فأطلق المتوكل على الله من الاعتقال ، وأكرمه وأحسن إليه في ثاني جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ، وبقي في الخلافة حتى توفي سابع عشري شهر رجب الفرد سنة ثمان وثمانمائة.

وولي الخلافة بعده ابنه « أبو الفضل العباس ولُقِّبَ المستعينَ بالله » وبقي في الخلافة على سَنَنِ من تقدّمه

من الخلفاء العباسيين بالديار المصرية من قصور أمره على العهد إلى السلطان والدعاء له على المنابر قبل السلطان إلى أن قبض على الناصر فرج بن برقوق بالشام في الثاني عشر من ربيع الأوّل من سنة خمس عشرة وثمانمائة ، فاستقلّ بالأمر واستبدّ به ، و جتمع له أمر الخلافة : مِن ْضَرْبِ اسمه على السِّكّة في الدّنانير والدراهم والدعاء له على المنابر بمفرده . والعلامة على التقاليد والتواقيع والمكاتبات وغيرها ، وفوّض أمر تدبير دولته للأمير « شيخ » وكُتب له تفويض ٌ في ورق : عرضُه ذراعٌ ونصفٌ بذراع البَزّ ، يزيد عما كان يكتب فيه للسلاطين نصف ذراع بقلم مختصر الطومار .

وكان المتولي لأمر كتابته المقرّ الشمسيّ محمد العمري عين أعيان كُتّاب الدّست الشريف بالأبواب الشريفة السلطانية ، ونائب كاتب السر .

* * *

ترتيب الخلافة

اعلم أن الخلافة لابتداء الأمر كانت جارية على ما أُلِفَ من سيرة النبيّ صلى الله عليه وسلم : من خُشونة العيش ، والقُرْبِ من الناس ، واطّراح الخُيَلاء ؛ وأحوال الملوك ، مع مافتَح الله تعالى على خلفاء السلف من الأقاليم ، وجبى إليهم من الأموال التي لم يفُزْ عظماء الملوك بجزء من أجزائها . وناهيك أنهم فتحوا عِدة من الممالك العظيمة التي كان يضرب بها المثل في عظَم قدرها ، وارتفاع شأن ملوكها ، من ممالك المشرق والمغرب. حتّى ذُكر عظماء الملوك عند بعض السلف فقال : « إنما المَلكُ الذي يأكل الشعير ويَعُسُّ على رجليه بالليل ماشياً وقد فُتِحَتْ له مشارقُ الأرض ومغاربُها » يريد عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ولم يزل الأمرُ

على ذلك إلى أن سلّمَ الحسنُ رضي الله عنه الأمرَ لِمُعَاوِيَةَ وإلى ذلك الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « الخلاَفةُ في أمّتي ثلاثونَ سنةً ثم مُلكٌ بعد ذلك » فكان آخر الثلاثين خلافةَ الحسن .

فلما سلّم الحسن رضي الله عنه لِمعاوية بعد وقوع الاختلاف وتَبَايُنِ الآراء ، اقتضى الحال في زمانه إقامةَ شعَارِ الملك ، وإظهارَ أُبّهةِ الخلاَفة ، فأخذ في ترتيب أمور الخلافة على نظام الملك لما في ذلك من إرهاب العدوّ وإخافته . بل كان ذلك شأنَه وهو أمير بالشام قبل أن يلي الخلافة . حتّى حكى صاحب « العِقْدِ » وغيرُهُ أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عَنه قَدِمَ الشأم في خلافته ، وهو راكب على حمار ، ومعه عبد الرحمن بن عوف ، ومعاويةُ أميرٌ على الشام ، فخرج معاوية لملاقاته في مَوْكِب عظيم ، فلقيه في طريقه في خيف من القوم فلم يشعُرْ به وتعدّاه طاباً له ؛ ثم عُرِّفَ ذلك فيما بعد ، فرجع وسلّم على أمير المؤمنين عمر ، ومشى إلى جانبه ، فلم يلتفت إليه ، وطال به ذلك ،

فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبْتَ الرجل يا أمير المؤمنين؛ فالتفت إليه حينئذ ، وقال : أنت صاحب المَوْكِب الآن مع مايبلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك ؟ فقال : ياأمير المؤمنين : إنا بأرضٍ يكثر فيها جواسيسُ العدوّ فأحتاجُ أن أظْهِر لهم من أُبّهَةَ المُلك والسلطان ما يَزَعُهُمْ ، فإن أمرتني به ائتمرت ، وان نهيتَني عنه ، انتهيت . فقال : إن كان ماقلتَ حقاً ، فانه لَرَأْيُ أديبٍ ! وإن كان غيْرَ حق ، فانه لَخُدْعة أريب . لا آمرُكَ ولا أنْهاك . فقال عبد الرحمن : لَحَسَنٌ يا أمير المؤمنين ! ما صدَرَ به هذا الفتى عما أورَدْتَه فيه . فقال : لِحُسْنِ مَصَادِرِهِ وموارده جشّمْنَاه ما جشمناه .

فلما صارت الخلافة إليه ، زاد في حسن الترتيب وإظهار الأُبّهة ، وأخذ الخلفاء بعده في مضاعفة ذلك والاحتفال به حتّى أمست الخلافة في أغنى مايكون من ترتيب الملك ، وفاقت في ذلك الأكاسِرَةَ والقياصرة . بل اضْمَحَلَّ في جانب الخلافة سائر الممالك العظام ،

وانطوى في ضمنها ممالك المشارق والمغارب ، خصوصاً في أوائل الدولة العباسية في زمن الرشيد ومَنْ والاه .

حتّى يحكى أن صاحبَ عَمُّورِيّةَ من ملوك الروم كانت عنده شريفةٌ مأسورةٌ في خلافة المُعْتَصِمِ فعذّبها ، فصاحتوا مُعْتَصِماه ! فقال لها : لايأتي المعتصم لخلاصك إلا على أبْلَقَ . فبلغ ذلك المعتصم ، فنادى في عسكره بركوب الخيل البُلْقِ ، وخرج وفي مقدّمة عسكره أربعةُ آلاف أبلق ، وأتى عَمُّورِيّةَ فحاصرها وخلّص الشريفة ، وقال : اشهدي لي عند جدّك المصطفى صلى الله عليه وسلم أني جئت لخلاصِك ، وفي مقدّمة عسكري أربعة آلافِ أبْلَقَ :

وقد حكى ابن الأثير في تاريخه : أنه لما وصلت رسُل ملك الروم إلى بغداد في سنة خمس وثلاثمئة في خلافة المقتدر ، رُتِّبَ من العسكر في دار الخلافة مائة وستون ألفاً مابين راكب وراجل ، ووقف بين يدي الخليفة سبعُمائة حاجب ، وسبعة آلاف خادم خَصِيٍّ : أربعة آلاف بِيض وثلاثة آلاف سُود ، ووقف الغِلْمَان

المَجَرِيّةُ الذين هم بمثابة مماليك الطباق الآن بالباب ، بتمام الزينة والمناطق المُحَلاَّةِ ، وزينت دار الخلافة بأنواع الأسلحة ، وغرائب الزينة ، وغُشِّيت جُدْرَانُها بالستور ، وفرشت أرضها بالبُسُطِ ، وكان عدّة البسط اثنين وعشرين ألف بساط ، وعدّة الستور المعلقة ثمانيةً وثلاثين ألف ستر ، منها اثنا عشر ألف ستر من الديباج المُذْهَبِ ؛ وكان من جملة الزينة شجرة من الذهب والفضة بأغصانها وأوراقها ، وطيورُ الذهب والفضة على أغصانها ، وأغصانُها تتمايل بحركات موضوعة ، والطيور تُصَفِّرُ بحركات مرتبة ، وألقيت المراكب والدبادب في دِجْلَةَ بأحسن زينة . وكان هناك مائة سَبُع مع مائة سَبّاع ، إلى غير ذلك من الأحوال الملوكية التي يطول شرحها .

هذا مع تقهقر الخلافة وانحطاط رتبتها يومئذ ؛ ولم تزل الخلافة قائمة على ترتيب واحد في النفقة والجرايات والمطابخ وإقامة العساكر إلى آخر أيام الراضي بالله ؛

فلما ولي المُتّقي لله ، تقاصر أمرُ الخلافة وتناقص ؛

وقَنع الخلفاء من الخلافة بالدعاء على المنابر وضَرْبِ اسمهم على الدنانير والدراهم ، وربما خطب الواحد منهم بنفسه . ومع ذلك فكان الخليفة هو الذي يولّي أربابَ الوظائف من القضاة وغيرهم ، وتكتب عنه العهود والتقاليد وغيرها لايشاركه في ذلك سلُطَان .

وأما شعَار الخلافة :

فمنها « الخاتَمُ » : والأصل فيه ماثبت في الصحيح « أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له : إن الملوك لايَقْرءُون كتاباً غير مختوم فاتّخذ خَاتَماً من وَرِقٍ وجعل نَقْشَهُ «محمدٌ رسول الله » فلما تُوُفِّي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لبسه أبو بكر بعده ، ثم لبسه عمر بعد أبي بكر ، ثم لبسه عثمانُ بعد عمرَ ، فوقع منه في بئر فلم يُقْدَرْ عليه .

واتخذ الخلفاء بعد ذلك خواتيمَ ، لكل خَاتَم نقشٌ يخصه ، وبقي الأمر على ذلك إلى انقراض الخلافة من بَغْدَادَ .

ومنها « البُرْدة » وهي بردة النبي صلى الله عليه وسلم التي كان الخليفة يلبسها في المواكب .

قال ابن الأثير : وهي شَمْلَةٌ مُخَطَطة ، وقيل: كِسَاءٌ أسودُ مربّع فيه صِغَرٌ ؛ وقد اختُلف في وصولها إلى الخلفاء .

فحكى المَاوَرْدِيُّ في «الأحكام السلطانية» عن أبان ابن تغلب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان وَهَبها لكعب بن زُهَير حين امتدحه بقصيدته التي أوّلها : « بَانَتْ سُعَادُ » فاشتراها منه معاوية . والذي ذكره غيره أن كعباً لم يسمح ببيعها لمعاوية ، وقال : لم أكن لأوثِر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً . فلما مات كعب اشتراها معاويةُ من ورثته بعشرة آلاف درهم .

وحكى المَاوَرْدِي أيضاً عن حمزة بن ربيعة أن هذه البردة كان النبيّ صلى الله عليه وسلم أعطاها لأهل أيْلَةَ أماناً لهم ، فأخذها منهم عبد الله بن خالد بن أبي أوْفَى ،وهو عامل عليهم من قِبَلِ مَرْوَانَ بن محمد آخرِ خلفاء بني أُمَيّةَ وبعث بها إليه ، وكانت في خزانته حتى أُخِذت بعد قتله . وقيل: اشتراها أبو العباس السفّاحُ ، أوّلُ خلفاء بني العباس بثلاثمئة دينار .

ومنها « القَضِيب » : وهو عُود كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذه بيده .

قال الماوردي : وهو من تركة النبيّ صلى الله عليه وسلم التي هي صدقة .

قلت : وكان القضيب والبردةُ المتقدّما الذكر عند خلفاء بني العبّاس ببغداد إلى أن انتزعهما السلطان سنجر السّلْجُوقِي من المسترشد بالله ، ثم أعادهما إلى المقتفي عند ولايته في سنة خمس وثلاثين وخمسمائة . والذي يظهر أنها بقيت عندهم إلى انقضاء الخلافة من بغداد سنة ست وخمسين وستمائة فان مقدار مابينهما مائةٌ وإحدى وعشرون سنة ، وهي مدة قريبة بالنسبة إلى ماتقدم من مدتّهما .

ومنها « ثياب الخلافة » : وقد ذكر السلطان عماد الدين صاحب حماة في تاريخه في الكلام على ترجمة الملك السعيد إسماعيل أحد ملوك بني أيوبَ باليَمَنِ أنه كان به هَوَجٌ ، فادّعى أنه من بني أمية ،ولبس ثياب الخلافة ، ثم قال : وكان طول الكم يومئذ عشرين شِبْراً ، فيحتمل أنه أراد زمن بني أمية ، وأنه أراد زمن بني أيوب

ومنها « اللون » في الأعلام والخِلَع ونحوها .

وكان شعار بني أُمية من الألوان الخُضْرَة ، فقد حكى صاحب حماة عن الملك السعيد إسماعيل المتقدم ذكره : أنه حين ادّعى الخلافة وأنه من بني أمَيّةَ لبس الخُضْرَةَ ، وهذا صريح في أنه شِعَارُهم .

أما بنو العباس فشعارهم السَّوَادُ ؛ وقد اختُلف في سبب اختيارهم السَّوادَ ، فذكر القاضي المَاوَرْدي في كتابه « الحاوي الكبير » في الفقه : أن السبب في ذلك أن النبي صلّى الله عليه وسلم في يوم حُنَيْنٍ ويومِ الفَتْحِ عقد لعمه العبّاس رضي الله عنه رايةً سوداء .

وحكى أبو هلال العسكري في كتابه « الأوائل » : أن سبب ذلك أن مَرْوَانَ بن محمد آخرِ خلفاء بني أُمَيّةَ حين أراد قتل إبراهيم بن محمد العبّاسيّ أوّلِ القائمين من بني العبّاس بطلب الخلافة قال لشيعته : لايَهُولنكم قتلي ، فإذا تمكنتم من أمركم فاستخلفوا عليكم أباالعبّاس ، يعني السَّفّاحَ ؛ فلما قتله مَرْوان ، لبس شيعته عليه السَّوادَ ، فلزمهم ذلك وصار شِعاراً لهم .

ومن غريب ماوقع مما يتعلق بذلك ماحكاه ابن سعيد في « المُغْرِب » أن الظافر الفاطميّ أحدَ خلفاء مصر لما قتله وزيره عباس ، بعث نساءُ الخليفة شعورَهن طيَّ الكُتُب إلى الصالح طلائع بن رُزِّيْك ، وهو يومئذ والٍ بمنية بني خَصيبٍ (١) ، فحضر اليهم وقد رفع تلك الشعور على الرماح ، وأقام الرايات السود إظهاراً للحرب على الظافر ، ودخل القاهرة على ذلك من الفأل العجيب ، وهو أن مصر انتقلت إلى بني العباس بعد خمس عشرة سنة ، ورفعت راياتهم السُّود بها .

* * *

وأما تولية الملوك عن الخلفاء ، فكان الحال فيه مختلفاً باعتبار السلطان بحضرة الخلافة وغيره : فإن كان الذي يوليه الخليفة هو السلطانَ الذي بحضرة الخلافة ، كبني بُوَيه وبني سلجوق وغيرهم ، فقد حكى ابن الأثير

(١) وتعرف بمنية ابن الخصيب ، ومنية أبي خصيب ، نسبة إلى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر في عهد الخليفة هارون الرشيد العباسي . وهي المعروفة اليوم بـ « المنيا » عاصمة الاقليم المعروفة باسمها بمصر .

وغيره أن السلطان طُغْرُلْبَك بن ميكائيل السّلجُوقيْ لما تقلد السلطنة عن « القائم بأمر الله » في سنة تسع وأربعين وأربعمائة ، جلس له الخليفة على كرسيٍّ ارتفاعُه عن الأرض نحو سبعة أذْرُعٍ ، وعليه البُرْدَةُ ، ودخل عليه طغرلبك في جماعةٍ ، وأعيانُ بغداد حاضرون ، فقَبّل طُغْرُلْبَك الأرضَ ويَدَ الخليفة ، ثم جلس على كرسيٍّ نُصِبَ له ، ثم قال رئيسُ الرؤساء وزيرُ الخليفة عن لسان الخليفة : « إن أمير المؤمنين قد ولاّك جميعَ ماولاّه الله تعالى من بلاده ، وردّ إليك أمرَ عباده ، فاتق الله فيما ولاّك ، واعرف نعمته عليك » ثم خلعَ على طُغْرلْبَك سبعُ جُبّات سود بزيق واحد ، وعمامة سوداء ، وطُوّق بطوق من ذهب ، وسُوّر بسِوَارَيْن من ذهب،وأُعْطِي سيفاً بغلاف من ذهب ، ولقبه الخليفة ، وقرىء عهده عليه فقبل الأرض ويدَ الخليفة ثانياً وانصرف ، وقد جُهِّز له فرس من إصْطَبْلاَتِ الخليفة بمَرْكَب من ذهب مقندس،فركب وانصرف إلى داره ؛ وبعث إلى الخليفة خمسين ألفَ دينار ، وخمسين مملوكاً من الترك بخيولهم وسلاحهم مع ثياب وغيرها . ولعل هذا كان ترتيبهم في لبس جميع ملوك الحضرة .

وإن كان الذي يوليه الخليفة من ملوك النواحي البعيدة عن حضرة الخليفة كملوك مصر إذ ذاك ونحوهم ، جهز له التشريف من بغداد صحبة رسول من جهة الخليفة ، وهو جُبّة أطلس أسود بطراز مُذْهَبٍ وطوق من ذهب يجعل في عنقه ، وسِوَارَانِ من ذهب يجعلان في يديه ، وسيفٌ قِرَابُهُ مُلَبَّسٌ بالذهب ، وفرس بمركب من ذهب ، وعَلَمٌ أسودُ مكتوب عليه بالبياض اسم الخليفة ينشر على رأسه ، كما كان يبعث إلى السلطان صلاح الدّين يوسف بن أيوب ثم أخيه العادل : فاذا وصل ذلك إلى سلطان تلك الناحية ، لبس الخِلْعَةَ والعمامة ، وتقلد السيف وركب الفرس وسار في موكبه حتى يصل الى محل ملكه : وربما جهز مع خلعة السلطان خِلَعٌ أخرى لولده أو وزيره أو واحدٍ من أقاربه بحسب مايقتضيه الحال حينئذ :

وآخر من وصلت إليه الخِلْعَةُ والطوق والتقليد من ملوك بني أيوب من بغداد الناصرُ يوسف بن العزيز ابن السلطان صلاح الدين عن المستعصم في سنة خمس وخمسين وستمائة .

* * *

وأما الوظائف المعتبرة عندهم ، فعلى ضربين :

الضرب الأول

وظائف أرباب السيوف ؛ وهي عدّة وظائف :

منها « الوزارة » في بعض الأوقات دون بعض .

وقد ذكر القُضَاعي وغيره أن أوّل من لُقّب بالوزارة في الإسلام ، أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال وزير أبي العبّاس السّفّاح أوّل خلفاء بني العبّاس ، ولم يكن ذلك قبله ، ثم جرى الأمر على ذلك في اتخاذ الخلفاء الوزراء إلى انقراض الخلافة ببغداد بقتل التتار المستعصمَ في سنة ست وخمسين وستمائة ، ووزيره يومئذ مؤيد الدين بن العلقميّ ، وقتله هولاكو ملك التتار بعد قتل المستعصم لممالأته على المستعصم مع التتار ، وهو آخر وزراء الخلافة ببغداد .

ومنها « الحِجابة » : وكان موضوعها عندهم حفظ باب الخليفة والاستئذان للداخلين عليه ، لا التّصَدّي للحكم في المَظَالم كما هو الآن .

وقد ذكر القضاعيّ في « تاريخ الخلائف » مايقتضي

أن الخلفاء لم تزل تتخذ الحُجّابَ من لَدُن الصِّدِّيق رضي الله عنه فمَن بعدَه ، خلا الحسنَ بن عليّ فإنه لم يكن له حاجب .

ومنها « وِلاَيَة المَظَالم » : وموضوعها قَوْدُ المتظالمين إلى التناصف بالرَّهْبة ، وزَجْر المتنازعين عن التجاحُد بالهيبة . كما قال المَاوَرْدِيُّ في « الأحكام السلطانية » وهي شبيهة بالحجوبية الآن في هذا المعنى ؛ وكانت عندهم من أعلى الوظائف وأرفعها رتبة لايتولاّها إلا ذوُو الأقدار الجليلة ، والأخطار الحفيلة .

ومنها « النِّقَابَةُ على ذوي الأنساب » : كالطالبيين والعباسيين ومَنْ في معناهم ، كما في نَقابة الأشراف الآن بالديار المصرية وأعمالها ؛ وكانت لديهم من وظائف أرباب السيوف ، ولذلك اسْتُصْحِب هذا المعنى في نقيب الأشراف الآن ، فيكتب في ألقابه الأميريُّ ، وإن كان من أرباب الأقلام على ماسيأتي ذلك في كتابة توقيعه إن شاء الله تعالى .

* * *

الضرب الثاني

وظائف أرباب الأقلام ، وهي نوعان : دينية وديوانية .
فأما الديوانية فأجلُّها « الوِزارَةُ » إذا كان الوزير صاحب قَلَم . وقد مرّ القول في ابتداء وزارة الخلفاء وانتهائها في الكلام على وزارة أرباب السيوف في الضرب الأول .

وأما الدينية فمنها « القَضَاء » وكانت ولاية القضاء عن الخليفة تارةً تكون عامّة لبغداد وأعمالها ، وتارة قاصرةً على بغداد أو أحد جانبيها .

ومنها « الحِسْبَةُ » وأمرها معروف .

ومنها « ولاية الأوقاف » والنظر عليها .

ومنها « الولاية على المساجد » والنظر في أمر الصلاة .

ومن الوظائف الخارجة عن حضرة الخلافة لأرباب السيوف الإمارةُ على الجهاد ، والإمارةُ على الحج وغيرها .

ومن الوظائف الخارجة عن الحضرة لأرباب الأقلام ولايةُ قضاء النواحي ، والحِسبةُ بها ، إلى غير ذلك من ولايات زعماء الذمة وغيرهم .

* * *

الحالة الثانية

ماصار إليه الأمر بعد انتقال الخلافة إلى الديار المصرية عند استيلاء التتار على بغداد لما بايع الملك الظاهر بيبرس البندقداريّ في سنة تسع وخمسين وستمائة « المستنصر بن الظاهر » أوّل الخلفاء بمصر على ماتقدّم ذكره ، وكُتب له عهد عنه بالسلطنة من إنشاء القاضي محيي الدين عبد الظاهر ، وعمل له السلطان الدّهاليز وآلات الخلافة ورتب له الجمدارية ، واستخدم له عسكراً عظيماً ، وجهزه إلى بغداد للاستيلاء عليها فقتله التتار على ماتقدّم .

ثم لما بايع الظاهر أيضاً الإمامَ « الحاكم بأمر الله » ثاني خلفائهم أيضاً في سنة تسع وخمسين وستمائة على ماتقدّم ذكره ، بقي مدّة ، ثم أشركه معه في الدّعاء في الخطبة على المنابر في سنة ست وستين وستمائة ، إلا

أنه منعه من التصرف والدخول والخروج . ولم يزل كذلك إلى أن ولي السلطنةَ الملكُ الأشرفُ « خليل بن المنصور قلاوون » فأطلق سبيله ، وأسكنه في الكبش على القرب من الجامع الطُّولُونِيّ ؛ وكان يخطب أيام الجمع بجامع القلعة إلى أن ولي السلطنة الملكُ المنصورُ حُسَام الدّين لاجين ، فأباح له التصرف والركوب إلى حيث شاء ؛ وبقي الأمر على ذلك إلى أن ولي الخلافةَ « المستعصم بالله » أبو العباس أحمد بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان المرّة الثانية بعد موت الملك الناصر محمد بن قلاوون ؛ ففوّض إليه السلطان نظر المشهد النفيسي واستقرّ بأيدي الخلفاء إلى الآن .

والذي استقرّ عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوّض الأمور العامة إلى السلطان ، ويُكْتَبُ له عنه عهدٌ بالسلطنة ،ويدعى له قبل السلطان على المنابر إلا في مصلّى السلطان خاصة في جامع مصلاه بقلعة الجبل المحروسة ، ويستبد السلطان بما عدا ذلك : من الولاية والعزل وإقطاع الإقطاعات حتّى للخليفة نفسه ، ويستأثر بالكتابة في جميع ذلك .

قلت : ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن قُبِض على السلطان الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق بالشام في أوائل سنة خمس عشرة وثمانمائة على ماتقدّم ذكره ، فاستقل الإمام « المستعينُ بالله » خليفة العصر بأمر الخلافة : من الكتابة على العهود ومناشير الإقطاعات ، والتقاليد ، والتواقيع ، والمكاتبات وغيرها ، وأُفرد بالدعاء على المنابر ، وضرب اسمه على الدنانير والدراهم والطرز . على ماتقدّم ذكره في الكلام على ترتيب الخلفاء ، وهيئتِه في لبسه عند ركوبه بالمدينة في المواكب أو غيرها .

فعمامته مدوّرة لطيفة . عليها رَفْرَفٌ من خَلْفه تقدير نصف ذراع في ثلث ذراع مرسل من أعلى عمامته إلى أسفلها ، وفوق ثيابه كاملية ضيقة الكُمّ مُفَرَّجَةُ الذيل من خلف . وتحتها قباء ضيق الكُمّ .

أما تقليده السلطان السلطنة ، فالذي رأيته في بعض التواريخ في عهد الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن أبي الربيع سليمان ، إلى السلطان الملك المنصور أبي بكر بن الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد مبابعة الحاكم المذكور

عند موت أبيه في سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة : أنه طلع القضاةُ والأمراءُ إلى القلعة واجتمعوا بدار العدل : وجلس الخليفة على الدرجة الثالثة من التخت ، وعليه خِلْعَةٌ خضراء ، وعلى رأسه طرحة سوداء مرقومة بالبياض ، وخرج السلطان من القصر إلى الإيوان من باب السرّ على العادة ، فقام له الخليفة والقضاة والأمراء . وجاء السلطان فجلس على الدرجة الأولى من التخت دون الخليفة ، ثم قام الخليفة فقرأ : ﴿إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإحسْانِ﴾ إلى آخر الآية . وأوصى السلطان بالرفق بالرعية ، وإقامة الحق ، وإظهار شعائر الإسلام ونُصْرة الدِّين ؛ ثم قال : « فوضت إليك جميع أمر المسلمين . وقلدتك ماتقلدته من أمور الدين » . ثم قرأ : ﴿ إنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إنّما يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ إلى آخر الآية . ثم أُتِيَ الخليفةُ بخِلْعَة سوداء مرقومة الطرف بالبياض فألبسها السلطانَ وقلّده سيفَه ، ثم أُتِي بالعهد المكتوب عن الخليفة للسلطان فقرأه القاضي علاء الدين بن فضل الله كاتب السر إلى آخره . فلما فرغ من قراءته ، تناوله الخليفة فكتب عليه ماصورته — فوضت إليه ذلك —

وكتب — أحمد ابن عم محمد صلى الله عليه وسلم — وكتب القضاة الأربعة شهادتهم بالتولية . ثم أُتِي بالسماط على العادة .

وأخبرني من حضر تقليد السلطان الملك الناصر فرج ابن الظاهر برقوق عن الإمام المتوكل على الله أبي الفتح محمد المشار إليه فيما تقدّم : أنه حضر الخليفة وشيخ الإسلام سراجُ الدين البلقينيّ . والقضاة الأربعة (١) وأهل العلم . وأمراء الدولة إلى مَقْعَد بالإصْطَبْلاَت السلطانية يعرف بالحرّاقة . وجلس الخليفة في صدر المكان على مَقْعَد مفروش له ، ثم أتى السلطان وهو يومئذ حَدَثٌ . فجلس بين يديه ، وسأله شيخ الإسلام عن بلوغه الحُلُمَ فأجاب بالبلوغ ، فخطب الخليفة خطبةً ، ثم خاطب السلطان بتفويض الأمر إليه على نحو ماتقدّم ذكره ، ثم أُتِيَ الخليفةُ بخِلْعَةٍ سوداء وعمامة سوداء

(١) القضاة الأربعة في ذلك الوقت هم : القاضي الشافعي صدر الدين محمد المناوي ، والقاضي الحنفي جمال الدين يوسف الملطي ، والقاضي المالكي ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون ، والقاضي الحنبلي برهان الدين إبراهيم بن نصر الله العسقلاني .

مرقومة فوقها طرحة سوداء مرقومة ، ثم جلس الخليفة في مكانه الذي كان جالساً فيه . ونُصِبَ للسلطان كرسيٌّ إلى جانب مقعد الخليفة فجلس عليه ، وجلس الأمراء والقضاة حوله على قدر منازلهم ، وقد استقرت جائزة تقليد السلطنة للخليفة ألف دينار مع قماش سكندريّ .

أما حضوره بمجلس السلطان في عامة الأيام ، عند حضوره إلى السلطان لسلام أو مُهِمٍّ أو غير ذلك ، فقد أخبرني بعض جماعة الخليفة أن الإمام المتوكلَ المتقدِّمَ ذكرُه كان إذا حضر إلى مجلس السلطان الظاهر ، قام له ، وربما مشى إليه خطوات وجلس على طَرَف المَقْعَدِ وأجلس الخليفة إلى جانبه .

* * *

«٣»
الديار المصرية

الديار المصرية

قواعدها فيما بعد الطوفان

والمشهور منها ثلاث قواعد :

القاعدة الأولى : مدينة « مَنْف » قال في « تقويم البُلْدان » : « بكسر الميم » وسكون النون وفاء في الآخر والجاري على الألسنة «مَنْف » بفتح الميم .

قلت : ومَنْفُ هذه في جنوبي الفُسْطَاطِ على القرب من البلدة المعروفة بالبَدْرَشِين من عمل الجيزة ، وهي المعروفة بمصر القديمة ، وقد خَرِبت وصارت كيماناً ، وبها آثار بنيان من الحجر الكَدَّان يوجدُ تحت الردم ، على القرب من أحجار الأهرام في العظمة والمقدار ، وبوسطها آثار بِرْبَاةٍ عظيمة ، بها صنمان عظيمان من

حجر صوّان أبيض ، طول كل صنم منهما نحو عشرين ذراعاً . وهما مطروحان على الأرض . وقد غطّى الطين أسفلهما .

القاعدة الثانية : مدينة الإسكندرية : نسبة إلى الاسكندر ابن فيلبس المقدوني ملك اليونان .

القاعدة الثالثة : قصر الشمع . الذي هو داخل مدينة الفسطاط الآن ، وهو المعبر عنه في كتب الفتوح بالحصن ، بناه كسرجوس الفارسي أحد نواب ملك الفرس عند استيلائهم على مصر بعد غلبة بُخْت نصر على ملوكها .

* * *

في ذكر قواعدها المستقرّة

وهي ثلاث قواعد ، قد تقاربت واختلطت حتّى صارت كالقاعدة الواحدة .

القاعدة الأولى

مدينة الفُسْطاط

(بفاء مضمومة وسين مهملة ساكنة وطاء مهملة مفتوحة بعدها ألف ثم طاء ثانية في الآخر) . ويقال فيه فُسْتَاط بابدال الطاء الأولى تاء وفُسّاط . قال الجوهري : وكسر الفاء لغةٌ فيهن ؛ وهي المدينة المعروفة بين العامة بمصر ، واسمها القديم باب أَلْيُونَ (١) .

قال أبو السعادات ابن الأثير في نهايته(٢): (بفتح الهمزة وسكون اللام وضم الياء المثناة تحت وسكون الواو والنون في الآخر) .

قال القُضاعي : وهو اسمها بلغة الرُّوم والسُّودَان ،

---

(١) وفي ياقوت « بابليون » الباء الثانية مكسورة واللام ساكنة وقد ذكره أيضاً في ألبون .

(٢) اي في كتابه (النهاية في غريب الحديث) .

ولذلك يعرف القصر الذي بالشرق بباب أَلْيُونَ ، وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة .

واختلف في سبب تسميتها بالفُسْطَاطِ ، فقال ابن قُتَيْبَةَ : إن كل مدينة تسمّى فُسْطَاطاً ، ولذلك سميت مصر الفُسْطَاطَ .

وقال الزَّمَخْشَرِيّ : الفُسْطَاط اسمٌ لضَرْب من الأبنية ، في القدر دون السُّرادِق ؛ والذي عليه الجمهور أنه يسمى بذلك لمكان فُسْطَاط عمرو بن العاص رضي الله عنه،يعني خيمته ، وذلك أن عَمْراً لما فتح الحصن المعروف بقصر الشمع في سنة إحدى وعشرين من الهجرة واستولى عليه ضرب فُسْطاطَه على القرب منه ، فلما قصد التوجه إلى الإسكندرية لفتحها ، أمر بنزع فُسْطَاطِه للرحيل ، فإذا بحَمَام قد أفرخ فيه فقال : لقد تحرّم مِنا بحرم . وأمر بإقرار الفسطاط مكانه ؛ وأوصى على الحَمَام ، وسار إلى الإسكندرية ففتحها ، ثم عاد إلى فُسْطَاطِه ونزل به ونزل الناس حوله ، وابتنى داره الصغرى التي هي على القرب من الجامع العتيق مكانَ

فُسْطَاطِه . وأخذ الناس في الاختطاط حوله فتنافست القبائل في المواضع والاختطاط ، فولّى عمرو على الخطط معاوية بن حُدَيْج التُّجِيبِي ، وشريك بن سُمَيّ الغُطَيفيّ ، وعمرو بن قَحْزَم الخَوْلانِي ، وحَيْوِيل ابن ناشرة المَعَافري ، ففصلوا بين القبائل وأنزلوا الناس منازلهم ، فاختطوا الخِطَط وبَنَوُا الدور والمساجد ، وعرفت كل خطة بالقبيلة أو الجماعة التي اختطتها أو بصاحبها الذي اختطها .

قلت : وكان أمراء مصر القائمون مقام ملوكها الآن ينزلون بالفُسْطَاط ، ولم يكن لهم في ابتداء الأمر مَقَرَّة معينّة ، ولا دارٌ للإمارة مخصوصة . فنزل عمرو ابن العاص أوّلُ أمرائها بداره على القرب من الجامع ، ولم يزل كلُّ أمير بعده ينزل بالدار التي يكون بها سكنه إلى آخر الدولة الأمَوِيّة ، وكان عبد العزيز بن مَرْوَانَ ، وهو أمير مصر في خلافة أخيه عبد الملك بن مَرْوَانَ قد بنى داراً عظيمة بالفُسْطَاط سنة سبع وستين من الهجرة وسماها دار الذهب ، وجعل لها قُبّة مُذْهَبَة إذا طلعت عليها الشمس لايستطيع الناظر التأملَ فيها

خوفاً على بصره . وكانت تعرف بالمدينة لسَعَتها وعِظَمِها ، وكان عبد العزيز ينزلها ، ثم نزلها بنوه بعده . فلما هرب مَرْوان بن محمد آخرُ خلفاء بني أُمَيّةَ إلى مصر ، نزل هذه الدار فلما رهِقَه القوم ، أمر بإحراقها ، فلامه في ذلك بعض بني عبد العزيز بن مَرْوَانَ فقال : إن أَبْقَ ، أبْنِها لَبِنَةً من ذهب ولَبِنَةً من فِضَّة ، وإلا فما تصاب به في نفسك أعظم . ولا يتمتع بها عدوّك من بعدك .

فلما غلب بنو العبّاس على بني أُمَيْةَ وهرب مَرْوان ابن محمد آخر خلفاء بني أُمَيّةَ إلى الديار المصرية . وتبعه عليّ بن صالح بن عليّ الهاشميّ إلى أن أدركه بمصر وقتله واستقر أميراً على مصر في خلافة السّفّاحِ أوّلِ خلفاء بني العباس ، ابتنى داراً للإمارة ونزلها ، وصارت منزلةً للأمراء بعده إلى أن وَلِيَ أحمد بن طولون الديار المصرية فنزل بها في أوّل أمره ، ثم اختطّ بعد ذلك قَصْرَه المعروف بالمَيْدَان فيما بين قلعة الجبل الآن والمَشْهد النّفِيسيّ وما يلي ذلك في سنة ست وخمسين ومائتين . وكان له عدّة أبواب : بعضها عند المشهد النفيسيّ ..

وبعضها عند جامعه الآتي ذكره . واختطّ الناس حوله ؛ واقتطع كل أحد قطيعة ابتنى بها ، فكان يقال : قطيعة هارون بن خُمَارويه ، وقطيعة السُّودَان ، وقطيعة الفَرَّاشين ، فعرف ذلك المكان بالقطائع . وتزايدت العمارة حتّى اتّصلت بالفُسْطَاطِ ، وصار الكل بلداً واحداً ، ونزل أحمد بن طولون بقصره المذكور ، وكذلك بَنُوه بعده ، وأهملت دار الإمارة التي ابتناها عليّ بن صالح بالفُسْطَاط . واستقرّ الأمر على ذلك بعده أيام ابنه خُمَارَوَيْهِ وولديه جيش وهارون ؛ وزادت العمارة بالقطائع في أيامهما ، وكثرت الناس فيها حتّى قتل هارون بني خُمَارَوَيْه بعد قتل أبيه وأخيه ، وسار محمد بن سليمان الكاتب بالعساكر من العراق من قِبَلِ المُسْتَكْفِي بالله ، ووصل إلى مصر في سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، وقد ولّى الطُّولُونية عليهم رَبيعةَ ابن أحمد بن طولون ، فتسلم البلَد منه وخرّب القطائع وهَدَم القصر وقلع أساسه . وخرب موضعه حتّى لم يبقَ له أثر .

وكان بَادْرُ الحفيفي غلام أحمد بن طولون قد بنى داراً عظيمة بالفُسْطَاط عند المُصَلّى القديمة . وقيل اشتراها له أحمد بن طُولُون ، ثم سخِط عليه أحمد فنكبه . وسكنها بعده طاهر بن خُمَارَوَيْه ، ثم سكنها بعده الحمامي غلام أحمد بن طولون . فلما هدم محمد ابن سليمان الكاتبُ قصر بني طولون بالقطائع ، سكن هذه الدارَ . ثم سكنها عيسى النَّوْشَرِيّ أميرُ مصر بعده . واستقرّت منزلةً للأمراء إلى أن وَلِيَ الإخشيدُ مصر فزاد فيها وعَظّمها ، وعمل لها مَيْدَاناً وجعل له باباً من حديد . وذلك في سنة إحدى وثلاثين وثلاثمئة ، ولم تزل منزلةً للأمراء إلى أن غلبت الخلفاءُ الفاطميون الإخشيديةُ على مصر وبني القائد جوهرُ القاهرةَ والقصرَ : فنقل باب هذه الدار إلى القاهرة ، وصار القصر منزلة لهم . على ماسيأتي ذكره في الكلام على خطَط القاهرة إن شاء الله تعالى .

وصار الفُسْطَاطُ في كل وقت تتزايد عمارته حتّى صار في غاية العمارة ونهاية الحسن . به الآدُرُ الأنيقة ،

والمساجد القائمة . والحمامات الباهية . والقَيَاسِرُ الزاهية ، والمستنزهات الرائقة . ورحل الناس إليه من سائر الأقطار ، وقصدوه من جميع الجهات ؛ وغصّ بسُكّانِهِ ، وضاقَ فَضَاؤه الرحيب عن قُطّانِه . حتّى حكى صاحب « إيقاظ المُتَغَفِّل » (١) عن بعض سُكّان الفُسْطَاط أنه دخل حمّاماً من بناء الرُّوم في أيام خُمارَوَيْهِ بن طولون في سنة سبع عشرة وثلاثمئة فلم يجد فيها صانعاً يخدُمه ، وكان فيها سبعون صانعاً قلّ منهم من معه ثلاثة نَفَرٍ يغسلهم ، وأنه دخل بعدها حمّاماً ثم حمّاماً فلم يجد من يخدمه إلا في الحمّام الرابعة ، وكان الذي خدمه معه ثان .

وحكى في موضع آخر عمن يثق به عن أبيه أنه شاهد من مسجد الوكرة (٢) بالفُسْطَاط إلى جامع ابن طولون

---

(١) هذا الكتاب لتاج الدين محمد عبد الوهاب المعروف بابن المتوج الزبيري المتوفى سنة ٧٣٠هـ بين فيه أحوال مصر وخططها إلى سنة ٧٢٥هـ (عن كتاب كشف الظنون) .

(٢) الذي في الخطط للمقريزي حين روى هذه الحكاية عن « إيقاظ المتغفل » : أيضاً : «مسجد عبد الله » فلعله يسمى بذلك أيضاً . وفي كتاب ابن دقماق (ج ٥ ص ٤٢) : « مسجد الوكزة » .

قصبة سوق متصلة . فعدّ ما بها من مقاعد الحِمّص المصلوق فكانت ثلاثمئة وتسعين مقعداً غير الحوانيت وما بها .

وحكى أيضاً عمن أخبره أنه عدّ الأسْطَال النُّحَاس المؤبدة في البَكَر لاستقاء الماء في الطاقات المُطِلّة على النيل ، فكانت ستة عشر ألف سطل . قال : وبلغ أجرة مقعد يُكْرَى عند البيمارستان الطولونيّ بالفُسْطَاط في كل يوم اثني عشر درهماً .

وذكر ابن حَوْقَلٍ أنه كان بالفُسْطَاطِ في زمانه دار تعرف بدار ابن عبد العزيز بالموقف يُصَبّ لمن فيها من السكان في كل يوم أربعمائة راوية ماء ، وفيها خمسة مساجد ، وحَمّامَان وفُرْنان .

قلت : ولم يزل الفُسْطَاط زاهيَ البنيان ، باهي السُّكّان ، إلى أن كانت دَوْلَةُ الفاطميين بالديار المصرية ، وعمرت القاهرة على ما سيأتي ذكره فتقهقر حالُه وتناقص ، وأخذ الناس في الانتقال عنه إلى القاهرة وما حولها فخلا من أكثر سُكّانه ، وتتابع الخراب في بنيانه ، إلى

أن غلب الفرنج على أطراف الديار المصرية في أيام العاضد ، آخر خلفاء الفاطميين . ووزيرُه يومئذ شاور السعديّ ؛ فخاف على الفُسْطَاطِ أن يملكه الفرنج ويتحصنوا به ، فأضرم في مساكنه النار فأحرقها فتزايد الخراب فيه وكثر الخلوّ .

ولم يزل الأمر على ذلك في تقهقر أمره إلى أن كانت دولة الظاهر بيبرس ، أحد ملوك التُّرك بالديار المصرية ، فصرف الناسُ همتهم إلى هدم ماخلا من أخطاطه والبناء بِنقْضه بساحل النيل بالفُسْطَاط والقاهرة ، وتزايد الهدم فيه واستمرّ إلى الآن . حتّى لم يبق من عمارته إلا مابساحل النيل ، وما جاوره إلى مايلي الجامع العتيق وما داني ذلك ، ودثرت أكثر الخِطَط القديمة وعفا رسمها ، واضمَحلّ مابقي منها وتغيرت معالمه .

وإذا نظرت إلى خطط الكنديّ والقضاعيّ والشريف النّسّابة (١) ؛ عرفت ما كان الفُسْطَاط عليه من العمارة وما صار إليه الآن ؛ وإنما أجرينا ذكر بعض الخطط المتقدّمة ، حفظاً لأسمائها وتنبيهاً على ماكانت

(١) المراد النظر في كتب هؤلاء في الخطط .

عليه . إلا أن ساحله المُطِلّ على النيل الآن وما جاور ذلك المبانيَ الحسنةَ ، والدورَ العظيمة . والقصور العالية ، التي تبهج الناظر ، وتسرّ الخاطر .

وكان أكثر بنيانه بالآجُرّ المحكوك والجبس والجير من أوثق بناء وأمكنه ، وآثاره الباقية تشهد له بذلك ، وقد صار ماخرب منه ودَثَر كيماناً كالجبال العظيمة ، وهجر غالباً وترك ، وسكن في بعضها رَعَاعُ الناس ممن لايعبَأ به في جوانب منها لاتعدّ في العامر .

ومن كيمانه المشهورة التي ذكرها القضاعيّ : كَوم الجارح ، وكوم دينار ، وكوم السمكة . وكوم الزينة وكوم الترمس ؛ وزاد صاحب « إيقاظ المتغفل » كوم بني وائل ، وكوم ابن غراب ، وكوم الشقاف ، وكوم المشانيق .

ويقابل الفُسْطَاط من الجهة البحرية جزيرةُ الصِّناعة المعروفة الآن بالرَّوْضَة ، كانت صناعة العمائر أوّلا بها فنسبت إليها .

قال الكندي : وكان بناؤها في سنة أربع وخمسين

ثم غلب عليها اسم الروضة لحسنها ونَضارتها وإطافة الماء بها ، وما بها من البساتين والقُصُور ؛ وهي جزيرة قديمة كانت موجودة في زمن الروم . وكان بها حصن عليه سور وأبراج ؛ وبين الفُسْطَاط وبينها جسر ممتدّ من المراكب على وجه النيل كما في جسر بغداد على الدجلة . ولم يزل قائماً إلى أن قدم المأمون مصر فأحدث عليه جسراً من خشبٍ تمر عليه المارّة وترجع ، وبعد خروج المأمون من مصر هبّت ريح عاصفة في الليل فقطعت الجسر القديم ، وصدمت بسفنه الجسر المحدَث فذهبا جميعاً . ثم أعيد الجسر المحدّث وبطل القديم .

وقد ذكر القضاعي : أنه كان موجوداً إلى زمنه ، وكان في الدولة الفاطمية . ثم جدّد الحصن المذكور أحمد بن طولون أمير مصر في خلافة المعتمد في سنة ثلاث ومائتين ؛ ثم استهدم بعد ذلك بتأثير النيل في أبراجه ومرور الزمان عليه ؛ ثم بنى الصالح نجم الدين أيوب قلعةً مكانه في سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وبقيت حتّى هدمها المعز أيبك التركماني أوّل ملوك الترك ،

وعمر من نقضها مدرسته المُعِزِّيّة برحبة الحروب ، واتخذ الناس مكانها أملاكاً ، وهي على ذلك إلى زماننا ، ولم يبق بها إلا بعض أبراج اتخذها الناس أملاكاً وعمروا عليها بيوتاً . فلما ملك الظاهر بيبرس . هَمَّ باعادتها فلم يتفق له ذلك وبقيت على حالها .

قلت : وكانت أرقة النيل(١)التي بين جزيرة الصناعة وبين الفُسْطَاط هي أقوى الفرقتين والتي بين الجزيرة والجيزة هي الضعيفة ، ثم انعكس الأمر إلى أن صار مابين الجزيرة والفسطاط يجف ولا يعلوه الماء إلا في زيادة النيل ، ويبدو بين آخر الفُسْطَاط . وهذه الجزيرة على فُوَّهة خليج القاهرة . ويوجد في أوّل الخليج حيث السدّ الذي يفتح عند وفاء النيل مكان كالجزيرة ، يعرف بمنْشَأة المَهْراني ، كان كوماً يحرق فيه الآجُرُّ يعرف بالكوم الأحمر ، عدّه القضاعي في جملة كيمان الفُسْطَاط .

قال صاحب « إيقاظ المتغفل » : وأوّل من ابتدأ فيه العمارة بَلَبَان المهراني في الدولة الظاهرية بيبرس فنسبت المنشأة إليه .

---

(١) الأرقة هنا : الفرقة .

ويلي الفُسْطَاط من غربيّه بركة تعرف ببركة الحَبَش (١) ، وهي أرض مزدرعة . قال القضاعي : كانت تعرف ببركة المَعَافر وحمْيَر ، وكان من شرقيّها جنّات تعرف بالحبش فنسبت إليها . وذكر ابن يونس في تاريخه : أن تلك الجنات تعرف بقَتَادَة بن قيس بن حبشي الصدفي ، وهو ممن شهد فتح مصر .

قلت : وهي الآن موقوفة على الأشراف من ولد علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه من فاطمة بنت الرسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وقفها عليهم الصالح طلائع بن رزيك وزير الفائز والعاضد من الخلفاء الفاطميين .

ويليه من قبليّه حيث القرافة المكانُ المعروف بالخندق ، كان قد احتفره عبد الرحمن بن عُيَيْنَة خندقاً في سنة خمس وستين من الهجرة عند مسير مَرْوان بن الحكم إلى مصر ، فعرف بذلك .

---

(١) لما زار ياقوت الحموي مصر في سنة ٦١٠هـ رأى بركة الحبش وقال عنها : « إنها ليست بركة بالتعريف المقصود وإنما هي علم لأرض زراعية تروى بماء النيل عند فيضانه السنوي فشبهت بالبركة أثناء غمرها بماء النيل ... وقال : وهي من أجل منتزهات مصر » .

القاعدة الثانية

القاهرة

(بألف ولام لازمين في أوّلها وقاف مفتوحة بعدها ألف ثم هاء مكسورة وراء مهملة مفتوحة ثم هاء في الآخر) ويقال فيها: القاهرة المُعِزِّيةّ نسبة إلى المُعِزّ الفاطميّ الذي بنيت له . وربما قيل المعزية القاهرة ، سميت بذلك تفاؤلا وهي المدينة العظمى التي ليس لها نظير في الآفاق ، ولا يسمع بمثلها في مصر من الأمصار .

بناها القائد جوهر المعزيّ لمولاه المعزّ لدين الله أبي تميم مَعَدّ بن المنصور أبي الطاهر إسماعيل بن القائم أبي القاسم محمد بن المهديّ بالله أبي محمد عبيد الله الفاطميّ

= وهذه البركة موقعها اليوم منطقة الأراضي الزراعية التابعة لزمام قرية دير الطين ، وجزء عظيم من الأراضي الزراعية التابعة لزمام قرية البساتين . وتحد هذه المنطقة من الغرب بجسر النيل الموصل بين مصر القديمة ودير الطين . ومن الجنوب باقي أراضي ناحية البساتين . ومن الشرق سكن قرية البساتين والجبل الشرقي . ومن الشمال صحراء جبانة مصر وجبل الرصد الذي يعرف اليوم بجبل اصطبل عنتر ثم حدود أراضي ناحية أثر النبي .

في سنة ثمان وخمسين وثلاثمئة ، عند وصوله إلى الديار المصرية من المغرب ، واستيلائه عليها ، وموقعها شمالي الفُسْطاط المتقدّم ذكره على القرب منه .

قال في « الروض المعطار » : وبينهما ثلاثةأميال . وكأنه يريد ماكان عليه الحال في ابتداء عمارة القاهرة، وهو مابين سور الفُسْطَاط وسور القاهرة .

أما الآن فقد انتشرت الأبنية واتصلت العمارة حتّى كادت المدينتان تتصلان أو اتصلتا .

قال القاضي محيي الدين بن عبد الله الظاهر في«خِطَط القاهرة»: والذي استقرّ عليه الحال أن حدّ القاهرة من السبع سقايات إلى مشهد السيدة رُقَيَّة عرضاً ، وكان قبل ذلك من المجنونة .

قال ابن سعيد : وكان مكانها قبل العمارة بستاناً لبني طولون على القرب من منازلهم المعروفة بالقطائع . وكيفما كان ، فطولها وعرضها في معنى طول الفسْطَاط وعرضه أو أكثر عرضاً بقليل ، وكان ابتداء عمارتها أنّ أمر إفريقيّة وغيرها من بلاد المغرب كان قد أفضى

إلى المُعِزّ المذكور ، وقويَ طمعه في مصر بعد موت كافور الإخشيدي وهي يومئذ والشام والحجاز بيد أحمد بن علي بن الإخشيد أستاذ كافور. وهو صبيّ لم يبلغ الحلم ، والمتكلم في المملكة أهل دولته ، والحسين بن عبد الله في الشام كالنائب أو الشريك له ، يدعى له بعده على المنابر .

وكانت مصر قد ضَعُفَ عسكرها لما دَهِمَتها من الغلاء والوباء ، فجهز المُعِزُّ قائده جوهراً المتقدّم ذكره فبرز جوهر إلى مدينة رَقّادة من بلاد إفْريقيّةَ في أكثر من مائة ألف وما يزيد على ألف صندوق من المال ، وخرج المُعِزُّ لتشييعه ، فقال للمشايخ الذين معه : « والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ، وليدخُلَنها بالأردية من غير حرب ، ولينزلن في خرابات ابن طُولون . ويبني مدينة تسمّى القاهرة تَقْهَرَ الدنيا » وكان للمعز غلام ببَرْقة اسمه أفلح ، فكتب إليه المُعزّ أن يترجلَ لجوهر إذا عَبَرَ عليه ويقبل يديه ، فبذل مائة دينار على أن يُعْفى من ذلك ، فأبى المُعزُّ إلا ذلك ، فترجّل من مكانه وقبّل يديه ؛ وسار جوهر حتّى دخل مصر وتسلمها

لسبع عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمئة ، ونزل في مُنَاخه من سفره موضع القاهرة الآن ليلاً ، واختط القصرَ وأخذ في بنائه وعمارة القاهرة ، واختط الناس حوله .

* * *

فأما القصر : فانه اختطه في الليلة التي أناخ فيها قبل أن يُصْبح ، فلما أصبح رأى فيه ازورارات غير معتدلة فلم يعجبه ، ثم قال : قد حفر في ليلة مباركة وساعة سعيدة ، فتركه على حاله وتمادى في بنيانه حتى أكمله .

ومكانه الآن المدرسة الصالحية بين القصرين إلى رحبة الأَيْدُمُريّ طولاً ؛ ومن السبع خُوَخ إلى رحبة باب العيد عَرْضاً ، والحدّ الجامع لذلك أن تجعل باب المدرسة الصالحية على يسارك وتمضي إلى السبع خُوَخ ، ثم إلى مشهد الحسين ، ثم إلى رحبة الأيدمري ، ثم إلى الركن المخلّق ، ثم إلى بين القصرين حتى تأتي إلى باب المدرسة الصالحية من حيث ابتدأتَ ؛ فما كان على يسارك في جميع دوَرْتك فهو موضع القصر .

وكان له تسعة أبواب بعضها أصليٌّ وبعضها مستحدَث

أحدها : باب الذهب ، ويقال إنه كان مكانَ المدرسة الظاهرية الآن .

الثاني : باب البحر ، ويقال إن مكانه باب قصر بشتاك (١) . قال ابن عبد الظاهر وهو من بناء الحاكم(٢) .

الثالث : باب الزُّهومة ، ومكانه قاعة شيخ الحنابلة بالمدرسة الصالحية ، وكانت الصاغة مَطْبخاً للقصر ، وكانوا يدخلون بالطعام إلى القصر من ذلك الباب فسمي باب الزهومة لذلك ، والزُّهومة : الذَّفَر .

الرابع : باب التّربة ، ويقال إن مكانه بين باب الزُّهومة المتقدّم الذكر ومشهد الحسين .

الخامس : باب الدَّيْلَم ، وهو باب مشهد الحسين .

السادس : باب قَصْر الشوك ، ومكانه بالموضع المعروف بقصر الشوك على القرب من رحبة الأيدمري .

---

(١) كذا في المقريزي وما سيذكره المؤلف قريباً .
وذكر المقريزي أنه قبالة المدرسة الكاملية . وموضعه اليوم مدخل حارة بيت القاضي تجاه جامع الملك الكامل بشارع بين القصرين .

(٢) أي الحاكم بأمر الله الفاطمي .

السابع : باب العيد ، وهو باب البيمارستان العتيق ، سمي بذلك لأن الخليفة كان يخرج منه لصلاة العيد ، وإليه تنسب رحبة باب العيد .

الثامن : باب الزُمرُّد ، وهو إلى جانب باب العيد المتقدّم ذكره .

التاسع : باب الريح ، وقد ذكر ابن الطُّوَيْر أنه كان في ركن القصر الذي يقابل سور دار سعيد السعداء التي هي الخانقاه الآن .

* * *

القاعدة الثالثة

القلعة

(بفتح القاف) ويعبر عنها بقلعة الجبل ، وهي مَقَرَّةُ السلطان الآن ودار مملكته .بناها الطواشي بهاء الدين قراقوش المتقدّم ذكره للملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله ، وموقعها بين ظاهر القاهرة والجبل المُقَطّم والفُسْطَاط ، وما يليه من القرافة المتصلة بعمارة القاهرة ، وطولها وعرضها على ما تقدّم في الفُسْطَاط أيضاً ، وهي على نَشَز مرتفع

من تقاطيع الجبل المقطم ، ترتفع في موضع وتنخفض في آخر .

وكان موضعها قبل أن تبنى ، مساجدَ من بناء الفاطميين : منها مسجد رديني الذي هو بين آدُر الحريم السلطانية .

قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر : قال لي والدي رحمه الله : عرض عليّ الملك الكامل إقامته ، فامتنعت لكونه بين آدُرِ الحريم . ولم يسكنها السلطان صلاح الدين رحمه الله ، ويقال : إن ابنه الملك العزيز سكنها مدّة في حياة أبيه ثم انتقل منها إلى دار الوزارة .

قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر : قال لي والدي رحمه الله : كنا نطْلُع إليها قبل أن تُسْكن في ليالي الجُمعِ نبيت متفرّجين كما نبيت في جواسق الجبل والقرافة .

وأوّل من سكنها الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب . انتقل اليها من قصر الفاطميين سنة أربع وستمائة ، واستقرّت بعده سكناً للسلاطين إلى الآن .

ومما يتصل بهذه القواعد الثلاث ويلتحق بها القرافة التي هي مدفن أمواتها . وهي تربة عظيمة ممتدة في سفح المقطم ، موقعها بين المقطم والفسطاط وبعض القاهرة ، تمتد من قلعة الجبل المتقدم ذكرها آخذة في جهة الجنوب إلى بركة الحبش وما حولها .

* * *

الضرب الأول

في ذكر كُوَرِهَا القديمة

وقد جعلها القُضَاعي في « خططه » ثلاثة أحياز ، وتشتمل على خمس وخمسين كورة ، إلا أنه ذكرها سَرْداً غير مبيّنة ولا مُرَتّبة ، وقد أوردتُها هنا مبيّنة مرتبة ، ونبهتُ على ماهو مستمرّ منها على حكمه ، وما تغير حكمه بإضافته إلى غيره من الأعمال المستمرّة مع بقاء أسمائه ، وما درس اسمه ونُسِيَ ، أو تغير ولم تُعلم له حقيقة .

الحَيِّز الأول

أعلى الأرض ، وهو الصعيد

والمراد ماهو من كُوَرِهَا جنوبيَّ الفُسْطَاط إلى نهايته في الجنوب ، وسمي صعيداً لأن أرضه كُلّما ولَجَتَ في الجنوب ، أخذت في الصُّعود والارتفاع .

وقد ذكر القُضَاعي فيه عشرين كورة :

الأولى : (كُورَةُ الفيوم) وهي كُورة باقية مستمرة الحكم إلى الآن .

الثانية : (كُورةُ مَنْفٍ) ومَنْفٌ هي مدينة مصر القديمة المتقدّمة الذكر ، الّتي بناها مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام . وقد تقدّم أنها على اثنَيْ عشر ميلا من الفُسْطَاط في جَنُوبِيِهِ على القرب من البلدة المعروفة الآن بالبَدْرَشِين .

الثالثة : (كُورة وَسيم) ووَسِيمُ ــ بفتح الواو وكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة تحت وميم في الآخر ــ : بلدة من عمل الجيزة معروفة ؛ والثابت في الدواوين أَوْسِيمُ بزيادة ألف في أوّلها وسكون الواو .

الرابعة : (كُورَةُ الشرقية) وكأن المراد بها عمل إطفيح الآن إذ هو شرقيّ النيل وليس بالوجه القبليّ عمل مستقلٌ شرقي النيل سواه .

الخامسة : (كُورةُ دَلاَصَ وبُوصير) أما دَلاَص فبدال مهملة مفتوحة ولام ألف ثم صاد مهملة . قال

في « الروض المعطار » : كانت مدينة عظيمة بها عجائبُ الأبنية، وبها كان مجتَمع سَحَرة مصر . وأما بوصير فالمراد هنا بُوصير قُورِيدُس التي قتل بها مَرْوان الحِمَار ، آخر خلفاء بني أمَيّةَ ، ودَلاص وبُوصِيرُ هذه كلاهما الآن من عمل البهنسَى .

قال في « الروض المعطار » : قال الجاحظ : بها ولد عيسى بن مريم عليه السلام . وذكر أن نخلة مريم كانت قائمة في زمانه .

قلت : والمعروف أن مولد عيسى عليه السلام كان بالقُدْسِ من أرض الشام .

السادسة : (كُورةُ أَهْنَاسَ) وأَهْنَاسُ، بفتح الهمزة وسكون الهاء وفتح النون وألف وسين مهملة في الآخر ، وتعرف بأَهْناس المدينة ، كانت مدينة في القديم .

السابعة : (كُورَةُ القَيْسِ) والقَيْسُ بفتح القاف وسكون الياء المثناة تحتُ وسين مهملة في الآخر ، كانت مدينةً في القديم ، وهي الآن قريةٌ معدودة من عمل البَهْنَسى أيضاً .

الثامنة : (كُورَةُ البَهْنَسَى) وهي ذات عمل مستقرّ.

التاسعة : (كُورَةُ طَحَا وجَيْر شَنُودَة) .
أما طَحا فبفتح الطاء والحاء المهملتين وألف في الآخر ، كانت في القديم مدينةً ذات عمل ، ولذلك تعرف بطَحا المدينة ، وهي الآن من عمل الأشْمُونَيْنِ ،وإليها ينسب أبو جعفر الطّحَاوي إمام الحنفية ومحدّثهم .

وأما جَير شَنُودة ، فمن الأسماء التي درست ولم تُعلم حقيقتها .

العاشرة : (كُورَةُ بُوَيْطَ) قال ابن خلِّكان : بُوَيْطُ،بضم الباء الموحدة وفتح الواو وسكون الياء المثناة تحت وطاء مهملة في الآخر . وقال في « تقويم البلدان » بهمزة مفتوحة في أوّله باء ساكنة (١) ، وهو اسم واقع على بلدتين بالديار المصرية : إحداهما بعمل البهنسى في لِحْف الجبل على طريق المارّة ، وإليها ينسب أبو يعقوب البُوَيْطي : أحد رواة الحديث عن الإمام الشافعيّ رضي الله

(١) ذكر ياقوت الضبطين في معجم البلدان وقال : أكثر ما يقال بغير همز .

عنه . والثانية من عمل سُيوط وتُعرف ببُويَطْ البتينة ، واليها ينسب شرق بويط والظاهر أنها المرادة هنا .

الحاديةَ عشرةَ : (كُورَةُ الأَشْمُونَيْنِ وأَنْصِنَا وشُطْب) . أما مدينة الأَشْمُونَيْنِ فذات عمل مستقر ،

وأما (أَنْصِنَا) فقال في « تقويم البُلْدان » : هي بفتح الهمزة وسكون النون وكسر الصاد المهملة وفتح النون وألف في الآخر ، وهي مدينة قديمة خرابٌ في البر الشرقي من النيل قُبَالة الأَشْمُونَين .

وقد ذكر ابن هشام في السيرة : أن مارِيَةَ القِبطْية التي أهداها المُقَوْقِسُ النبيّ صلّى الله عليه وسلم من كُورَتِها من قرية يقال لها حَفْن ، وأنصِنا الآن من جملة عمل الأَشْمُونَيْنِ .

وأما (شُطْبٌ) فبضم الشين المعجمة وسكون الطاء المهملة وباء موحدة في الآخر ، وهي مدينة قديمة بنيت في زمن شدّاد بن عديم أحد ملوك مصر بعد الطوفان قد خربت وعُمِر عليها قرية صغيرة سميت باسمها ، .

الثانيةَ عشرةَ : (كورَةُ سُيُوط) وهي مستقرّ الحكم.

الرابعة عشرةَ(١) : (كَورَةُ قَهقُوة) وهي من الأسماء التي درست ونُسيت ، ولم أعلم بالصعيد بلدة تسمى الآن بهذا الاسم .

الخامسة عشرةَ : » كورة إخميم والدَّيْر وأبْشاية).
أما كورة إخميم ، فمن الكور المستمرّة الحكم .

وأما (الدير) فيجوز أن يكون المراد به الدَّيْر والبَلاَّص (٢) ، وهي بلدة في شرقي النيل شَمالي قِنَا ، هي الآن من عمل قُوص الآتية الذكر .

وأما (أبْشاية) فمن الأسماء التي جهلت .

السادسةَ عشرةَ : (كورة هُوْ ودنَدْرَةَ وقِنَا) .
أما هُوْ ، فبضم الهاءوسكون الواو ،وهي مدينة صغيرة

---

(١) لم ترد الكورة الثالثة عشرة في الأصل المطبوع .

(٢) هذا لايتفق مع الحقيقة . والصواب أن دير وأبشاية المذكورتين مع اخميم هنا هما بلدتان من كورة إخميم ، الأولى منهما وهي الدير لازالت تعرف باسم نجع الدير تحت سفح الجبل الغربي تجاه مدينة سوهاج . وبها الدير الأبيض وهو دير الأنبا بشاي بأراضي ناحية أولاد عزاز بمركز سوهاج . وأما أبشاية فهي البلدة التي تعرف اليوم باسم المنشاة بمركز جرجا بمديرية جرجا . ولا علاقة لهاتين البلدتين بالدير والبلاص اللتين بمركز قنا .

على ساحل البر الغربيّ الجنوبي من النيل ، ويضاف إليها في الدواوين الكوم الأحمر ، فيقال : هُوْ والكومُ الأحمر .

وأما (دَنْدَرَةَ) فبفتح الدال المهملة وسكون النون وفتح الدال الثانية والراء المهلمة وهاء في الآخر ، وهي مدينة قريبة خرابٌ على الساحل الغربيّ الجنوبي من النيل في شرقيّ هُوْ ، وبها كانت البِرْباة العظيمة المتقدّم ذكرها في عجائب الديار المصرية(١) .

وأما (قِنَا) فبكسر القاف وفتح النون وألف في الآخر ، وهي مدينة شرقيّ النيل ، وبها ضريح السيد الجليل عبد الرحيم القِنَائي ، المعروف بالبركَةِ وإجابة الدعاء عنده .

السابعةَ عشرةَ : (كُورَة قِفْطِ والأُقْصُر) . أما قِفْط ، فبكسر القاف وسكون الفاء وطاء مهملة في الآخر ، كانت مدينة قديمة بالبر الشرقي من النيل، جنوبي

(١) لا تزال قائمة إلى اليوم . والبرباة : بناءٌ عجيبٌ فيه تماثيل وصور جمعها البرابي .

قِنَا المتقدّمة الذكر ، بناها قِفْطُ بن قبطيم بن (١) مصر ابن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام أحد ملوك مصر بعد الطوفان . فخربت وبقيت آثارها وعمرت على القرب منها مدينة صغيرة سميت باسمها .

وأما (الأقْصُر) فبضم الهمزة وسكون القاف وضم الصاد المهملة وراء مهملة في الآخر ، وتسمّى الأُقْصُرَيْن أيضاً على التثنية ، وهي مدينة خراب بالبر الشرقي من النيل ، قد عُمِر على القرب منها قرية سميت باسمها ، وبها ضريح السيد الجليل أبو الحَجّاج الأقْصُري ، وكانت بها برْباة عظيمة فخربت (٢) . واعلم أن بين قِفط والأقْصُر مدينة قوص ، وقد ذكر القضاعي كورتها في جملة الكُوَر ، فكيف يستقيم أن تذكر قِفْطُ والأقْصُر كورة واحدة ! .

---

(١) في معجم ياقوت : قفط بن مصر ... ثم قال : وأصله في كلامهم قفطيم ومصريم ، ولكن الذي في السلوك للمقريزي نحو ما في الأصل .

(٢) لاتزال بقاياها قائمة إلى اليوم .

الثامنةَ عشرةَ : (كورة قُوص) وهي مستمرّة الحكم .

التاسعةَ عشرةَ : (كورة أسْنَا وأَرْمَنْت) .
أما أسْنَا ، فبفتح الهمزة (١) وسكون السين المهملة وفتح النون وألف في الآخر . وهي مدينة حسنة بالبر الغربيّ من النِّيل ، ويقال : إنه لم يسلم من تخريب بُخْتَ نَصَّرَ من مدن الديار المصرية سواها ؛ وذلك أن أهلها هربوا إلى الجبل بالقرب منها فتبعهم وقتلهم هناك وترك البلد على حالها (٢) .

وأما (أَرْمَنْتُ) فبفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الميم وسكون النون وتاء مثناة فوقُ في الآخر ؛ وهي مدينة صغيرة بالبرّ الغربيّ الشّماليّ من النيل ، بينها وبين أسْنَا مرحلة ، وكلاهما الآن من عمل قُوص ، وقد جرى على الألسنة الجمع بينهما في اللفظ فيقال : أسْنَا وأَرْمَنْت ، وكأن ذلك لكثرة اجتماعهما في إقطاع واحد .

(١) ضبطه ياقوت في معجم البلدان بكسر الهمزة .
(٢) المعروف أن بخت نصر لم يدخل مصر .

العشرون : (كورة أسْوان) .

الحَيِّز الثاني

أسفل الأرض

وقد ذكر القضاعيّ : أنها ثلاث وثلاثون كورة في أربع نواح .

الناحية الأولى

كُوَر الحَوف الشرقي ، وبها ثمانُ كُوَر

الأولى : (كورة عَيْنِ شَمْسٍ) وعين شمس مدينة قديمة خراب على القرب من المَطَرِيّةِ من ضواحي القاهرة .

قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر : رأيت على حاشية بعض كتب التواريخ أن مَلِكَها كان عظيمَ الشأن ، وعاش إلى زمن يوسف عليه السلام وتزوج ابنته .

الثانية : (كورة أَتْريب) وأتريب مدينةٌ خراب على القرب من بِنْها العَسَل من أعمال الشرقية الآتي

ذكرها في الأعمال المستقرّة ، بناها أتريب بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام .

الثالثة : (كورة نَتَا وتُمَيّ) أما نَتَا ، فلا يعرف بالحوف الآن بلدة اسمها نَتَا ، وإنما نَتَا بعمل الغربية .

وأمّا تُمَيّ ، فبضم التاء المثناة فوقُ وفتح الميم وياء مثناة تحتُ في آخرها ؟ وهي مدينة خرابٌ بعمل المُرْتَاحِية ، بها آثارٌ عِظامٌ ، رأيت فيها أبواباً من حجر صوّان قطعة واحدة ، ارتفاعها نحو عشرة أذرع قائمة على قاعدة من صوّان أيضاً .

الرابعة : (كُورَةُ بَسْطَة) وبَسْطَةُ بفتح الباء الموحدة وسكون السين وفتح الطاء المهملتين وهاء في الآخر ؛ وهي مدينة خرابٌ تعرف الآن بتَلٍّ بَسْطَة من عمل الشرقية .

الخامسة : (كورة طَرَابِيَة) وهي من الأسماء التي دَرَسَت ولم تعرف .

السادسة : (كورة قُرْبَيْط) (١) وهي من المجهول أيضاً .

السابعة : (كورة صَان وإبْلِيل) (٢) وهي من المجهول .

الثامنة : (كورة الفَرَمَا والعَرِيش) . أمّا الفَرَما ، فقال في « تقويم البُلْدان » : هي بفاء وراء مهملة وميم مفتوحات ثم ألف ، وهي بلدة خرابٌ على شاطىء بحر الروم ، على بُعْدِ يومٍ من قَطْيَةَ . قال ابن حَوْقَل : وبها قَبْرُ جالينوس الحكيم .

وأما (العَرِيشُ) فبفتح العين المهملة وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة تحتُ وشين معجمة في الآخر ، قال في « الروض المعطار » : كانت مدينة ذات جامعين مفترقي البناء ، وثمار وفواكه .

---

(١) هذه الكورة تعرف اليوم باسم « هربيط » إحدى قرى مركز كفر صقر بمديرية الشرقية . وفي الأصل : « قربيط » بالقاف .

(٢) صان هذه لاتزال موجودة باسم « صان الحجر » إحدى قرى مركز فاقوس بمديرية الشرقية . وأما إبليل فقد خربت وكانت بالقرب منها .

قال في « تقويم البلدان » : وهي الآن مَنْزِلة على شَطٍّ بحر الروم ، وبها آثار قديمة من الرُّخام وغيره .

قال في « الروض المعطار » : وكان بينها وبين قُبْرُس طريق مسلوكة في البر .

* * *

الناحية الثانية

بطن الريف

وأصل الرِّيف في لغة العرب موضع الزَّرْعِ والشجر ، إلا أنه غلب بالديار المصرية على أسفل الأرض منها ؛ وفيها سَبْع كُوَر :

الأولى : (كُورَةُ بَنَا وبُوصِيرَ) . أمّا بَنَا ، فبفتح الباء الموحدة والنون وألف في الآخر . وبُوصِير تقدّم ضبطها في الكلام على بوصير المعروفة بمصر يوسف بالجيزيّة عند ذكر قواعد مصر القديمة ، وبنا وبُوصِيرُ هذه كلاهما من عمل الغربية .

الثانية : (كُورَة سَمَنُّودُ) وسمنود بفتح السين

المهملة والميم وضم النون المشدّدة والواو ودال مهملة في الآخر ، وهي مدينة صغيرة من الأعمال الغربية ، كان لها عمل مستقرّ في أوّل الأمر ، ثم أضيفت إلى عمل الغربية .

الثالثة : (كُورَة نَوَسَا) ونوسا بفتح النون والواو والسين المهملة في الآخر (١) ، وهي الآن قرية من قُرى المُرْتاحية .

الرابعة : (كورة الأُوْسِيَّة) وهي من الأسماء التي دَرَست وجُهِلت .

الخامسة : (كورة البُجُوم) بالباء الموحدة والجيم ، وهي من الأسماء المندرسة أيضاً ، ولا يُعرف مكان بالديار المصرية اسمه البُجُوم إلا أرض بأسفل عمل البحيرة على القرب من الإسكندرية ، صارت مستنقعاً للمياه المنصرفة عن البحيرة .

السادسة : (كُورَةُ دَقَهْلَة) ودَقَهْلَة بفتح الدال المهملة والقاف وسكون الهاء وفتح اللام وهاء

---

(١) لعله وألف في الآخر كما هو ظاهر .

في الآخر ، وهي مدينة قديمة بالجزيرة بين فِرْقَتَي النيل المارّة إلى دمياط والفرقة التي تصب ببحيرة تنّيس ، وإليها ينسب عمل الدقهلية ، وهي الآن قرية من عمل أشموم .

السابعة : (كورة تنّيس ودِمْيَاط) . أمّا تنيس فقال في اللُبَابِ : هي بكسر المثناة فوقُ والنون المشدّدة وسكون الياء المثناة تحتُ وسين مهملة في الآخر ، والجاري على الألسنة فتح التاء ؛ كانت مدينة عظيمة فطمى عليها الماء قبل الفتح الإسلامي بمائة سنة ، فأغرق ما حولها وصارت بُحَيْرَةً .

* * *

الناحية الثالثة

الجزيرة بين فِرْقَتي النيل الشرقية والغربية ، وفيها خمس كور :

الأولى : (كُورَةُ دَمْسيس ومَنُوفَ)(١) . أمّا

(١) دمسيس زالت ، ومحلها يعرف اليوم باسم كفر شبرا اليمن من توابع شبرا اليمن بمركز زفتى بمديرية الغربية .

دَمْسِيسُ ، فبفتح الدال المهملة وسكون الميم وكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة تحتُ وسين مهملة في الآخر . وهي الآن بلدة من عمل الغربية .

وأمّا مَنُوف فمن الأسماء التي نُسيت وجهلت (١) .

الثانية : (كورةُ طُوَّة مَنُوفَ) وهي من الأسماء التي جهلت . ولا يعلم بالديار المصرية الآن بلدة اسمها طُوَّة غير بلدين بالوجه القبليّ إحداهما بالأشْمُونين ، والثانية بالبهنساوية .

الثالثة : (كورة سَخَا وتَيْدَةَ والفَرَّاجُون) .
أما سَخَا ، فبفتح السين المهملة والخاء المعجمة وألف في آخرها ، وهي بلدة حسنة كانت ذات عمل ، ثم استقرّت من عمل الغربية الآن .

وأما تَيْدَةُ ، فبفتح التاء المثناة فوقُ وسكون الياء المثناة تحتُ وفتح الدال المهملة وهاء في آخرها ، وهي الآن قرية من قرى الغربية .

---

(١) منوف هي التي تعرف اليوم باسم محلة منوف إحدى قرى مركز طنطا مديرية الغربية .

وأما الفَرَّاجُونُ ، فبالألف واللام في أوّلها ، ثم فاء مفتوحة وراء مهملة مشدّدة بعدها ألف وجيم مضمومة وواو ساكنة ونون في الآخر ؛ وهي بلدة مضافة إلى تَيْدَةَ ، فيقال : تَيْدَةُ والفَرَّاجُون .

الرابعة : (كورة نَقِيرة وديصا) وهما من الأسماء التي نُسِيت وجهلت .

الخامسة : (كُورة البَشَرُود) وهي من الأسماء التي جهلت .

* * *

الناحية الرابعة

الحَوْف الغربيّ ، وفيها إحدى عشرة كورة :

الأُولى : (كورة صَا) وصَا بصاد مهملة مفتوحة وألف في الآخر ، وهي مدينة خراب شرقيّ الفرقة الغربية من النيل ، بناها صا بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ، أحد ملوك مصر بعد الطوفان ، وبها الآن آثار عظيمة ، وقد عمرت بالقرب منها قرية سميت باسمها ، وكأن عملها كان من البرّ الغربيّ .

الثانية : (كُورَة شَبَاس) وشَبَاسُ (بفتح الشين المعجمة والباء الموحدة وألف ثم سين مهملة)اسم لثلاث بلاد من عمل الغربية الآن ؛ وهي شَبَاسُ المِلْح ، وشَبَاسُ أنبارة ، وشَبَاسُ سنقر ، وتعرف بشَباس الشهداء ، وكأنّ المراد الثالثة فانها أعظمها .

الثالثة : (كُورَةُ البَذَقُون) وهي من الأسماء التي درست وجهلت .

الرابعة : (كورة الخَيْس والشِّرَاكِ) . أما الخيس فلا تعرف بالبحيرة الآن بلدة تسمى الخيس ، وإنما الخَيْسُ بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء وسين مهملة في الآخر ، بلدة من عمل الشرقية .

وأما الشِّرَاكُ ، فبكسر الشين المعجمة المشدّدة وفتح الراء المهملة وألف ثم كاف ، وهي بلدة من عمل البحيرة .

الخامسة : (كورة خِرْبِتَا) بكسر الخاء المعجمة وسكون الراء المهملة وكسر الباء الموحدة وفتح التاء المثناة فوق ، وهي قرية معروفة من عمل البحيرة ،

ومنها سار من سار من المصريين لقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه .

السادسة : (كورة قَرْطَسَا ومَصِيل) . أما قَرْطَسَا فبفتح القاف وسكون الراء المهملة وفتح الطاء والسين المهملتين وألف في الآخر ؛ وهي قرية من عمل البحيرة الآن .

وأما مَصِيل ، فمن الأسماء التي جهلت .

السابعة : (كورة المليدس) وهي من الأسماء التي جهلت .

الثامنة : (كورة إجنا (١) ورَشيد والبُحَيْرَة) . أما إجنا ، فمن الأسماء التي جهلت ولا يعرف بالبحيرة بلد اسمها إجنا ، وإنما أخنويه من عمل الغربية ، والعامّة تقول إخنا .

---

(١) قال ياقوت في كلامه على « إخنا » : « ووجدته في غير نسخة من كتاب فتوح مصر بالجيم ، وأحفيت في السؤال عنه بمصر فلم أجد من يعرفه إلا بالخاء. وقال القضاعي وهو يعدد كور الحوف الغربي : وكورة إخنا ورشيد والبحيرة وجميع ذلك قرب الإسكندرية » وفي الأصل : « إخنا » وقد أوردناها بالجيم في الأول لإثبات الروايتين والسياق يقتضيها .

وأما رَشِيد ، بفتح الراء المهملة وكسر الشين المعجمة وسكون الياء المثناة تحت ودال مهملة في الآخر ، فبَلْدة عند مَصَبِّ الفرقة الغربية التي يقع الاعتناء بحفظها :

وفي ذلك نظر لاعتباره الغربيةَ ورشيد من سواحل البحيرة ، وبينهما بُعْدٌ يبعد معه أن يجتمعا في كورة واحدة .

وأما البُحَيْرَةُ ، فالظاهر أنه يريد بحيرة بُوقير المتقدّم ذكرها في الكلام على القواعد القديمة ، ويأتي بقية الكلام عليها في الأعمال المستقرّة إن شاء الله تعالى .

العاشرة (١) : (كورة مَرْيُوطُ) . ومريوط بفتح الميم وسكون الراء المهملة وضم الياء المثناة تحت وسكون الواو وطاء مهملة في الآخر ، وهي ناحية غربيّ الإسكندرية داخلة الآن في عملها ، بها الأشجار والبساتين ، وفواكهها تُحمل للإسكندرية .

(١) سقطت التاسعة من قلم الناسخ وهي « كورة البتنون » وقد ذكرها ابن دقماق في كتاب « الانتصار » .

الحاديةَ عشرَة : (كورة لُوبِيَةَ ومَرَاقِيَةَ) .
أما لُوبِيَةُ ، فبلام وواو وباء موحدة ثم ياء مثناة تحت وهاء في الآخر . قال في « الروض المعطار » : وهي كورة من كُوَر مصر الغربية ، متصلة بالإسكندرية . قال : وقد قيل إن الإسْكَنْدَرَ كان منها .

وأما مَرَاقِيَةُ ، فبميم وراء مهملة وألف وقاف وياء مثناة تحت وهاء في الآخر .

وقد ذكر القضاعي في تحديد الديار المصرية مايقتضي أنهما بجوار بَرْقَة ، فقال : إن الذي يقع عليه اسم مصر من العريش إلى لُوبِية ومَرَاقِيَةَ ، ثم قال : وفي آخر أرض مراقية تلقى أرض أنطابُلُس ، وهي بَرْقة : والظاهر أن لوبية غربي مريوط ، ومراقية غربي لوبية ، وهي آخر أرض الديار المصرية من جهة الغرب .

* * *

الحَيِّز الثالث

كُوَر القِبْلة ، وفيها خمس كور

الأولى : (كورة الطُّور وفاران) . أما الطُّور

فضبطه معروف . قال في «المشترك» :والطور في اللغة العبرانية اسم لكل جبَل ، ثم صار علَماً لجبال بعينها ، منها : جبل طُورِ زَيْتَا بلفظ الزيت ، وهو اسم لجبل برأس عين من بلاد الجزيرة ، وجبل بالقُدْسِ ، وجبل مُطِلّ على طَبَرية ؛ وطُور هارون بالقُدْس ، وطُور سينا ، وهو المراد هنا ، وهو جبل داخلٌ في بحر القُلْزُمِ على رأسه دَيْرٌ عظيم ، وفي واديه بساتينُ وأشجار ،وهو على مَرْحلة من فُرْضَةِ الطور المتقدّمة الذكر في تحديد بحر القُلْزُمِ ، وكأنها سميت باسمه لقربها منه . قال ابن الأنباري في كتابه « الزاهر » : وسمي الطُّور بطُور ابن اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

وأما فارانُ ، فبفاء مفتوحة بعدها ألف ثم راء مهملة بعدها ألف ثانية ثم نون ، قال في « الروض المعطار » : وهي مدينة صغيرة من بر الحجاز على جون على البحر . قال : وبجبال فاران ذكر في التوراة .

الثانية : (كورة رَايَة والقُلْزم) . أما راية فمن الأسماء التي جهلت ، وقد ذكرها ابن سعيد مقرونة بالقلزم فقال : ورايَةُ والقُلْزم من كُوَر مصر .

وأما القُلْزُمُ ، فقال في «المشترك»: هو بضم القاف وسكون اللام وضم الزاي المعجمة ثم ميم في الآخر ، وهي مدينة قديمة على ساحل بحر القُلْزُمِ وإليها ينسب البحر المذكور . وعلى القرب منها غرق فرعون .

الثالثة : (كورة أيْلَةَ وحَيِّزِها ، ومَدْيَنَ وحَيِّزِها ، والعَوْيند وحَيِّزِها ، والحَوْرَاءِ وحَيِّزِها) .

أما أيْلَةُ ، فقال في « تقويم البلدان » : هي بفتح الهمزة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء في الآخر ؛ قال : وهي كانت مدينة صغيرة خراباً على ساحل بحر القُلْزُمِ .

وأما مَدْيَنُ ، فضبطها معروف ؛ وهي في الأصل اسم لقبيلة شُعَيْبٍ عليه السلام، وكانوا مقيمين بها فسميت البلد بهم ، وهي مدينة خَرَابٌ على بحر القُلْزُمِ محاذيةٌ لتَبُوكَ من بلاد الشام على نحو ست مراحل منها ، وعدّها في « الروض المعطار » من بلاد الشام ، وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام لبنات شُعَيْبٍ وسقى غنمهنّ .

قال ابن سعيد : وسعة البحر عندها نحو مجرى .

وأما العويند ، فبعين مهملة وواو وياء مثناة تحت ونون ودال . قال في « الروض المعطار » : وهي مدينة قريبة من نصف الطريق بين جُدَّةَ والقُلْزُمِ . قال : وعلى القرب منها مرسى صنا ، ينحدر الماء بها عن أثر قدم من أوسط الأقدام بينة الكعب والأخْمَص والأصابع لم يُعْفها الزمان ، ولا تنمحي بمرور الماء عليها .

وأما الحَوْرَاءُ ، فبحاء مهملة مفتوحة بعدها واو ساكنة وراء مهملة مفتوحة ثم ألف في الآخر . قال في « الروض المعطار » : وهي مدينة على ساحل وادي القُرى بها مسجد جامع ، وبها ثمانية آبار عذبةٍ ، وبها ثِمَار ونخل وأهلها عرب من جُهَيْنَةَ وبَلِي .

قلت : والمعروف في زماننا أن الحَوْرَاءَ منزلة بطريق حُجّاجِ مصر ، ولعلها على القرب منها .

الرابعة : كورة بَدَا يعقوب وشُعَيْبٍ ، ولم أعلم حقيقة مكانهما .

قلت : ذكر القضاعيّ أيْلَةَ ومَدْيَنَ وما والاهما

مما على ساحل بحر القُلْزُم من برّ الحجاز في أعمال مصر جرياً على ما قدّمه من إدخال ذلك في تحديد الديار المصرية ، على أنه قد أهمل من جملة الديار المصرية حَيِّزَيْنِ آخرين .

* * *

الحَيِّز الأول

بلاد الواح

إذ هي داخلة في حدود الديار المصرية على ما حدّده هو وغيره .

قال في « اللُّبَابِ » : وهي بفتح الهمزة وسكون اللام وفتح الواو وفي آخره حاء مهملة ، وقال في «المشترك»(١) واح بغير ألف ولام ويجمع على واحات ، وهي ناحية غربيّ بلاد الصعيد منقطعة عنه خلف الجبل الغربيّ من جبلي مصر المتقدّم ذكرهما .

قال البكريّ : وهو إقليمٌ مستقلّ غير مفتقر إلى

(١) هو كتاب (المشترك وضعاً والمختلف صقعاً) لياقوت الحموي ، في البلدان أيضاً .

سواه.قال في «الروض المعطار» : وفي آخر بلاد الإسلام ، وبينها وبين بلاد النُوبة ستُّ مراحل . قال : وفي هذه الأرض شَبية وزاجيّة وعيون حامضة الطعوم ، ولكل نوع منها منفعة وخاصة ، وبها العيون الجارية ، والبساتين ، والثمار ، والتمر الكثير ؛ وبها مدن كثيرة مسوَّرة وغير مسوَّرة .

قال في « المشترك » : وهي ثلاث كور : واح الأولى ، وواح الوسطى ، وواح القُصْوى .

قلت : والأولى منها مقابل الأعمال البهنساوية ، وهي أعمرها وأكثرها ثمرة ، ومنها يجلب التمر والزبيب الكثير ، وتعرف بواح البهنسى وبألواح الخاصِّ .

والثانية : مقابل شماليّ الأعمال الأَسْيوطية ، وتعرف بالواح الداخلة ، وهي تلو الواح الأولى في العمارة ؛ وبها مُدُن مشهورة ، منها السلمون والهنداو والقَلَمُون والقصير وغيرها .

والثالثة : مقابل جنوبي الْوَاحِ الثانية ، وتعرف بالْوَاحِ الخارجة ؛ وبين ريف الصعيد وبين جميعها عرض

جبل مصر الغربي ، ومسيرته ثلاث مراحل فما دونها بحسب اختلاف الأماكن والطرق .

* * *

الحَيِّز الثاني

بَرْقَة

بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح القاف وهاء في الآخر . قال في « تقويم البلدان » : وهي من الإقليم الثالث . قال في « كتاب الأطوال » : وطولها اثنتان وأربعون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، وعَرضها اثنتان وثلاثون درجة . وهي أرض مُتَّسِعَةُ الأرجاء ، مديدة الفضاء ، وهي من أزكى الأراضي دوابّاً ، وأمراها مرعىً .

قال في « مسالك الأبصار » : أخبرني بعض مَنْ رآها أنها شبيهة بأطراف الشام وجبال نابلُس في مَنَابت أشجارها وكيفية أرضها وما هي عليه ، وأنها لو عمرت بالسكان وتأهلت بالزُّرّاع ، كانت إقليماً كبيراً يقارب نصف الشام ، قال : وبها الماشية والسائمة الكثيرة : من الإبل والغنم والخيل ، وخيلُها من أقوى الخيل

وأصلَبِها حوافر ، وصُوَرُها بين العِرَابِ والبراذين ، وقد جمعت بين حسن العِرَابِ وكمال تخاطيطها ، وصلابة البراذين وثباتها على الوُعُور ؛ وهي إلى محاسن العِرَابِ أقرب ، ولكنها لاتبلغ شأوَ خيل البحريْنِ والحجاز ؛ وفحولها أنجبُ من إناثها . قال : وكذلك بها المدن المبنية ، والقصور العلية ؛ والآثار الدالة على ماكانت عليه من الجلالة .

قال ابن سعيد : وهي سلطنة طويلة ، وإن لم يكن لها استقلال لاستيلاء العرب عليها ، وهي إلى إفْرِيقية أقرب منها إلى مصر . قال : وكان سريرها في القديم بمدينة (طَبَرْقَة) . وذكر صاحب « الروض المعطار » : أن قاعدتها كانت مدينة (أنطابُلُس) ، وقد تقدم من كلام القضاعيّ في تحديد الديار المصرية في آخر الحدّ الشمالي مايوافقه .

قال في « مسالك الأبصار » : ومن مدنها طُلْمَيْثَا . قلت : والتحقيق أن بَرْقَة قسمان : قسم محسوب من الديار المصرية ، وهو مادون العَقَبة الكبرى إلى الشرق .

وقسم محسوب من إفْرِيقية ، وهو مافوق العقبة المذكورة إلى الغَرْب ، وهذه المُدُن الثلاث مما يلي جهة المغرب ، والقسمان كلاهما اليوم بيد العرب أصحابِ الماشية . قال في « مسالك الأبصار » : وربما زرع بعضهم في بعض أرضها فأنجب ، ولكنهم أهل بادية لاعناية لهم بعمارة ولا زرع . قال : وأمرها إلى صاحب مصر يُقْطِعها بالمناشير تارة لبعض الأمراء وتارة للعرب يأخذون عدادها ؛ وكأنه يريد القسم الذي هو من مصر .

* * *

الضرب الثاني

من كور الديار المصرية نواحيها وأعمالها المستقرّة ، ولها وجهان .

الوجه الأول

القبليّ

وهو المعبر عنه بالصعيد ؛ وقد تقدّم بيانه في الكلام على الكُوَر القديمة ، وبه تسعة أعمال :

العمل الأوّل : الجيزيّة . وهو أقربها إلى الفُسْطَاط

والقاهرة ، ومقرّ ولايته مدينة الجِيزَة (بكسر الجيم وإسكان الياء المثناة تحت وفتح الزاي المعجمة وبعدها هاء) وموقعها في الإقليم موقع الفُسْطَاط ، وطولهما وعرضهما واحد ؛ وإليها ينسب الربيع الجِيزِي راوي «الأمّ» عن الشافعيّ رضي الله عنه .

قال في « الروض المعطار » : ويقال إن بها قبر كَعْبِ الأحْبَار ، وهي مدينة لطيفة على ضفّة النيل الغربية مقابل جزيرة المِقْيَاس المتقدّمة الذكر والنيل بينهما ، وبعض هذا العمل يأخذ في جهة الشّمَال إلى الوجه البحريّ الآتي ذكره .

قال في « الروض المعطار » : والجِيزَةُ اختطها عمرو بن العاص رضي الله عنه .

العمل الثاني : الإطفِيحِيّةُ . وهو شرقيّ النيل في جنوب الفُسْطَاط ، مُصاقِبٌ بركة الحبش وبساتين الوزير . ومقرّ ولايته مدينة « إطْفِيح » (بكسر الهمزة وإسكان الطاء المهملة والفاء والياء والحاء المهملة) وربما قلبت الطاء تاءً مثناةً فوقُ ، وهي مدينة لطيفة في البر

الشرقيّ ، وموقعها في الإقليم الثالث ، ولم يتحرّر لي طولها وعَرْضها ، وعملها مابين المقطم والنيل آخذاً عنها جنوباً وشمالا ، وليس لعملها كبير ذكر .

العمل الثالث : البَهْنَسَاوِيّة . وهو مما يلي عمل الجيزَة من الجهة الجنوبية ، ومقرّ ولايته مدينة البَهْنسى . قال في « المشترك » : (بفتح الباء وسكون الهاء وفتح النون وسين مهملة مفتوحة وألف مقصورة) وهي مدينة لطيفة قديمة بالصعيد الأدنى بالبر الغربيّ من النيل تحت الجبل بطوق المزدرَع مركبة على ضفة بحر الفيوم . وموقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة .

العمل الرابع : الفَيُّومِيّةُ . وهو مُصَاقِبٌ لعمل البَهْنسى من غربيه ، وبينهما منقَطَع رمل . وهو من أعظم الأعمال وأحسنها عمارة ، كثيرُ البساتين ، غزيرُ الفواكه ، دارُّ الأرزاق .

العمل الخامس : عمل الأُشْمُونين والطحاوية . وهو مصاقب لعمل البهنسى من جنوبيه . وهو عمل واسع كثير الزرع ، واسع الفضاء ، متقارب القُرى .

ومقرّ الولاية به (مدينة الأُشْمُونينِ) بضم الألف وسكون الشين المعجمة وضم الميم وسكون الواو في الآخر نون . وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة على ماذكره في « تقويم البُلْدان » والإقليم الثاني على مايقتضيه كلام المقرّ الشهابيّ بن فضل الله في « مسالك الأبصار » حيث جعل آخر الإقليم الثاني دَهْروط من البهنساوية .

العمل السادس : المَنْفَلُوطِيّة . وهو مُصَاقِبٌ لعمل الأُشْمُونينِ من جنوبيه ، وهو من أخصّ خاصّ السلطان الجاري في ديوان وزارته ، ومنه يحمل أكثر الغلال إلى الأهراء السلطانية بالفُسْطَاط . ومقرّ ولايته (مدينة مَنْفَلُوط) . قال في « تقويم البُلْدان » : (بفتح الميم وسكون النون وفتح الفاء وضم اللام ثم واو وطاء مهملة في الآخر) .

العمل السابع : الأَسْيوطيَّة . وهو مصاقب لعمل مَنْفَلُوطَ من جَنُوبيّه ، وهو عمل جليل ، ومقرّ الولاية به (مدينة أُسْيُوط) بضم الألف (١) وسكون

(١) ضبطها في القاموس كذلك وضبطها ياقوت بالفتح .

السين وضم المثناة تحت وفي آخرها طاء مهملة . هكذا ضبطه السمعاني في « كتاب الأنساب » .

العمل الثامن : (الإخْمِيمِيّة) . وهو مُصَاقِبٌ لعمل أُسْيُوط من جنوبيّه ، وهو عمل ليس بالكبير . وبلاده أكثرها بالبر الغربي عن النيل . وحاضرته (مدينة إخْمِيمَ) . قال في « تقويم البُلْدان » : (بكسر الألف وسكون الخاء المعجمة والمثناة تحت بين الميمين ، والأولى منهما مكسورة) .

العمل التاسع : القُوصِيّة . وهو مُصَاقِبٌ لعمل اسْيُوط من جَنُوبه ، وهو عمل متسع الفضاء بعيد مابين القرى ، ينتهي آخره إلى أُسْوَان

* * *

الوجه الثاني

البحريّ

وهو كل ماسَفَل عن القاهرة إلى البحر الرومي حيث مَصَب النيل . وإنما سمي بَحْرِياً لأن منتهاه البحرالروميّ، ولا يلزم من ذلك تسمية الجانب الشرقي من الديار

المصرية بَحْرِياً لأن نهايته إلى بحر القُلْزُم ، لأن انتهاءه إليه ليس حقيقياً لانقطاع بحر القُلْزم عن بلاد الديار المصرية بالجبال والبراري المُقْفِرة ، بخلاف بحر الروم فانه متصل بالبلاد ، مجاور لها فناسب النسبة إليه .

قلت : وقد وقع للمقرّ الشهابي ابن فضل الله في « التعريف » في بلاده وأعماله من الوَهْم مالا يليق بمصريّ، على ماسيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى .

وهذا الوجه هو أرْطَبُ الوجهين وأقلُّهما حراً ، وأكثرهما فاكهة، وأحسنهما مُدُناً. ويشتمل على ثلاث شُعَب تحوي سبعة أعمال .

الشعبة الأولى

شرقيّ الفرقة الشرقية من النيل

وفيها أربعة أعمال :

العمل الأوّل : الضواحي : جمع ضاحية ، وهي في أصل اللغة البارزة للشمس ، وكأنها سميت بذلك

لبروز قُرَاهَا للشمس ، بخلاف المدينة لغَلَبَة الكِنّ بها ؛ وهو مايجاور القاهرة من جهة الشّمال من القرى ، وولايتها مضافة إلى ولاية القاهرة وداخلة في حكمها : وليست منفردة بمقرّ ولاية غيرها .

العمل الثاني : القَلْيوبيِيّة . وهو مُصَاقِبٌ للضواحي من شماليها مما يلي جهة النيل ، وهو عمل جليل ، حسن القُرى ، كثير البساتين ، غزير الفواكه . ومقرّ الولاية به (مدينة قَلْيُوب) — بفتح القاف وإسكان اللام وضم المثناة تحت وسكون الواو وباء موحدة في آخرها — وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة ، ولم يتحرّر لي طولها وعَرْضها ، غير أنها من القاهرة في جهة الشمال على نحو فرسخ ونصف من القاهرة .

قلت : ومن بلادها بَلْدتنا (قَلْقَشَنْدَة) وهي بلدة حسنة المَنْظَر ، غزيرة الفواكه ، وإليها ينسب الليثُ بنُ سعد الإمام الكبير ، وقد ذكر ابن يونس في « تاريخه » : أنه وُلِد بها . قال : وأهل بيته يذكرون أن أصله من فارس ، وليس لما يقولونه ثَبَات عندنا .

قال ابن خلِّكان : (بفتح القاف وسكون اللام وفتح القاف الثانية والشين المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة وبعدها هاء ساكنة) وهكذا هي مكتوبة في دواوين الديار المصرية . وأبدل ياقوتُ في « مُعْجَم البُلْدان » اللامَ راءً . وهو الجاري على ألسنة العامّة ، وعليه جرى القضاعيّ فيما رأيته مكتوباً في « خِطَطه » : قال ابن خلِّكان : وهي على ثلاثة فراسخ من القاهرة.

العمل الثالث : الشرقية . وهو مصاقب للضواحي من شَمَاليها مما يلي جهة المُقَطَّم ، والقليوبية من جهة الشمال أيضاً ، وهو من أعظم الأعمال وأوسعها . إلا أن البساتين فيه قليلة بل تكاد أن تكون معدومة ، لاتصاله بالسِّباخ وبَدَاوة غالب أهله ، وآخر العمران فيها من جهة الشّمال الصَّالحية ، وما وراء ذلك منقَطَع رمال على ماتقدّم ذكره في المنقطع عنها من جهة الشرق ؛ ومَقَرُّ ولايته مدينة بِلْبَيْس . قال في « تقويم البلدان » :

(بكسر الباء الموحّدة وسكون اللام وفتح الباء الموحّدة وسكون المثناة تحت ثم سين مهملة) ، كذا ذكره . والجاري على الألسنة ضم الباء في أوّلها (١) .

وفي الركن الشمالي الجنوبيّ من هذا العمل (بِنْها) . قال النوويّ في «شرح مسلم» : بكسر الباء والمعروف فتحها . وهي البلدة التي أهدى المُقَوْقِسُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم من عَسَلِهَا ؛ وفي آخره من جهة الشرق (قَطْيَا) بفتح القاف وسكون الطاء المهملة وفتح الياء المثناة تحت وألف في الآخر .

العمل الرابع : (الدَّقَهْلِيّةُ والمُرْتاحية) . وهو مُصَاقِبٌ لعمل الشرقية من جهة الشمال ، وأواخره تنتهي إلى السِّباخ وإلى بحيرة تِنِّيس المتصلة بالطينة من طريق الشام ؛ ومقرّ الولاية به (مدينة أُشْمُومَ) بضم

---

(١) قال في القاموس « بلبيس كغرنيق وقد يفتح أوله بلد بمصر » وضبطه ياقوت بكسر الباءين وسكون اللام .

الهمزة واسكان الشين المعجمة وبعدها ميم ثم واو وميم ثانية ، كما ضبطه في « تقويم البُلْدان » ونقله عن خط ياقوت في « المشترك » والذي في « اللُّبَاب » إبدال الميم في آخرها بنون ، وعزاه في «تقويم البلدان» للعامة . وبآخر هذا العمل (مدينة دِمْياط) بكسر الدال المهملة وسكون الميم وياء مثناة من تحت وألف وطاء ، وهي مدينة حَسَنَة عند مَصبِّ الفرقة الشرقية من النيل في بَحر الروم ، ذات أسواق وحمامات ، وكان عليها أسوار من عمارة المتوكل أحد خلفاء بني العبّاس ، فلما تسلطت عليها الفرنج وملكتها مرّة بعد مرّة ، خَرَّبت المسلمون أسوارَها في سنة ثمان وأربعين وستمائة خوفاً من استيلائهم عليها ، وهي على ذلك إلى الآن ، ولها ولاية خاصّة بها .

* * *

الشُّعبة الثانية

غربيّ فرقة النيل الغربية ، وفيها عملان :

العمل الأوّل : عمل البُحَيرة . وهو مما يلي عمل

الجيزة المقدّم ذكره من الجهة البحرية ، وهو عمل واسع ، كثير القرى ، فسيح الأَرَضينِ . ومقرّ ولايته (مدينة دَمَنْهُورَ) — بفتح الدال المهملة والميم وسكون النون وضم الهاء وسكون الواو وفي آخرها راء مهملة — وتعرف بدَمَنْهُور الوَحْش . وهي مدينة متوسطة ذات مساجدَ ومدارسَ وأسواق وحمامات .

قلت : ويدخل في هذا العمل حَوْف رمسيس والكُفُور الشاسعة .

العمل الثاني : عمل المزاحمتين . وهو ماجاور خليج الإسْكَنْدَرِيّةِ من جهة الشمال إلى البحر الرومي ، وبعضه بالبر الشرقيّ من النيل ، وحاضرته (مدينة فُوَّة) قال في « تقويم البلدان » : بضم الفاء وتشديد الواو ؛ وهي مدينة متوسطة بالبر الشرقيّ من فرقة النيل الغربية يقابلها جزيرة تعرف بجزيرة الذهب ذاتُ بساتين وأشجار ومَنْظَرٍ رائق ، وليس بها ولاية . وإنما يكون بها شَادّ للخاص ، يتحدث في كثير من أمور الولاية ، وهي في الحقيقة كإخميم مع قُوص .

ويلي هذين العملين غرباً بشَمال (مدينةُ الإسْكَنْدَرية) – بكسر الهمزة وسكون السين المهملة وفتح الكاف وسكون النون وفتح الدال وكسر الراء المهملتين وتشديد الياء المثناة تحت المفتوحة وهاء في الآخر –

وهي الآن بالنسبة إلى ماتشهد به التواريخ من بنائها القديم جزءٌ من كلٍّ . وهي مع ذلك مدينة رائقة المَنْظَرِ . حسنة الترصيف ، مبنية بالحجر والكلْسِ . مُبَيَّضَةُ البيوت ظاهراً وباطناً كأنها حَمَامةٌ بيضاء ، ذات شوارع مُشْرعة ، كلٌّ خط قائم بذاته كأنها رُقْعة الشِّطْرَنْج ، يستدير بها سُوران منيعان ، يدور عليهما من خارجهما خَنْدَقٌ في جوانب البلد المتصلة بالبر ، ويتصل البحر بظاهرها من الجانب الغربيّ مما يلي الشَّمَال إلى المشرق حيث دارُ النيابة ؛ وبهما أبراج حصينة عليها الستائر المسترة والمجانيق المنصوبة .

وهي المدينة الباقية الآن وصار مكانُ المنار منها على مسيرة ميل . قال : ويقال إن مساجدها أحصيتْ في وقت من الأوقات فكانت عشرين ألف مسجد ؛ وبها الجوامع

والمساجد ، والمدارس ، والخَوانق ، والرُّبُطُ ، والزوايا ، والحَمّامات ، والدّيار الجليلة ، والأسواق الممتدّة . وفيها يُنْسَج القماش الفائق الذي ليس له نظير في الدنيا ، وإليها تهوي ركائب التجار في البر والبحر ، وتَمير من قُماشِهَا جميع أقطار الأرض ، وهي فُرْضَةُ بلاد المغرب ، والأَنْدَلُس ، وجزائر الفرنج ، وبلاد الروم ، والشام . وشُرْب أهلها من ماء النيل ، من صهاريج تملأ من الخليج الواصل إلى داخل دُورها ، واستعمال لماء لعامّة الأمر من آبارها ، وبجَنَبَات تلك الآبار والصهاريج بالُوعاتٌ تصرف منها مياه الأمطار ونحوها ؛ وبها البساتين الأنيقة ، والمستنزَهات الفائقة ، ولهم بها القصور والجَواسِق الدقيقة البناء ، المحكمة الجُدُرِ والأبواب ؛ وبها من الفواكه والثمار مايفوق فواكه غيرها من الديار المصرية حُسناً مع رخص الثمن ؛ وليس بها مزارعُ ولا لها عملٌ واسع ، وإن كان متحصّلها يَعْدِلُ أعمالاً من واصل البحر وغيره ؛ وهي أجلُّ ثغور الديار المصرية ، ولا يزال أهلها على يقظة من أمور

البحر والاحتراز من العدوّ الطارق ؛ وبها عسكر مستخدم لحفظها .

* * *

الشُّعبة الثالثة

مابين فِرْقتي النيل الشرقية والغربية ، وهو جزيرتان :

الجزيرة الأولى : جانبها الشرقي يمتدّ في طول فرقة النيل الشرقية إلى مصبه في البحر المِلْح حيث دِمْياط بالقرب منها ، وجانبها الغربي يمتدّ في طول فرقة النيل الغربية إلى تُجاه أبي نُشّابة من عمل الجيزة فينشأ بحرْ أبيار المتقدّمُ ذكره ، ويمتدّ في طولها إلى قرية الفَرَسْتَق خارجَ الجزيرة من الغرب فيتصلُ بفرقة النيل التي تفرّع منها على ماتقدّم ، ويمتدّ في طولها إلى مصبه في البحر الملح حيث رشيد .

وتشتمل هذه الجزيرة على عملين :

العمل الأول : المُنُوفية . وأوّله من الجنوب من القرية المعروفة بشَطَنَوْفَ على أوّل الفرقة الغربية من النيل ؛

ومقرّ ولايته (مدينة مُنُوفَ) – بضم الميم (١) والنون وسكون الواو وفاء في الآخر – وهي مدينة اسلامية بنيت بدلا من مدينة قديمة كانت هناك قد خربت الآن وبقيت آثارها كيماناً ؛ وولايتها من أنفس الولايات ، وقد أضيف إليها عمل أبيار ؛ وهو جزيرة بني نصر الآتي ذكرها فيما بعد إن شاء الله تعالى . وهي مدينة حسنة ذات أسواق ومساجد ، ومسجد جليل للخطبة ، وحَمَّام ، وخانات .

قلت : وربما غلط فيها بعض الناس فظن أنها مَنْف المتقدّمة الذكر في الكلام على قواعد مصر القديمة . وبينهما بُعدٌ كثير ، إذ مَنْف المتقدمة الذكر جنوبي الفُسْطَاط على اثني عشر ميلاً منه كما تقدّم ذكره ، وهذه شَمَالي الفُسْطَاطِ والقاهرة في أسفل الأرض .

العمل الثاني : الغَرْبِية . وهو مُصَاقِبٌ للمنوفية من جهة الشمال ، ، يمتدّ إلى البحر المِلْح بين مصبي النيل إلا ماهو من عمل المزاحمتين على فرقة النيل الغربية من الشرق . وهو عمل جليل القدر ، عظيم الخَطَر ؛ به

(١) ضبطها ياقوت والقاموس بالفتح وتبعناهما في كثير من المواضع

البلاد الحسنة ، والقرى الزاهية ، والبساتين المتراكبة وغير ذلك . وفي آخره مما يلي بحر الروم موقع ثَغْر البَرَلُّس .

ويندرج فيه ثلاثة أعمال أخر كانت قديمة ، وهي القُوَيْسِنِيَّة ، والسَّمَنُّودية ، والدِّنجاوية ، ومقرّ ولايته (مدينة المَحَلَّة) . قال في « المشترك » : — بفتح الميم والحاء المهملة وتشديد اللام ثم هاء في الآخر — وتعرف بالمَحَلَّة الكُبْرى ، وقد غلب عليها اسم المحلة حتى صار لايفهم عند الإطلاق إلا هي .

قلت : ووقع في « التعريف » التعبير عنها بمَحَلَّة المرحوم وهو وهَمٌ ، وإنما هي قرية من قراها .

قال في « المشترك » : ويقال لها محلة الدَّقَلا (بفتح الدّال المهملة والقاف) وهي مدينة عظيمة الشأن ، جليلة المقدار ، رائقة المَنْظَر ، حسنة البناء ، كثيرة المساكن ، ذات جوامع ، ومدارس ، وأسواق ، وحَمّامات ؛ وهي تعادل قُوص من الوجه القبليّ في جلالة قدرها ، ورياسة أهلها ، ويفرق بينهما بما يفرق به بين الوجه القبلي والوجه البحري من الرطوبة واليبوسة .

الجزيرة الثانية : مابين بحر أبْيَار المتقدم ذكره وبين الفرقة الغربية من النيل ، وتعرف بجزيرة بني نَصْر ، وهي عمل واحد ، وحاضرته (مدينة أبْيَار) — بفتح الهمزة كما قاله في « الروض المعطار » وإسكان الباء الموحدة وفتح المثناة تحت وبعدها ألف ثم راء مهملة — وهي مدينة لطيفة حسنة المَنْظَرِ يُعمل فيها القُماش الفائق من المحررات وغيرها .

* * *

ولاة مصر في الاسلام

من وليها في الإسلام : من بداية الأمر إلى زماننا ،

وهم على ضربين :

الضرب الأول

فيمن وليها نيابةً ، وهو الصدر الأوّل ،

وهم على ثلاث طبقات :

الطبقة الأُولى

عُـمّال الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم .

قد تقدّم أنها لم تزل بيد الروم والمُقَوْقِس عامل عليها إلى خلافة عمر رضي الله عنه ، ولم تزل كذلك إلى أن فتحها عمرو بن العاص والزُّبَيْر بن العوّام (١) في

(١) كذا في فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم والنجوم الزاهرة (ج١ ص ٤ و ٨) وتاريخ أبي الفداء، وكان على رأس جيش مقداره اثنا عشر ألفاً ، وهو أول من ارتقى سور المدينة وتبعه الناس . وفي الأصل : « عبد الله بن الزبير » وهو أيضاً ممن شهدوا فتح مصر .

سنة عشرين من الهجرة ، وقيل سنة تسع عشرة في خلافة عمر بن الخطاب رضيّ الله عنه ؛ ووليها (عمرو بن العاص) من قِبَل عمر ، وهو أوّل من وَلِيَها في الإسلام ، وبقي عليها إلى سنة خمس وعشرين ؛ وبنى الجامع العتيقَ بالفُسْطَاط ؛ ثم وليها عن عثمان بن عفان رضي الله عنه (أبو يحيى العامريّ) فمكث فيها إحدى عشرةَ سنة ، وتوفي سنة ست وثلاثين ؛ ثم وليها عن عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه (قَيْسُ بن سعد الخزرجيّ) في أوّل سنة سبع وثلاثين ؛ ثم وليها عنه (مالك بن الحارث النخعي) المعروف بالأشتر في وسط سنة سبع وثلاثين ، وكتب له عنه عهداً يأتي ذكره في الكلام على العهود إن شاء الله تعالى ، فسُمّ ومات قبل دخوله إلى مصر ؛ ثم وليها عنه (محمد بن أبي بكر الصدّيق) رضي الله عنه في آخر سنة سبع وثلاثين فمكث دون السنة ؛ ثم وليها عن معاويةَ بن أبي سُفْيَانَ رضي الله عنه (عمرو ابن العاص ثانياً) سنة ثمان وثلاثين خمس سنين ، وتوفي بها سنة ثلاث وأربعين ؛ ثم وليها عنه (عقبةُ بن عامر الجُهَنيّ) في سنة أربع وأربعين فمكث فيها ثلاث سنين

وكَسْراً ؛ ثم وليها عنه (مَسْلَمَةُ بن مُخَلَّدٍ الخزرجيّ) سنة سبع وأربعين فمكث فيها خمسَ عشرةَ سنة .

* * *

الطبقة الثانية

عُمّال خلفاء بني أمّيَةَ بالشام

لما أفضت الخلافة بعد معاوية إلى ابنه يَزِيدَ . وليها عنه (سعيد بن يزيد بن علقمة الأزديّ) في سنة اثنتين وستين ، وأقرّه على الولاية بعد يزيد ابنُهُ معاوية ثم مَرْوَانُ بنُ الحَكَم ، فمكث فيها اثنتين وعشرين سنة ؛ ثم وليها عن عبد الملك بن مروان (عبد الله بن عبد الملك ابن مروان) في أوّل سنة ست وثمانين ، فمكث فيها خمس سنين ؛ ثم وليها عنه (قُرَّةُ بن شريك) في سنة تسعين ، وأقره عليها الوليدُ بن عبد المَلِك بعده ، فمكث فيها سبع سنين ؛ ثم وليها عن سليمان بن عبد الملك (عبدُ الملك بنُ رِفاعة) في سنة سبع وتسعين ، فمكث فيها ثلاث سنين وكسراً ؛ ثم وليها عن عمر بن عبد العزيز (أيوبُ بن شُرَحْبِيلَ الأصْبَحي) آخرَ سنة

تسع وتسعين ، فمكث فيها سنتين وستة أشهر ؛ ثم كانت خلافة يَزيدَ بن عبد الملكِ ؛ فوليها عنه (بشر بن صفوان الكلبيّ) سنة إحدى ومائة ، فمكث فيها سنتين وستة أشهر أيضاً ؛ ثم وليها عن هشام بن عبد الملك (محمد بن عبد الملك) أخو هشام في سنة خمس ومائة ، فمكث فيها أشهراً ؛ ثم وليها عنه (عبد الله بن يوسف الثقفي) في ذي الحجة سنة خمس ومائة ، فمكث فيها أربع سنين وستة أشهر ؛ ثم وليها عنه (عبد الملك بن رفاعة ثانياً) في سنة تسع ومائة وعزل فيها ؛ ثم وليها عنه (الوليد) أخو عبد الملك بن رفاعة في سنة تسع المذكورة ، فمكث فيها عشر سنين وكسراً ، وتُوفّي سنة تسع عشرة ومائة ؛ ثم وليها عنه (عبد الرحمن الفهْري) ثانياً في آخر سنة تسع عشرة ومائة ، فأقام بها سبعة أشهر ، ثم وليها عنه (حنظلة) بن صفوان ثانياً (١) في سنة عشرين ومائة ، فمكث فيها ثلاث سنين وكسراً وعزل ؛ ثم

(١) لم يذكر أن حنظلة كان أميراً على مصر فيما سبق ، ولكن في المقريزي أن بشر بن صفوان استخلف أخاه حنظلة على مصر حين ولاه يزيد على إفريقية في سنة اثنتين ومائة فتكون ولايته هذه المرة ثانية .

وليها عن مَرْوَانَ بن محمد الجعديّ ؛ فوليها عنه (حسان ابن عتابة التُّجِيبي) سنة سبع وعشرين ومائة ، فمكث فيها خمس سنين أو دونها ؛ ثم وليها عنه (حفص بن الوليد) سنة ثمان وعشرين ومائة ، فمكث فيها ثلاث سنين وستة أشهر ؛ ثم وليها عنه (الفزاريّ) سنة إحدى وثلاثين ومائة ، فمكث فيها سنة واحدة ؛ ثم وليها عنه (عبد الملك بن مَرْوَانَ) مولى لَخْمٍ سنة إحدى وثلاثين ومائة ، وهو آخر مَنْ وليها عن بني أمية .

* * *

الطبقة الثالثة

عُمّال خلفاء بني العبّاس بالعراق .

أوّل من وليها في الدولة العباسية عن أبي العبّاس السفّاح : أوّلِ خلفائهم ، (صالحُ بنُ علي بن عبد الله بن عباس) سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، فمكث فيها أشهراً قلائل ؛ ثم وليها عنه (عبد الملك) مولى بني أسد آخِرَ سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، فمكث فيها ثلاث سنين ؛ ثم وليها عنه (صالح بن عليّ) ثانياً في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة . ثم وليها عن أبي جعفر المنصور (عبدُ الملك)

سنة تسع وثلاثين ومائة ، فمكث فيها ثلاث سنين ؛ ثم وليها عنه (النّقِيب التميميّ) سنة إحدى وأربعين ومائة ، فمكث فيها سنتين ؛ ثم وليها عنه (حُمَيد الطائيّ) سنة ثلاث وأربعين ومائة ، فمكث فيها سنة واحدة ؛ ثم وليها عنه (يزيد المهلّبيُّ) سنة أربع وأربعين ومائة ، فمكث فيها تسعَ سنين ؛ ثم وليها عنه (عبدُ الله بن عبدالرحمن بن معاوية) سنة اثنتين وخمسين ومائة ، فمكث فيها سنتين وستة أشهر ؛ ثم وليها عنه (محمد بن عبد الرحمن ابن معاوية) سنة أربع وخمسين ومائة ، فمكث فيها سنة واحدة ؛ ثم وليها عنه (موسى بن علي اللخميُّ) في سنة خمس وخمسين ومائة ، فمكث فيها سنتين وستة أشهر .

ثم وليها عن المهدي (عيسى الجُمَحِيّ) (١) سنة إحدى وستين ومائة ، فمكث فيها سنة واحدة ؛ ثم

(١) كذا في تاريخ مصر وولاتها الكندي والنجوم الزاهرة (ج٢ ص ٢٧) وخطط المقريزي .

وليها عنه (واضح) (١) مولى المنصور في سنة اثنتين وستين ومائة؛ثم وليها عنه (زيد بن منصور الحميري) في وسط سنة اثنتين وستين ومئة . ثم وليها عنه(يحيى أبو صالح) في ذي الحجة من السنة المذكورة؛ثم وليها عنه(سالم بن سوادة التميميّ) سنة أربع وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (إبراهيم العباسيّ) في سنة خمس وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (مُعين الدين خثهم) في سنة ست وستين ومائة .

ثم وليها عن الهادي (أسامةُ بن عمرو العامريّ) في سنة ثمان وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (الفضل بن صالح العباسيّ) في سنة تسع وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (علي بن سليمان العباسيّ) آخرَ السنة المذكورة .

ثم وليها عن الرشيد (موسى العباسيّ) في سنة اثنتين وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (محمد بن زهير) الأزدي سنة ثلاث وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه(داودُ بن يزيد المهلبي)سنة أربع وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (موسى ابن عيسى العباسيّ) سنة خمس وسبعين ومائة ومات بها ؛

---

(١) كذا في تاريخ مصر وولاتها للكندي والنجوم الزاهرة (ج٢ ص ٤٠) وخطط المقريزي . .

ثم وليها عنه (عبد الله بن المسيب الضبيّ) في أوّل سنة سبع وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (هَرْثَمَة بن أعين) سنة ثمان وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (عبد الملك العباسيّ) في سلخ ذي الحجة من السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (عبيد الله بن المهديّ العباسيّ) في سنة تسع وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (موسى بن عيسى) التنوخي في أواخر سنة ثمانين ومائة ؛ ثم وليها عنه (عبيد الله بن المهديّ) ثانياً سنة إحدى وثمانين ومائة ؛ ثم وليها عنه (إسماعيل بن صالح) في آخر السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (إسماعيل (١) ابن عيسى بن موسى (٢)) سنة اثنتين وثمانين ومائة ؛ ثم وليها عنه (الليثُ البِيوَرْدِي) في آخر السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (أحمد بن إسماعيل) في آخر سنة تسع وثمانين ومائة ؛ ثم وليها عنه (عبد الله بن محمد العباسيّ) المعروف بابن زينْبَ في سنة تسعين ومائة ؛ ثم وليها

---

(١) كذا في تاريخ مصر وولاتها للكندي والنجوم الزاهرة (ج٢ ص ١٠٩) وخطط المقريزي .

(٢) هذا من تاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير والنجوم الزاهرة . وفي الأصل المخطوط : « إسماعيل » .

عنه (مالك بن دَلْهَم الكلبي) سنة اثنتين وتسعين ومائة ؛ ثم وليها عنه أو عن الأمين (الحسينُ بنُ الحجاج) سنة ثلاث وتسعين ومائة .

ثم وليها عن الأمين (حاتم بن هَرْثمة بن أعْيَن) سنة خمس وتسعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (عباد أبو نصر) مولى كِنْدة سنة ست وتسعين ومائة ؛ ثم وليها عنه أو عن المأمون (المطّلبُ بنُ عبد الله الخزاعي) سنة ثمان وتسعين ومائة .

ثم وليها عن المأمون (العباسُ بنُ موسى) سنة ثمان وتسعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (المطلب بن عبد الله) ثانياً في سنة تسع وتسعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (السريّ بن الحَكَم) في سنة مائتين ؛ ثم وليها عنه (سليمان بن غالب) في سنة إحدى ومائتين ؛ ثم وليها عنه (أبو نصر محمد بن السريّ) في سنة خمس ومائتين ؛ ثم وليها عنه (عبيد الله) في سنة ست ومائتين ؛ ثم وليها عنه (عبد الله بن طاهر) مولى خُزَاعة في سنة عشر ومائتين ؛ وهو أوّل من جلب البِطّيخ الخُراسانيّ المعروفَ بالعَبْدَليّ من خُرَاسان

إلى مصر فنُسِب إليه ؛ ثم وليها عنه (عيسى الجَلُّوديّ) في سنة ثلاثَ عشرَةَ ومائتين ؛ ثم وليها عنه (عمرو بن الوليد التميميّ) في سنة أربع عشرةَ ومائتين ؛ ثم وليها عنه (عيسى الجلُّوديُّ) ثانيا في آخر السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (عَبْدَوَيْه بن جبَلَةَ) في سنة خمسَ عشرةَ ومائتين ؛ ثم وليها عنه (عيسى بن منصور) مولى بني نصر في سنة ستَّ عشرةَ ومائتين .

وفي هذه السنة دخل المأمون مصر وفتح الهَرَم .

ثم وليها عن المعتصم بالله . . . .(١) المسعوديّ في أوّل سنة تسعَ عشرةَ ومائتين ؛ ثم وليها عنه (المظَفّر ابن كيدر) في وسط السنة المذكورة أشهراً قلائل ؛ ثم وليها عنه (موسى بن أبي العباس)(٢) في آخر السنة المذكورة ؛

---

(١) بياض في الأصل المخطوط والذي في المسعودي أن خلافة المعتصم كانت في سنة تسع عشرة ومائتين ، وفي المقريزي أنه ولي على مصر في هذا التاريخ (كيدر) ومات كيدر في ربيع الآخر من السنة المذكورة ، فولى ابنه (المظفر) باستخلاف أبيه .

(٢) هذا من تاريخ مصر وولاتها للكندي والنجوم الزاهرة (ج٢ ص ٢٣١) وخطط المقريزي وفي الأصل المخطوط : «أبو العباس الحمقي » .

ثم وليها عنه (مالك(١) بن كيدر) في سنة أربع وعشرين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (عليّ بن يحيى) في سنة ست وعشرين ومائتين .

ثم وليها عن الواثق بالله (عيسى بن منصور الجَلُّودي) ثانياً (٢) في سنة تسع وعشرين ومائتين ؛ ثم وليها عن المتوكل (٣) (علي بن يحيى) ثانياً في سنة أربع وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (إسحاق الخَتْلِيّ) (٤) في سنة خمس وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (خُزَاعة)

---

(١) كذا في تاريخ مصر وولاتها للكندي والنجوم الزاهرة (ج٢ ص ٢٣٩) وخطط المقريزي . وفي الأصل المخطوط « مبارك » .

(٢) كذا في تاريخ مصر وولاتها للكندي والنجوم الزاهرة (ج٢ ص ٢٧٨) وخطط المقريزي . وفي الأصل « ثالث مرة » .

(٣) كذا في تاريخ مصر وولاتها للكندي والنجوم الزاهرة (ج٢ ص ٢٧٨) وخطط المقريزي . وفي الأصل « عنه » ومقتضاه أن المذكور ولي عن الواثق في هذا التاريخ مع أن خلافة الواثق كانت سنة سبع وعشرين ومائتين ووفاته كانت سنة اثنتين وثلاثين ومائتين .

(٤) كذا في النجوم الزاهرة (ج٢ ص ٢٨٣) ، وذكر أن أصله من قرية ختلان : بلدة عند سمرقند . وفي الأصل : « الجبلى » وهو تصحيف .

في سنة ست وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (عَنْبَسة (١) الضَّبّيّ) في سنة ثمان وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (يزيد بن عبد الله) في سنة اثنتين وأربعين ومائتين . وأقرّه عليها بعده المنتصر بالله ؛ ثم المستعين بالله .

ثم وليها عن المستعين بالله (مُزاحِم بن خاقان) في سنة ثلاث وخمسين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (أحمد ابن مُزَاحِم) في سنة أربع وخمسين ومائتين،وأقرّه عليها المهتدي بالله .

الضرب الثاني

من وليها مُلْكاً ، وهم على أربع طبقات :

الطبقة الأولى

من وليها عن بني العبّاس قَبْل دولة الفاطميين

وأوّلهم : (أحمدُ بن طولون) وليها عن المعتمد في سنة ست وستين ومائتين ، وعَمَر بها جامعَه المتقدّم

(١) كذا في تاريخ مصر وولاتها للكندي والنجوم الزاهرة (ج٢ ص ٢٩٣) . وفي الأصل : « عقبة » وهو تحريف .

ذكره في خِطَط الفُسْطاط ؛ وفي أيامه عَظُمت نيابةُ مصرَ وشَمَخَتْ إلى المُلْك ، وهو أول من جَلَب المماليك الترك إلى الديار المصرية واستخدمهم في عسكرها .

وأقرّه المعتضد بالله بعد المعتمد ، وبقي بها حتى مات ، فوليها عن المعتضد (خُمَارَويه بن أحمد بن طولون) في أوّل سنة اثنتين (١) وثمانين ومائتين ، وقتله جُنْدُه في السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (جَيْش بن خُمارويه) في سنة ثلاث وثمانين ومائتين. وقتله جنده في السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (هارون بن خمارويه) في آخر سنة ثلاث وثمانين ومائتين ، وقتل في سنة اثنتين وتسعين .

ثم وليها عن المكتفي بالله (شَيْبان بن أحمد بن طولون) في سنة اثنتين وتسعين ومائتين فبقِي اثنَي عشر

---

(١) في تاريخ مصر وولاتها للكندي وتاريخ ابن الأثير (ج٧ ص ٢٨٧ طبع أوربا) والنجوم الزاهرة (ج٢ ص ٤٩) وخطط المقريزي : أن ولاية خمارويه على مصر كانت في ذي القعدة سنة سبعين ومائتين إلى سنة اثنتين وثمانين ومائتين . فكانت مدة ملكه على مصر والشام اثنتي عشرة سنة وثمانية عشر يوماً .

يوماً وعُزِل ؛ ثم وليها عنه (محمد بن سليمان الواثقي) في آخر سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، ثم وليها عنه أو عن المقتدر بالله (عيسى النُّوشِرَيّ) في سنة خمس (١) وتسعين ومائتين .

ثم وليها عن المقتدر بالله (أبو منصور تِكين) في سنة سبع وتسعين ومائتين وعُزِل ؛ ثم وليها عنه (أبو الحسن) في سنة ثلاث وثلاثمئة وعزل ؛ ثم وليها عنه (أبو منصور تكين) ثانياً سنة سبع وثلاثمئة وعزل ؛ ثم وليها عنه (هلال) سنة تسع وثلاثمئة ؛ ثم وليها عنه (أحمدُ بن كَيَنْغَلَغ) في سنة إحدى عشرة وثلاثمئة ؛ ثم وليها عنه (أبو منصور تِكين) ثالث مرة في السنة المذكورة .

ثم وليها عن القاهر بالله (محمدُ بنَ طُغْج) في سنة إحدى وعشرين وثلاثمئة . ثم وليها عنه (أحمد بن

---

(١) كانت ولاية عيسى النوشري على مصر في سنة اثنتين وتسعين ومائتين وبقي إلى سنة سبع وتسعين ومائتين كما ورد في المصادر المذكورة .

كَيْغَلَغ) ثانياً في سنة ثلاث وعشرين وثلاثمئة . وأقره عليها المكتفي ثم المستكفي بالله بعده .

ثم وليها عن المُطيع لله (أبو القاسم الإخشيد) في سنة خمس وثلاثين وثلاثمئة ؛ ثم وليها عنه (علي بن الإخشيد) سنة تسع (١) وثلاثين وثلاثمئة ؛ ثم وليها عنه (كافور الإخشيدي) الخادم في سنة خمس وخمسين وثلاثمئة ، وكان يحب العلماء والفقهاء ، ويكرمهم ، ويتعاهدهم بالنّفقات ، ويكثر الصدقات حتى استغنى الناس في أيامه ، ولم يجد أربابُ الأموال من يقبل منهم الزكاةَ فرفعوا أمر ذلك إليه فأمرهم أن يبتنوا بها المساجدَ ويتخذوا لها الأوقاف ففعلوا ؛ ثم وليها عنه (أحمدُ بن علي الإخشيد) في سنة سبع وثلاثمئة ، وهو آخر من وليها من العُمّال عن خلفاء بني العباس بالعراق .

* * *

(١) كانت ولاية علي بن الإخشيد على مصر في سنة تسع وأربعين وثلاثمئة كما ورد في المصادر المذكورة .

الطبقة الثانية

مَنْ وليها من الخلفاء الفاطميين المعروفين بالعُبَيديِّين

أوّل من وليها منهم (المُعِزُّ لدين الله أبو تميم مَعَدُّ بن تميم بن إسماعيل بن محمد بن عبيد الله المهديِّ) وإليه ينسبون ، جهز إليها قائده جَوْهَراً ، من بلاد المغرب إلى الديار المصرية ففتحها في شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمئة على ماتقدّم في الكلام على قواعد الديار المصرية وانقطعت الخُطبة العباسية منها ؛ ورحل المعزُّ من المغرب إلى مصر فوصل إليها ودخل قصره بالقاهرة في سابع رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمئة وصارت مصر والمغرب مملكةً واحدة ، وبلاد المغرب نيابة من مصر . وتُوفِّي ثالثَ ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمئة .

ثم ولي بعده ابنُه (العزيزُ بالله أبو المنصور) يوم وفاة أبيه ، وإليه ينسب الجامع العزيزي بمدينة بِلْبِيس ، وتُوفِّي بالحمام في بِلْبِيس ثامنَ رمضان المعظّم قدرُه سنة ست وثمانين وثلاثمئة .

ثم ولي بعده ابنه (الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور) ليلة وفاة أبيه ، وبنى الجامع الحاكميَّ في سنة تسع وثمانين وثلاثمئة ، وهو يومئذ خارجَ سورِ القاهرة ، وفارق مصر وخرج إلى الجبل المقطم فوُجدتْ ثيابُه مُزَرَّرة الأطواق وفيها آثار السكاكين ولا جُثَة فيها ، وذلك في سلخ شوّال سنة إحدى عشرة وأربعمائة ولم يُشَك في قتله . والدُّرْزية من المبتدعة يعتقدون أنه حيٌ وأنه سيرجع ويعود .

ثم ولي بعده ابنه (الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن عليٌ) وبقي حتّى توفي في شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة .

ثم ولي بعده ابنه (المستنصر بالله أبو تميم معدٌ) بعد وفاة أبيه . وفي أيامه جُدِّد سُور القاهرة الكبير في سنة ثمانين وأربعمائة . وتوفي في ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة . وفي أيامه كان الغلاء الذي لم يعهد مثله ، مكث سبع سنين حتّى خَرِبت مصرُ ، ولم يبق بها إلا صُبَابة من الناس على ماتقدّم في سياقة الكلام على زيادة النيل .

ثم ولي بعده ابنه (المستعلي بالله) أبو القاسم أحمدُ

يوم وفاة أبيه . وتوفّي لسبعَ عشرةَ ليلةً خلت من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة .

ثم ولي بعده (الآمر بأحكام الله أبو عليّ المنصور) في يوم وفاة المستعلي ، وقتل بجزيرة مصر في الثالث من ذي القعدة سنةَ خمس وعشرين وخمسمائة .

ثم ولي بعده ابنُ عمه (الحافظُ لدين الله أبو الميمونِ عبدُ الحميد بنُ الآمر أبي القاسم محمد) يوم وفاة الآمر . وتوفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة .

ثم ولي بعده (الظافر بأمر الله إسماعيل) رابعَ جمادى الآخرة سنةَ أربعين وخمسمائة .

ثم ولي بعده ابنه (الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى) صبيحةَ وفاة أبيه . وتوفي في سابع عشر شهر رجب الفرد سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

ثم ولي بعده (ابنه العاضدُ لدين الله أبو محمد عبدُ الله بن يوسف) يوم وفاة الفائز ، وتوفّي يومَ عاشوراء سنة أربع وستين وخمسمائة بعد أن قطع السلطانُ صلاح الدين خطبته بالديار المصرية وخطب للخلفاء العبّاسيين ببغداد قبل موته ، وهو آخر من ولي منهم .

الطبقة الثالثة

ملوك بني أيُّوب

وهم وإن كانوا يدينون بطاعة خلفاء بني العبّاس فهم ملوكٌ مستقلُّون ، وفي دولتهم زاد ارتفاع قدرِ مصرَ ومُلْكِها .

أوّل من ملك مصر منهم الملك الناصرُ (صلاحُ الدين يوسفُ بنُ أيوبَ) كان الملك العادلُ نورُ الدين محمودُ ابن زنكي صاحبُ الشام رحمه الله قد جهّزه صحبةَ عمه أسدِ الدين شيركوه إلى الديار المصرية حين استغاث به أهلُ مصر في زمن العاضد الفاطميّ المتقدّم ذكره لغلبة الفرنج عليهم ثلاثَ مرّات انتهى الحالُ في آخرها إلى أنّ السلطان صلاح الدين وثب على شاور وزير العاضد المذكور فقتله وتقلد عمُّه أسدُ الدين شيركوه الوزارة مكانَهُ عن العاضد ؛ وكُتبَ له بذلك عهدٌ من إنشاء القاضي الفاضل ، فأقام فيها مدّة قريبة ومات ، ففوّض العاضد الوزارة مكانهُ للسلطان صلاح الدين ، وكتب له

عهدٌ من إنشاء القاضي الفاضل أيضاً . وبقي في الوزارة حتّى ضعُف العاضد وطال ضعفُه فقطع السلطان صلاح الدين الخطبةَ للعاضد ، وخطب للخليفة العباسيّ ببغداد بأمر الملك العادل صاحب الشام . ثم مات العاضد عن قريب فاستقلّ السلطان صلاح الدين بالسلطنة بمصر وقَوِي جأشُه ، وثبتت في الدولة قدمه . وتوفي بدِمَشْقَ في سنة تسع وثمانين وخمسمائة ؛ وكانَت مدّة ملكه بالديار المصرية أربعاً وعشرين سنة ، وملكه الشام تسعَ عشرة سنة ، ثم ملك بعده مصر ابنُه (الملكُ العزيز) وملك معها دمشقَ وسلّمها إلى عمه العادل أبي بكر في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، وتفرّقت بقية الممالك الشامية بيد بني عمه من بني أيوب .

ملكَ مصرَ والشامَ جميعاً في ربيع الأوّل سنة ست وتسعين وخمسمائة ؛ وتوفي بدمشق سنة خمس عشرة وستمائة .

ثم ملك بعده ابنُه (الملكُ الكامل) عقيبَ وفاة أبيه المذكور ، وهو أوّل من سكن قَلْعَة الجبل بعد

قصر الفاطميين بالقاهرة على ماتقدّم ذكره في الكلام على القلعة ، واستمرّ في ذلك عشرين سنة ، وفتح حرّان وديارَ بكرٍ ، وكان الفرنج قد استعادوا بعض ما فتحه السلطان صلاحُ الدين من ساحل الشام ، وكتب الهُدْنَة بينه وبين الفرنج في سنة ست وعشرين وستمائة على أن يكون بأيدي الفرنج القلاعُ والنواحي التي ملكوها بعد فتح السلطان صلاح الدين ، وهي جبلة ، وبيروت ، وصيدا ، وقلعة الشقيف ، وقلعة تبنين ، وقلعة هواين ، وإسكندرونة ، وقلعة صَفَد ، وقلعة الطور ، واللجون ، وقلعة كَوْكب ، ومجدل يافا ، ولُدّ ، والرملة ، وعسقلان ، وبيت جِبْريل ، والقُدْس وأعمال ذلك ومضافاته . وبنى مدرسته الكاملية بين القصرين المعروفة بدار الحديث ، وتوفي بدمشق سنة خمس وثلاثين وستمائة .

ثم ملك بعده ابنه (الملك العادل أبو بكر) وقبض عليه في العشر الأوسط من ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة .

ثم ملك بعده أخوه الملك الصالح (نجم الدين أيوب) ابن الكامل في أوائل سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

ثم ملك بعده ابنه الملكُ المعظم (توران شاه) وهو الذي كسر الفرنج على المنصورة في المحرّم سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وقتل في الثامن والعشرين من المحرّم المذكور .

ثم ملكت بعده أمُّ خليل (شجرة الدر) في صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة ، فأقامت ثمانية أشهر ، ولم يملك مصر في الإسلام امرأةٌ غيرها .

ثم ملك بعدها الملكُ الأشرف (موسى بن الناصر يوسف بن المسعود بن الكامل بن العادل أبي بكر بن أيوب) في شوّال سنة ثمان وأربعين وستمائة وخلع نفسه؛وهو آخر الملوك الأيوبية بالديار المصرية .

* * *

الطبقة الرابعة

ملوك التُرْك خلّد الله تعالى دولتهم .

أوّل من ملكها منهم (الملكُ المُعِزُّ أيبك التركماني) بعد خلع الأشرف موسى ، آخر ملوك الأيوبية في شوّال سنة ثمان وأربعين وستمائة ؛ وجُمِع له بين مصر والشام ، واستمرّ الجمع بينهما إلى الآن ، وبنى المدرسة المُعِزية برحبة الحرّوب بالفُسْطاط ، وتزوج بأمّ خليل المتقدّم ذكرها ، وقتل بحمّام القلعة في سنة أربع وخمسين وستمائة .

ثم ملك بعده ابنه (الملك المنصور عليّ) عقيبَ وفاة والده المذكور . وقُتِلتْ أمّ خليل المذكورة ، ورميت من سُور القلعة ، وقُبِض على المظفّر (١) سنة سبع وخمسين وستمائة .

ثم ملك بعده الملك (المظفر قُطُزْ) وكانَ المَصَافُ

(١) لعل مراده الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر شريك المعز في السلطنة . وانظر المقام في خطط المقريزي (ج٢ ص ٢٣٧) .

بينه وبين التتار على عَيْن جالوتَ بعد أن استولَوْا على جميع الشام في رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وكسرهم أشدّ كسرة واستقلع الشام منهم ، وبقي حتى قتل في مُنصَرفه بطريق الشام وهو عائد منه بالقرب من قصير الصالحية على أثر ذلك في السنة المذكورة .

ثم ملك بعده الملك (الظاهر بيبرس) البُنْدقداريّ في ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وأخذ في جهاد الفرنج واستعادة ما ارتجعوه من فتوح السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وغير ذلك ففتح البِيرةَ في سنة تسع وخمسين وستمائة،والكَرَك في سنة إحدى وستين ، وحِمْص في آخر سنة اثنتين وستين وستمائة ، وقَيْسارِيةَ وأرْسُوف في سنة ثلاث وستين ، وصَفَد في سنة أربع وستين ، ويافا والشّقيف ، وأنْطاكيَةَ في سنة ست وستين ، وحِصْن الأكراد وعَكّا وصافِيتَا في سنة تسع وستين ، وكَسَر التّتار على البِيْرة بعد أن عدّى الفُرات خوضاً بعساكره في سنة إحدى وسبعين ؛ وفتح قلاعاً من بلاد سيس في سنة ثلاث وسبعين ، ودخل

بلاد الروم . وجلس على كرسي بني سَلْجُوق بقَيْسارية الروم ، ورجع إلى دمشق في آخر سنة خمس وسبعين ؛ وتُوفِّي بدمشق في المحرّم سنة ست وسبعين وستمائة ، وبنى مدرسته الظاهرية بين القَصْرين .

وملك بعده ابنه (الملك السعيد بَرَكَةُ) في صفر سنة ست وسبعين وستمائة ، وخُلِع وسُيِّر إلى الكرك .

وملك بعده أخوه (الملك العادل سَلاَمِش)في ربيع الأوّل سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وبقي أربعة أشهر ثم خلع .

وملك بعده (الملك المنصور قلاوون الصالحيّ) الشهير بالألفيّ في رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وسمي الألفيّ لأن آقْسُنْقر الكامليّ كان قد اشتراه بألف دينار ؛ وفتح حصن المَرْقَب بالشأم في تاسع عشر ربيع الأوّل سنة أربع وثمانين وستمائة ؛ وفتح طَرَابُلُسَ في ربيع الأوّل سنة ثمان وثمانين وستمائة ؛ وهو الذي بنى البيمارستان المنصوريَّ والمدرسةَ المنصوريةَ والقبةَ اللتين داخل البيمارستان بين القَصْرين . وتُوفِّي بظاهر القاهرة المحروسة ، وهو قاصد الغزو في ذي القعدة سنة

تسع وثمانين وستمائة،ودفن بتربته بالقبة المنصورية داخل البيمارستان المتقدّم ذكره .

وملك بعده ابنهُ (الملك الأشرفُ خليلٌ) صبيحة وفاة أبيه،وأخذ في الغزو ففتح عَكّا وصُور ، وصَيْدا ، وبَيْروت ، وعَثْليث . والساحل جميعه ؛ واقتلعه من الفرنج في رجب سنة تسعين وستمائة . وقتل في متصيّده بالبحيرة في العشر الأوسط من المحرّم سنة ثلاث وتسعين وستمائة ؛ وهو الذي عَمّر المدرسة الأشرفية بالقرب من المشهد النفيسيّ .

ثم ملك بعده (الملك المعظم بيدرا) وخُلع من يومه .

وملك بعده (الملك الناصر محمدُ بن قلاوون) في صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، وهي سلطنته الأولى ، وخُلع بعد ذلك وبُعث به إلى الكرك فحُبِس بها ؛

وملك بعده (الملك العادل كَتْبُغَا) عقب خلعه ، ووقع في أيامه غلاء شديد وفناء عظيم ؛ ثم خُلع في صفر سنة ست وتسعين وستمائة ، وتولّى بعد ذلك نيابة صَرْخَد ثم حَمَاة ، وبقي حتّى توفي بعد ذلك ؛ وهو الذي ابتدأ

عمارة المدرسة المعروفة بالناصرية بين القصرين وأكمل بناءها الناصرُ محمد بن قلاوون فنسبت إليه .

وملك بعده (الملك المنصور حسام الدين لاجين) في الخامس والعشرين من صفر المذكور (١) ، فجدّد الجامع الطّولوني وعمل الروك (٢) الحُسَامي في رجب الفرد سنة سبع وتسعين وستمائة ، وقتل في الحادي عشر من شوّال(٣) من السنة المذكورة ، وبقي الأمر شُورى مدّة يسيرة ، ثم حضر الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك وأعيد إلى السلطنة في حادي عشر شوّال من السنة المذكورة .

وملك بعده (الملك المظفر بيبَرْسُ الجاشنكير) في الثالث والعشرين من شوال المذكور ،وخُلع في التاسع

---

(١) أي سنة ست وتسعين وستمائة .

(٢) الروك : مسح الأرض الزراعية،وهو المعبر عنه الآن بفك الزمام . (راجع خطط المقريزي ج١ ص ٨٧) .

(٣) في خطط المقريزي «من ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وستمائة » وأن تولية ابن قلاوون المرة الثانية في السادس من جمادى الأولى من السنة المذكورة وبقي إلى الثالث والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وسبعمائة ثم ولي المظفر في التاريخ المذكور . وبملاحظة ذلك يستقيم الكلام ويعلم مافي الأصل .

والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وسبعمائة ، وهو الذي عمر الخانقاه الرُّكْنيّة بيبرس داخل باب النصر مكان دار الوزارة بالدولة الفاطمية ، وجدّد الجامع الحاكمي .

وملك بعده (الملك الناصر محمدُ بن قلاوون) في مستهل شوّال من السنة المذكورة ، وهي سلطنته الثالثة . وفيها طالت مدّته وقوي ملكه ، وعمل الروك الناصريّ في سنة ست عشرة وسبعمائة ، وبنى مدرسته الناصرية بين القصرين ، وبقي حتّى توفي في العشرين من ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، ودفن بتربة والده .

ثم ملك بعده ابنه (الملكُ المنصورُ أبو بكر)عقب وفاة والده ، وخلع تاسع عشر صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة.

ثم ملك بعده أخوه (الملكُ الأشرفُ كجك) بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خَلْعِ أخيه المنصور المذكور ، وخلع في التاسع والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة .

ثم ملك بعده أخوه (الملكُ الناصرُ أحمدُ) بن الناصر محمد بن قلاوون بعد أن أحْضِر من الكرك ، واستمرّ في السلطنة حتّى خلع نفسه في أوائل المحرّم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة .

ثم ملك بعده أخوه (الملكُ الصالحُ إسماعيلُ) بن الناصر محمد بن قلاوون في العشرين من المحرّم المذكور ، وبقي حتّى توفي في رابع ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة .

وملك بعده (١) أخوه (الملكُ المُظَفّرُ حاجّي) بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خَلْعِ أخيه الكامل شعبان ، وبقي حتّى خُلِع في ثاني عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وقتل من يومه .

ثم ملك بعده أخوه (الملك الناصر حَسَنُ) بن الناصر محمد بن قلاوون في رابع عشر شهر رمضان المذكور ،

---

(١) سقط من قلم الناسخ الكامل شعبان فانه تولى بعد أخيه الصالح إسماعيل ومكث سنة واحدة وثمانية وخمسين يوماً ثم خلع كما تشير إليه بقية العبارة .

وخلع في التاسع والعشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة .

ثم ملك بعده أخوه (الملكُ الصالحُ صالحُ) بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خَلْعِ أخيه الناصر حسن ، وبقي حتّى خلع في ثاني شوّال سنة خمس وخمسين وسبعمائة .

ثم ملك بعده أخوه (الملك الناصر حسن) المتقدّم ذكره مرة ثانية يوم خلع أخيه الصالح صالح ، وبقي حتّى خلع وقُتِل في عاشر جمادى الأولى سنة اثنتين وستين وسبعمائة ؛ وبنى مدرستَه المعظمةَ تحت القلعة التي ليس لها نظير في الدنيا ، وفي أيامه ضربت الفلوس الجُدُد على ما سيأتي ذكره ، وهو آخر من ملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون لصُلْبه .

وملك بعده ابن أخيه (الملكُ المنصورُ محمدُ) بن المظفر حاجّي بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خَلْعِ عمه الناصر حسن ، وبقي حتّى خلع في خامس عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة .

وملك بعده ابن عمه (الملك الأشرف شعبان) بن

حسين بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خَلْعِ المنصور المتقدّم ذكره وهو طفل ، وبقي حتّى كمل سلطانه وبنى مدرسته بأعلى الصوّة تحت القلعة ولم يتمها ، وحج فخرج عليه مماليكه في عَقَبَة أيْلَةَ ففرّ منهم وعاد إلى القاهرة فقُبِض عليه وقتل في ثالث ذي القعدة الحرام سنة ثمانوسبعين وسبعمائة ، وفي أيامه فتحت مدينة سِيس واقتُلعت من الأرمن على ما سيأتي ذكره في الكلام على أعمال حَلَب .

وملك بعده ابنه (الملك المنصور علي) يوم خلع أبيه وهو طفل ، فبقى حتى توفي في الثالث والعشرين من صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة .

وملك بعده أخوه (الملك الصالح حاجي) بن شعبان بن حسين يوم وفاة أخيه ، وبقي حتى خُلِعَ في العشر الأوسط من رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة .

وملك بعده (الملك الظاهر برقوق) فعظُم أمره ، وارتَفع صِيتُه ، وشاع ذكره في الممالك وهابَتْه الملوك وهادَتْه ، وساس المُلْكَ أحسن سياسة ، وبقي حتى خلع وبُعِثَ به الى السجن بالكرك في شهر رجب أو جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين وسبعمائة .

وملك بعده (الملك المنصور حاجي) بن شعبان ، وهو الملقب أولا بالصالح حاجي وهي سلطنته الثانية ، وبقي حتى عاد الملك الظاهر برقوق المتقدّم ذكره في سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، فزاد في التيه وضخامة الملك وبلغ شأواً لم يبلغه غيره من غالب متقدّمي الملوك ، وبقي حتى توفي في منتصف شوال المبارك سنة إحدى وثمانمائة .

وملك بعده ابنه (الناصر فرج) وسِنُّهُ إحدى عشرة سنة بعَهْدٍ من أبيه ، وقام بتدبير أمره أمراءُ دولته ، فبقي حتى تغير عليه بعضُ مماليكه وبعضُ أمرائه ، وحضر المماليك بالقلعة ، فنزل منها مختفياً على حين غفلة في السادس والعشرين من ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة ، ولم يعلم لابتداء أمره أين توجه .

ثم ملك بعده أخوه (الملك المنصور عبد العزيز) في التاريخ المذكور .

ثم ظهر أن السلطان (الملك الناصر فرجا) كان مختفياً في بعض أماكن القاهرة ، فركب في ليلة السادس من شهر جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانمائة ، ومعه جماعة من الأمراء

ومماليكه ، وخرج الأمراء للقيام بنُصْرة أخيه عبد العزيز فطلع عليهم السلطان فرجٌ ومَن معه ، فولّوْا هاربين ، وطلع السلطان الملك الناصر القلعةَ في صبيحة النهار المذكور واستقرّ على عادته ، وبقي في السلطنة حتى توجه إلى الشام لقتال الأمير شيخ والأمير نوروز نائبي دِمشْقَ وحلَبَ ، ومعه الإمام (المستعينُ باللهِ أبو الفضل العباسُ) بنُ المتوكل محمد خليفة العصر ، ودخل دِمَشْقَ وحُصِر بقلعتها حتى قبض في ثاني عشر ربيع الأوّل سنة خمس عشرة وثمانمائة ، **واستبدّ الإمام المستعينُ بالله بالأمر من غير سلطان ورجع** إليه ما كان يتعاطاه السلطان من العَلاَمة على المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمناشير وغيرها ، وأفرد اسمه في السكة على الدنانير والدراهم ، وأفرد بالدعاء في الخطبة على المنابر ؟ ثم عاد إلى الديار المصرية في أوائل ربيع الآخر من السنة المذكورة ، وسكن الآدْرَ السلطانية بالقلعة ، وقام بتدبير دولته الأميرُ شيخ المقدّم ذكره وسكن الإصطبلات السلطانية بالقلعة وفوض إليه الإمام المستعين بالله ماوراء سرير

الخلافة ، وكُتب له تفويض بذلك في قِطْع كبير عرضُه ذراع ونصف بزيادة نصف ذراع عما يُكْتب به للسلاطين. إلا أنه لم يصرح له فيه بسلطنة ولا إمارة بل كتب له بدل الأميري الآمري بإسقاط الياء على ما سيأتي ذكره في الكلام على عهود الملوك إن شاء الله تعالى .

* * *

ترتيب مملكة مصر
في الإسلام

في ترتيب المملكة ، ولها ثلاث حالات :

الحالة الأولى : ما كانت عليه في زمن عُمّال الخلفاء من حين الفتح إلى آخر الدولة الإخشيدية ؛ ولم يتحرر لي ترتيبها ، والظاهر أنه لم يزل نوّابها وأمراؤها حينئذ على هيئة العرب إلى أن وليها أحمد بن طولون وبَنُوه وأحدثوا فيها ترتيب الملك . على أنه كان أكثر عسكره من السودان ، حتى يقال إنه كان في عسكره اثنا عشر ألف أسود ، وتبعتهم الدولة الإخشيدية على ذلك إلى آخر دولتهم .

الحالة الثانية : من أحوال الديار المصرية ما كانت عليه في زمن الخلفاء الفاطميين ؛ وينحصر المقصود من ترتيب مملكتهم في سبع جمل .

الجملة الأولى

في الآلات الملوكية المختصةبالمواكب العظام

وهي على أصناف متعدّدة :

منها « التاج » . وكان يُنْعَت عندهم بالتاج الشريف ، ويعرف بشدّة الوَقَار . وهو تاج يركب به الخليفة في المواكب العِظَام ، وفيه جوهرة عظيمة تُعْرف باليتيمة زنتها سبعة دراهم ولا يقوّم عليها لنَفَاستها ؛ وحولها جواهر أخرى دونها ؛ يلبس الخليفة هذا التاج في المواكب العظام مكان العمامة .

ومنها «قضيب الملك» . وهو عُود طول شبر ونصف ، ملبّس بالذهب المرصّع بالدرّ والجوهر ، يكون بيد الخليفة في المواكب العظام .

ومنها « السيف الخاص » . الذي يحمل مع الخليفة في المواكب . يقال إنه كان من صاعقةٍ وقعت وحصل الظّفر بها فعمل منها هذا السيف ، وحليته من ذهب مرصعة بالجواهر ، وهو في خريطة مرقومة بالذهب لايظهر إلا رأسه ، وله أمير من أعظم الأمراء يحمله عند ركوب الخليفة في الموكب .

ومنها « الدواة » . وهي دواة متخذة من الذهب وحِليتُها مصنوعة من المَرْجَانِ على صلابته ومناعته ، تلف في منديل

شرب (١) أبيض مذهب ، ويحملها شخص من الأستاذين في الموكب أمام الخليفة تكون بينه وبين السرج ، ثم جعل حَمْلُها لعَدْل من العدول المعتبرين .

ومنها « الرمح » . وهو رمح لطيف في غلاف منظوم باللؤلؤ ؛ وله سِنَان مختصر بحلية الذهب ؛ وله شخص مختص بحمله.

ومنها « الدَّرَقَةُ » . وهي دَرَقَةٌ كبيرة بكوابج(٢) من ذهب ؛ يقولون إنها دَرَقَةُ حمزة عم النبي صلّى الله عليه وسلم ، وعليها غِشَاء من حرير ؛ ويحملها في الموكب أمير من أكابر الأمراء له عندهم جلالة .

ومنها « « الحافر » . وهي قطعة ياقوت أحمر في شكْل الهِلاَل ، زنتها أحد عشر مثقالا ، ليس لها نظير في الدنيا ، تخاط خياطة حسنة على خرقة من حرير ، وبدائرها قضب زمرد ذُبابي(٣) عظيم الشأن ، تجعل في وجه فرس الخليفة عند ركوبه في المواكب .

---

(١) الشرب : نوع مخصوص من الحرير كان يستعمل في ذلك الزمن .

(٢) في النجوم الزاهرة (ج ٤ ص ٨٠) وخطط المقريزي : «بكوامخ» .

(٣) سمي بالذبابي لقرب لونه من لون الذباب الكبير المائل إلى الخضرة .

ومنها « المِظَلّة » التي تحمل على رأس الخليفة عند ركوبه . وهي قُبّةٌ على هيئة خيمة على رأس عمود كالمِظَلّة التي يركب بها السلطان الآن . كانت اثني عشر شوزكاً عرض سُفْل كل شوزك شبر ، وطوله ثلاثة أذرع وثلث ، وآخره من أعلاه دقيق للغاية بحيث يجتمع الاثنا عشر شوزكاً في رأس عمود بدائرة . وعمودُها قنطارية من الزّان ملَبّسة بأنابيب الذهب ، وفي آخر أنبوبة ثلثي رأس العمود فلكة بارزة مقدار عرض إبهام تشدّ آخر الشوازك في حَلْقَةٍ من ذهب ، وتنزل في رأس الرمح . ولها عندهم مكانة جليلة لعلوّها رأس الخليفة . وحاملها من أكبر الأمراء.

قال ابن الطوير : وكان من شرطها عندهم أن تكون على لون الثياب التي يلبسها الخليفة في ذلك الموكب ، لا تخالف ذلك .

ومنها « الأعلام » . وأعلاها اللواءن المعروفان بلواءي الحمد ، وهما رمحان طويلان ملبّسان بأنابيب من ذهب إلى حدّ أسنّتهما ، وبأعلاهما رايتان من الحرير الأبيض المرقوم بالذهب ، ملفوفتان على الرمحين غير منشورتين ،

يَخْرُجان لخروج المظَلّة إلى أميرين معدّين لحملهما ، ودونهما رمحان برءوسهما أهِلّةٌ من ذهب صامت ، في كل واحد منهما سبع من ديباج أحمر وأصفر ، وفي فمه طارة مستديرة يدخل فيها الرمح فيفتحان فيظهر شكلهما ، يحملهما فارسان من صبيان الخاصّ ، ووراءهما رايات لِطَاف ملوّنة من الحرير المرقوم ومكتوب عليها : (نَصْرٌ مِنَ اللهِ وفَتْحٌ قَرِيبٌ) طولُ كلِّ راية منها ذراعان في عرض ذراع ونصف ، في كل واحد ثلاث طرازات على رماح من القَنَا ، عدّتها أبداً إحدى وعشرون راية ، يحملها أحد وعشرون فارساً من صبيان الخليفة ؛ وحاملها أبداً راكب بغلة .

ومنها « المِذَبّتَانِ » وهما مِذَبّتَانِ عظيمتان كالنخلتين ملويتان محمولتان عند رأس فرس الخليفة في الركوب .

ومنها « السلاح » الذي يحمله الركابية حول الخليفة وهو صَمَاصِمُ مصقولة ، ودبابيس مُلَبّسة بالكيمُخْت(١)

(١) الكيمخت : ضرب من الجلود المدبوغة .

الأحمر والأسود . ورؤوسها مدوّرة ، ولُتُوت (١) حديد
كذلك ورؤُوسها مستطيلة وآلات يقال لها المستوفيات .
وهي عُمُد حديد طول فراعين ، مربعات الأشكال بمقابض
مدوّرة بعدّة معلومة من كل صنف ؛ وستُّمائة حربة
بأسنة مصقولة ، تحتها جُلَب (٢) الفضة ؛ وثلاثمئة
دَرَقَة بكوابج فضة ؛ يحمل ذلك في الموكب ثلاثمئة
عبد أسود كل عبد حربتان ودَرَقَةٌ واحدة ؛ وستون
رمحاً طول كل واحد منها سبع أذرع ، برأسها طلعة
وعقبها من حديد ، يحملها قوم يقال لهم « السريرية »
يفتلونها بأيديهم اليمنى فَتْلاً متدارك الدوران ؛ ومائة
دَرَقة لطيفة ؛ ومائة سيف بيد مائة رجل ، كل رجل
دَرَقةٌ وسيف يسيرون رَجّالة في الموكب ؛ وعشرة
سيوف من خرائط ديباج أحمر وأصفر بشراريب يقال
لها سيوف الدم . تكون في أعقاب الموكب برسم ضرب

---

(١) لتوت كلمة فارسية معربة ، جمع لت ، واللت : القدوم والفأس العظيمة .

(٢) الجلب ، جمع جلبة ، وهي القطعة من الفضة وغيرها تضم نصاب الحربة بسنانها .

الأعناق إذا أراد الخليفة قتلَ أحد . وذلك كله خارجٌ عما يخرج من خزانة التجمل برسم الوزير وأكابر الأمراء وأرباب الرتب وأزِمّة العساكر لتجملهم في الموكب ، وهي نحو أربعمائة راية مرقومة الأطراف ، وبأعلاها رَمامين الفضة المذهبة ، وعدة من العَمّاريّات (١) ، وهي شبه الكنجاوات ملبسة بالحرير الأحمر والأصفر والقرمزي وغير ذلك ، وعليها كوابج (٢) الفضة المذهبة ، لكل أمير من أصحاب القضب منها عَمّاريّة ، ويختص لواءان على رمحين منقوشين بالذهب غير منشورين يكونان أمامه في الموكب إلى غير ذلك من الآلات التي يطول ذكرها ، ويعسر استيعابها .

ومنها « النّقّارات » . وكانت على عشرين بغلاً ، على كل بغل ثلاث مثل نقارات الكُوْسات بغير كُوْسات ، تسير في المركب اثنتين اثنتين ولها حسٌ حسن .

ومنها « الخيام والفساطيط » وكان من أعظم خيمهم

(١) العماريات ، جمع عمارية ، وهي الهودج يجلس فيه .
(٢) في النجوم الزاهرة (ج٤ ص ٨٥) والمقريزي « كوامخ »

خَيْمَةٌ تعرف بالقانول . طول عمودها سبعون ذراعاً . بأعلاه سفرة فضة تَسَعُ راوية ماء ، وسعتها ما يزيد على فدانين في التدوير . وسميت بالقاتول لأن فَرَّاشاً سقط من أعلاها فمات .

قلت : ولعمري إن هذه لأثَرَةٌ عظيمة تدل على عظيم مملكة وقوّة قدرة . وأنّى يتأتى مثل هذه الخيمة لملك من الملوك . وإن جلّ قدره وعظم شأنه .

* * *

الجملة الثانية

في حواصل الخليفة . وهي على خمسة أنواع

النوع الأوّل

الخزائن ، وهي ثمان خزائن :

الأولى : « خِزَانة الكتب » . وكانت من أجلّ الخزائن وأعظمها شأناً عندهم ، وكان فيها من المصاحف الشريفة المكتوبة بالخطوط المنسوبة الفائقة عدّةٌ كثيرة ، ومن الكتب النفيسة مايزيد على مائة ألف مجلد ، مشتملة على أنواع العلوم مما يُدْهِشُ الناظر ويحيره ، وربما

جتمع من المصنّف الواحد فيها عشرُ نسخ فما دونها (١) وكان فيها من الدُّرُوج المكتتبة بالخطوط المنسوبة كخط ابن مُقلة وابن البوّاب ، ومن جرى مجراهما (٢) .

الثانية : « خِزانة الكُسوة » وهي في الحقيقة خزانتان إحداهما : الخزانةُ الظاهرة ، وهي المعبر عنها في زماننا بالخزانة الكبرى على ماكانت عليه أوّلاً ، والمعبر عنها بخزانة الخاصّ على ما استقرّ عليه الحال آخراً ، وكان فيها من الحواصل من الديباج الملوّن على اختلاف ضروبها ، والشرب الخاص الدَّبيقيّ (٣) والسِّقلاطون (٤) ، وغير

---

(١) لعل الأنسب فما فوقها .

(٢) لعلل تمامه (مايدل على عظم المملكة) كما سيأتي في نظيره .

(٣) الدبيقي : نوع من الأقمشة الحريرية المزركشة التي كانت تصنع في دبيق ، وهي بلدة بمصر قديمة زالت ، وكانت واقعة على بحيرة المنزلة بالقرب من تنيس ، وموضعها اليوم تل دبيق في الشمال الشرقي لقرية صان الحجر وعلى بعد ٥٥٠٠ متر منها بمركز فاقوس .

(٤) السقلاطون : نوع من الملابس الحريرية الفاخرة الملونة بالألوان القرمزية وغيرها . وهو اسم بلد بالروم تصنع فيه تلك الملابس وتنسب اليه . وكانت تصنع أيضاً ببغداد وتبريز (راجع قاموس دوزي والقاموس الانجليزي الفارسي ومعجم البلدان لياقوت في كلامه على تبريز) .

ذلك من أنواع القماش الفاخرة ما يدل على عِظَم المملكة . وإليها يحمل ما يُعْمَل بدار الطِّراز بِتِنِّيس ودِمْيَاطَ والإسْكَنْدَرِية من مستعملات الخاص ، وفيها يفصَّل مايؤمر به من لباس الخليفة الخاص ، وما يحتاج إليه من الخِلَع والتشاريف وغير ذلك .

الثانية : معدّة للباس الخليفة خاصة ، وهي المعبر عنها في زماننا بالطشت خاناه ، وإليها ينقل القماش المفصَّل بالخزانة الأولى من قماش الخليفة وغيره .

الثالثة : « خزانة الشراب » . وهي المعبر عنها في زماننا بالشراب خاناه ، وكان فيها من أنواع الأشربة والمَعَاجين النفيسة والمربّيات الفاخرة وأصناف الأدوية والعِطْريّات الفائقة التي لاتوجد إلا فيها ؛ وفيها من الآلات النفيسة والآنية الصِّيني من الزبادي والصُّحُون والبَرَانيّ والأزيار مالا يقدر عليه غير الملوك .

الرابعة : « خزانة الطُّعْم » . وهي المعبّر عنها في زماننا بالحوائج خاناه ، وكانت تحتوي على عدّة أصناف من جميع أصناف القَلَويّات من الفستق وغيره والسُّكّر

والقَنْدِ (١) والأعسال على أصنافها والزيت والشّمع وغير ذلك ، ومنها يخرج راتب المطابخ خاصّاً وعاماً ؛ وينفق لأرباب الخدم وأصحاب التوقيعات في كل شهر . ولا يحتاج إلى غيرها إلا في اللحم والخضر .

الخامسة : « خِزانَة السُّروج » . وهي المعبّر عنها في زماننا بالرِّكاب خاناه ، وكانت قاعة كبيرة بالقصر . بها السروج واللُّجُمُ من الذهب والفِضَّة ، وسائر آلات الخيل مما يختص بالخليفة ؛ ثم منها ماهو قريب من الخاص ، ومنها ماهو وسط برسم مَنْ هو من أرباب الرُّتَب العالية ، ومنها ما هو دُونٌ برسم من هو برسم العواري أيام المواكب لأرباب الخدم .

السادسة : « خزانة الفَرْشِ » . وهي المعبّر عنها في زماننا بالفِرَاش خاناه ؛ وكان موضعها بالقصر بالقرب من دار الملك ؛ وكان الخليفةُ يحضرُ اليها من غير جلوس ويطوف فيها ، ويسأل عن أحوالها ، ويأمر بإدامة عمل الاحتياجات وحملها إليها .

---

(١) القند : عسل قصب السكر إذا جمد وهومعرب (كند) وهو قصب السكر ومنه الكردي (قند) .

السابعة : « خزانة السلاح » . وهي المعبّر عنها في زماننا بالسلاح خاناه ؛ فيها من أنواع السلاح المختلفة مالا نظير له : من الزَّرَدِيّات المُغَشّاة بالديباج المحكمة الصَّنعة المحلاّة بالفضة ، والجواشن (١) المُذْهبة ، والخُوَذ المحلاّة بالذهب والفضة ، والسيوف العربيات والفلجوريّة ، والرِّماح والقنا والقنطاريات المدهونة والمذهبة ، والأَسِنّة العظيمة ، والقِسِيّ المخبورة المنسوبة إلى أفاضل الصُّنّاع ، وقسيّ الرِّجل والركاب ، وقِسِي اللولب التي تبلغ زِنَةُ نصله خمسة أرطال بالمصري ، والنَّبْل الذي يرمى به عن القسيّ العربية في المجاري المصنوعة لذلك .

قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر : كان يصرف فيها في كل سنة سبعون ألف دينار إلى ثمانين ألف دينار .

الثامنة : « خزانة التجمّل » . وهي خزانة فيها أنواع من السلاح يُخْرَج منها للوزير والأمراء في المواكب

---

(١) الجواشن : جمع جوشن ، وهو مثل الزرد يلبس على الظهر ، والفرق بينه وبين الزرد أن الزرد يكون من حلقة واحدة فقط ، والجوشن يكون حلقة حلقة يتداخل فيها صفائح رقيقة من التنك .

الألويةُ والقُضُب الفضة والعَمّاريّات وغيرها . قال ابن الطوير : هي من حقوق خزائن السلاح .

وأما « خزائن المال » فكان فيها من الأموال والجواهر النفيسة ، والذخائر العظيمة ، والأقمشة الفاخرة مالا تحصره الأقلام .

وناهيك أن المستنصر لما وقع الغلاء العظيم بمصر ، أخرج من خزانته في سنة اثنتين وستين وأربعمائة ذخائرَ تَسَعُها للإعانة على قيام أمر المملكة والجند . فكان مما أخرجه ثمانون ألف قطعة بِلّوْرٍ كبار ، وسبعون ألف قطعة من الدّيباج ، وعشرون ألف سيف مُحلّى . ولما استولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوبَ على القصر بعد وفاة العاضد ، آخر خلفائهم ، وجد فيه من الأعلاق الثمينة والتُحفِ مايخرج عن حد الإحصاء ؛ من جملته الحافر الياقوت المقدّم ذكره . ويقال إنه وجد فيه قضيب زُمُرُّدٍ يزيد على قامة الرجل على ماتقدّم ذكره في الكلام على الأحجار الملوكية في أثناء المقالة الأولى ؛ ووُجد فيه أيضاً الهَرَم العَنْبَر الذي عمله الأمين زِنَتُه ألف رطل بالمصريّ .

* * *

النوع الثاني

حواصل المواشي المعبر عنها عند كُتّاب زماننابالكُراع

وهي حاصلان :

الأوّل : « الإصطبلات » . وهي حواصل الخيول والبِغَال وما في معناها . قال ابن الطوير : وكان لهم إصطبلان . قال : وكان للخليفة (١) برسم الخاصّ في كل إصطبل مايقْرُب من الألف رأس ، النصف من ذلك برسم الخاصّ . والنصف برسم العواري في المواكب لأرباب الرتب والمستخدمين ، وكان لكل ثلاثة أرؤُس منها سائس واحد ؛ لكل واحد منها شدّاد برسم تسييرها . وبكل من الإصطبلين رائض كأمير آخور . ومن غريب مايحكى أن أحداً من خلفاء الفاطميين لم يركب حِصَاناً أدهمَ قَطّ ، ولا يَرَوْنَ إضافته الى دوابهمّ بالإصطبلات .

(١) عبارة المقريزي (ج١ ص ٤٤٤) نقلا عن ابن الطوير : « وكان لهم اصطبلان : أحدهما يعرف بالطارقة ، يقابل قصر الشوك ، والآخر بحارة زويلة يعرف بالجميزة ، وكان للخليفة الخاصر مايقرب ... الخ وهي أوضح .

الثاني : « المُنَاخات » . وهي حواصل الجمال ، وكان لهم من الجمال الكثيرة بالمُنَاخات وعُدَدها الفائقة مايقصر عنه الحدّ .

* * *

النوع الثالث

حواصل الغلال وشُوَنُ الأَتْبان

أما الغلال : فكانت لهم الأهراءُ في عدّة أماكنَ : بالقاهرة ، وبالفُسْطَاط ، والمَقْسِم ؛ ومنها تصرف الإطلاقات لأرباب الرواتب والخدم والصدقات وأرباب الجوامع والمساجد والجرايات والطواحين السلطانية ، وجرايات رجال الأسطول وغير ذلك ، وربما طال زمن الغلال فيها حتّى تقطع بالمساحي .

وأما شُوَن الأتبان فكان بطريق الفُسْطَاط شُونتان عظيمتان مملوءتان بالتبن معبأتان تعبئة المراكب كالجبلين الشاهقين ، وينفق منها للإصطبلات والمواشي الديوانية وعَوَامل بساتين الملك ، وكانت ضريبة كل شليف عندهم ثلاثمئة وستين رطلاً .

* * *

النوع الرابع

حواصل البضاعة

قال ابن الطوير : وكان فيها مالا يحصره إلا القلم من الأخشاب والحديد والطواحين النجدية والغشيمة ، وآلات الأساطيل من القِنّب والكتّان ، والمنجنيقات والصُّنّاع الكثيرة من الفرنج وغيرهم من أهل كل صنعة ، وكانت الصناعة أوّلاً بالجزيرة المعروفة الآن بالرَّوْضَة . ولذلك كانت تعرف بينهم بجزيرة الصِّناعة.قاله القضاعيّ .

* * *

النوع الخامس

مافي معنى الحواصل ، لوقوع الصرف والتفرقة منه ، وهو الطواحين ، والمَطْبَخ ، ودار الفِطْرة(١)

فأما الطواحين فإنها كانت معلقة ، مداراتها أسفل

(١) أغفل المؤلف الكلام على دار الفطرة . وكانت خارج القصر قبالة الديلم ومشهد الحسين ، بناها العزيز بالله وقرر فيها مايعمل مما يحمل من الفطرة (وهي الجوز واللوز والبندق والفستق والزبيب) إلى الناس في عيد شوال . وكان مصروفها في كل سنة عشرة آلاف دينار . ومحلها=

وطواحينها فوقُ كما في السواقي حتّى لايقارب الدقيقَ زِبْلُ الدوابِّ الدائرة لاختصاصه بالخليفة .

وأما المَطْبَخ فقد تقدّم في الكلام على خطط القاهرة ، وكان يدخل بالطعام منه إلى القصر من باب الزُّهومة مكانَ قاعة الحنابلة من المدرسة الصالحية الآن على ماتقدّم في خِطط القاهرة . قال ابن الطوير : ولم يكن لهم أسمطة عامة في سوى العيدين وشهر رمضان .

* * *

الجملة الثالثة

في ذكر جيوش الدولة الفاطمية ، وبيان مراتب وأرباب السيوف وهم على ثلاثة أصناف :

الصنف الأوّل : الأُمراء

وهم على ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى مرتبة الأمراء المطوقين . وهم الذين

=اليوم الدور الواقعة في أول شارع فريد على يمين الداخل فيه من جهة الميدان القبلي لجامع سيدنا الحسين تجاه بوابة شارع الباب الأخضر (راجع الكلام عليها في خطط المقريزي ج١ ص ٤٢٥ والنجوم الزاهرة ج٤ ص ١٢٢ طبع دار الكتب المصرية) .

يخلع عليهم بأطواق الذهب في أعناقهم ، وكأنهم بمثابة الأمراء مقدّمي الأُلُوف في زماننا .

المرتبة الثانية : مرتبة أرباب القُضُب ، وهم الذين يركبون في المواكب بالقُضُب الفِضَّة التي يخرجها لهم الخليفة من خِزانة التجمُّل تكون بأيديهم ، وهم بمثابة الطبلخاناه في زماننا .

المرتبة الثالثة : أدوان الأمراء ممن لم يؤهّل لحمل القُضُب . وهم بمثابة أمراء العشرات والخمسات في زماننا .

* * *

الصنف الثاني

خواص الخليفة ، وهم على ثلاثة أنواع :

النوع الأول

الأستاذون

وهم المعروفون الآن بالخدّام وبالطواشيّة، وكان لهم لهم في دولتهم المكانة الجليلة ، ومنهم كان أرباب الوظائف

الخاصة بالخليفة ؛ وأجلّهم المُحَنَّكُونَ ، وهم الذين يُدوِّرون عمائمهم على أحناكهم كما تفعل العرب والمغاربة الآن ، وهم أقربهم إليه وأخصهم به ، وكانت عدّتهم تزيد على ألف . قال ابن الطوير : وكان من طريقتهم أنه متى ترشح أستاذ منهم للتحنك وحُنِّك(١) حَمَلَ إليه كل أستاذ من المحنّكين بَدْلَةً كاملة من ثيابه وسيفاً وفرساً فيصبح لاحقاً بهم ، وفي يده مثل مافي أيديهم .

* * *

النوع الثاني

صِبْيان الخاص

وهم جماعة من أخصّاء الخليفة نحو خمسمائة نفر منهم أمراء وغيرهم ، ومقامهم مقام المعروفين بالخاصكية في زماننا .

* * *

(١) تحنك الرجل : إذا أدار العمامة من تحت حنكه .

النوع الثالث

صِبْيان الحُجَر

وهم جماعة من الشّباب يناهزون خمسة آلاف نفر مقيمون في حُجَر منفردة ،لكل حُجْرة منها اسم يخصها . يضاهون مماليك الطباق السلطانية الآن المعبر عنهم بالكتانية إلا أن عدّتهم كاملة وعللهم مزاحة ، ومتى طُلِبوا لِمُهِم لم يجدوا عائقاً ، وللصِّبيان منهم حجرة منفردة يتسلمها بعض الأستاذين ؛ وكانت حُجْرتهم بمعزل عن القصر داخل باب النصر مكان الخانقاه الركنية بيبرس الآن .

* * *

الصنف الثالث

طوائف الأجناد

وكانوا عدّة كثيرة ، تنسب كلّ طائفة منهم إلى مَنْ بقي من بقايا خليفة من الخلفاء الماضين منهم ، كالحافظية والآمرية من بقايا الحافظ والآمر ، أو إلى مَنْ بقي من بقايا وزير من الوزراء الماضين كالجيوشية

والأفضلية من بقايا أمير الجيوش بدر الجمالي وولده الأفضل ، أو إلى مَنْ هي منتسبة إليه في الوقت الحاضر كالوزيرية أو غير ذلك من القبائل والأجناس كالأتراك والأكرادوالغزّ والديْلم والمَصامِدة ، أو من المستصنعين كالروم والفرنج والصّقالبة ، أو من السُّودان من عبيد الشراء ، أو العُتقاء وغيرهم من الطوائف ، ولكل طائفة منهم قوّاد ومقدّمون يحكمون عليهم .

* * *

الجملة الرابعة

في ذكر أرباب الوظائف بالدولة الفاطمية ، وهم على قسمين :

القسم الأول

مابحضرة الخليفة ، وهم أربعة أصناف :

الصنف الأول

أرباب الوظائف من أرباب السيوف ، وهم نوعان :

النوع الأوّل

وظائف عامّة الجند ، وهي تسع وظائف :

الوظيفة الأولى : « الوزارة » وهي أرفع وظائفهم

وأعلاها رتبةً . واعلم أن الوزارة في الدولة الفاطمية كانت تارة تكون في أرباب السُّيوف ، وتارة في أرباب الأقلام . وفي كلا الجانبين تارة تعلو فتكون وزارةَ تَفْويضٍ تضاهي السلطنة الآن أو قريباً منها ، ويعبر عنها حينئذ بالوزارة ، وتارة تنحطُّ فتكون دون ذلك ، ويعبر عنها حينئذ بالوَساطة .

قال في « نهاية الأرب » : وأوّل مَنْ خُوطِب منهم بالوزارة يعقوبُ بن كِلِّس وزير العزيز ، وأوّل وزارتهم من عظماء أرباب السيوف بدر الجماليّ وزير المستنصر ، وآخرهم صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ومنها استقل بالسلطنة على ماتقدّم .

الوظيفة الثانية : وظيفة « صاحب الباب » وهي ثاني رتبة الوزارة . قال ابن الطوير : وكان يقال لها الوزارة الصغرى ، وصاحبها في المعنى يقرب من النائب الكافل في زماننا ، وهو الذي ينظر في المظالم اذا لم يكن وزيرٌ صاحبُ سيف ، فإن كان ثَمَّ وزيرٌ صاحب سيف ، كان هو الذي يجلس للمظالم بنفسه ، وصاحبُ الباب من جملة مَنْ يقف في خِدْمته .

الوظيفة الثالثة : « الأسفهسلارية» . قال ابن الطوير : وصاحبها زِمام كل زِمَام ، وإليه أمر الأجناد والتحدّث فيهم ، وفي خدمته وخدمة صاحب الباب تقف الحُجاب على اختلاف طبقاتهم .

الوظيفة الرابعة : « حَمْل المِظَلّة » في المواسم العِظام : كركوب رأس العام ونحوه . وهي من الوظائف العِظام ، وصاحبها يسمّى حاملَ المظلة . وهو أمير جليل ، وله عندهم التقدّم والرفعة ، لحمل ما يعلو رأس الخليفة .

الوظيفة الخامسة : « حَمْل سيف الخليفة » في المواكب التي تحمل فيها المظلة ، ويعبر عن صاحبها بحامل السيف .

الوظيفة السادسة : « حَمْل رُمْح الخليفة » في المواكب التي تحمل فيها المظلة . وهو رمح صغير يحمل مع الخليفة في المواكب ، وصاحبها يعبر عنه بحامل الرمح .

الوظيفة السابعة : « حَمْل السِّلاح » حول الخليفة في المواكب . وأصحاب هذه الوظيفة يعبر عنهم لزيهم بالركابية وبِصِبْيان الركاب الخاص أيضاً ، وهم الذين يعبر عنهم في زماننا بالسِّلاح دارية والطّبردارية ، وكانت

عدّتهم تزيد على ألفَي رجل . ولهم اثنا عَشَر متقدّما ، وهم أصحاب ركاب الخليفة . ولهم نُقَبَاءُ موكّلون بمعرفتهم ، والأكابر من هؤلاء الرّكابية تندب في الأشغال السلطانية ، وإذا دخلوا عملاً كان لهم فيه الصِّيتُ المرتفع .

الوظيفة الثامنة : « وِلاَية القاهرة » . وكان لصاحبها عندهم الرتبة الجليلة والحُرْمة الوافرة ، وله مكان في الموكب يسير فيه .

الوظيفة التاسعة : « ولاية مصر » . وهي دون ولاية القاهرة في الرتبة كما هي الآن : إلا أن مصر كانت إذ ذاك عامرةً آهلةً : فكان مقدارها أرفع مما هي عليه في زماننا .

* * *

النوع الثاني

وظائف خواصّ الخليفة من الأستاذِين : وهي عدّة وظائف ؛ وهي على ضربين :

الضرب الأول

مايختص بالأستاذين المحنّكِين ، وهي تسع وظائف :

الأولى : « شدّ التاج » . وموضوعها أن صاحبَها

يتولّى شدّ تاج الخليفة الذي يلْبسه في المواكب العظيمة بمثابة اللّفّاف في زماننا ، وله ميزَةٌ على غيره بلمسه التاجَ الذي يعلو رأس الخليفة ، وكان لشَدّه عندهم ترتيب خاص لايعرفه كل أحد ، يأتي به في هيئة مستطيلة ، ويكون شدّه بمنديل من لون لبس الخليفة ، ويعبَّر عن هذه الشدّة بشدّة الوَقَارِ كما تقدّم .

الثانية : وظيفة « صاحب المجلس » . وهو الذي يتولّى أمر المجلس الذي يجلس فيه الجلوسَ العامّ في المواكب ، ويخرج إلى الوزير والأمراء بعد جلوس الخليفة على سرير الملك يُعْلمهم بذلك ، وينعت (**بأمين الملك**) ، وهو بمثابة أمير خازندار في زماننا .

الثالثة : وظيفة « صاحب الرسالة » . وهو الذي يخرج برسالة الخليفة إلى الوزير وغيره .

الرابعة : وظيفة « زِمَام القُصُور » . وهو بمثابة زِمَام الدُّور في زماننا .

الخامسة : وظيفة « صاحب بيت المال » . وهو بمثابة الخازندار في زماننا .

السادسة : وظيفة « صاحب الدفتر » المعروف بدفتر المجلس . وهو المتحدّث على الدواوين الجامعة لأمور الخلافة .

السابعة : وظيفة « حامل الدواة » . وهي دواة الخليفة المتقدّم ذكرها ، وصاحب هذه الوظيفة يحمل الدواة المذكورة قدّامه على السّرْج ويسير بها في المواكب .

الثامنة : وظيفة « زمّ الأقارب » . وصاحبها يحكم على طائفة الأشراف الذين هم أقارب الخليفة وكلمته نافذة فيهم .

التاسعة : « زمّ الرجال » . وهو الذي يتولى أمر طعام الخليفة كأستادار الصحبة .

* * *

الضرب الثاني

مايكون من غير المحنّكين ، ومن مشهوره وظيفتان :

الأولى : « نِقَابة الطالبيِّين » . وهي بمثابة نِقَابة الأشراف الآن ، ولا يكون إلا من شيوخ هذه الطائفة

وأجَلّهم قَدْراً ؛ وله النظر في أمورهم ، ومنع من يدخل فيهم من الأدعياء ؛ وإذا ارتاب بأحد أخذه بإثبات نَسَبه وعليه أن يعود مرضاهم ، ويمشيَ في جنائزهم ، ويسعى في حوائجهم ، ويأخذ على يد المعتدي منهم ، ويمنعه من الاعتداء ، •لا يَقْطَع أمراً من الأمور المتعلقة بهم إلا بموافقة مشايخهم ونحو ذلك .

الوظيفة الثانية : « زم الرجال » . وصاحبها يتحدّث على طوائف الرجال والأجناد كزّم صِبْيان الحُجَر ، وزمّ الطائفة الآمرية والطائفة الحافظية ، وزمّ السودان وغير ذلك ؛ وهو بمثابة مقدّم المماليك في زماننا .

* * *

الصنف الثاني

من أرباب الوظائف بحضرة الخليفة : أربابُ الأقلام ، وهم على ثلاثة أنواع :

النوع الأول

أرباب الوظائف الدينية ، والمشهور منهم ستة :

الأوّل : « قاضي القضاة » . وهو عندهم من أجلّ

أرباب الوظائف وأعلاهم شأناً وأرفعهم قدراً . قال ابن الطوير : ولا يتقدّم عليه أحد أو يحتمي عليه ، وله النظر في الأحكام الشرعية ودُور الضّرْبِ وضبطِ عيارها ، وربما جُمِع قضاءُ الديار المصرية وأجنادُ الشأم وبلاد المغرب لقاضٍ واحد ، وكتب له به عهدٌ واحد كما سيأتي في الكلام على الولايات إن شاء الله تعالى .

ثم إن كان الوزير صاحب سيفٍ ، كان تقليدُه من قِبَلِهِ نيابة عنه ، وإن لم يكن ، كان تقليده من الخليفة .

ويقدّم له من إصطبلات الخليفة بغلةٌ شهباء يركبها دائماً ، وهو مختص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة . ويخرج له من خِزانة السروج مركب ثقيل وسرج برادفتين من الفضة ، وفي المواسم الأطواقُ ، وتُخلَع عليه الخلع المُذْهَبَةُ ؛ وكان من مصطلحهم أنه لايعدّل شاهداً إلا بأمر الخليفة ، ولا يحضرُ إملاكاً ولا جنازةً إلا بإذن ، وإذا كان ثَمَّ وزيرٌ لايخاطب بقاضي القضاة لأن ذلك من نعوت الوزير ؛ ويجلس يوم

الاثنين والخميس بالقصر أوّل النهار للسلام على الخليفة ، ويوم السبت والثلاثاء يجلس بزيادة الجامع العتيق بمصر ، وله طَرْحة ومسند للجلوس وكُرسيّ توضع عليه دواتُه . وإذا جلس بالمجلس ، جلس الشهود حوالَيْه يَمْنَةً ويَسْرَةً على مراتبهم في تقدّم تعديلهم . قال ابن الطوير : حتّى يجلس الشابُّ المتقدّمُ التعديلِ أعلى من الشيخ المتأخر التعديلِ ، وبين يديه أربعة موقعون : اثنان مقابل اثنين ، وببابه خمسة حُجّاب : اثنان بين يديه واثنان على باب المقصورة وواحد ينفذ الخصوم . ولا يقوم لأحد وهو في مجلس الحكم البتةَ .

الثاني : « داعي الدُّعاة » . وكان عندهم يلي قاضيَ القضاة في الرتبة ويتزيا بزيه في اللباس وغيره . وموضوعه عندهم أنه يقرأ عليه مذاهب أهل البيت بدار تعرف بدار العلم ، ويأخذ العهد على من ينتقل إلى مذهبهم .

الثالث : « المحتسب » . وكان عندهم من وجوه العُدُول وأعيانهم ، وكان من شأنه أنه إذا خلع عليه قرىء سجلُّه بمصر والقاهرة على المنبر ؛ ويده مُطْلَقَةٌ

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قاعدة الحِسْبة ؛ ولا يُحَال بينه وبين مصلحة أرادها ؛ ويتقدّم إلى الوُلاة بالشدّ منه ، ويقيم النوّاب عنه بالقاهرة ومصر وجميع الأعمال كنوّاب الحكم ؛ ويجلس بجامعي القاهرة ومصر يوماً بيوم ، وباقي أمره على ما الحال عليه الآن .

قلت : ورأيت في بعض سجلاتهم إضافة الحسبة بمصر والقاهرة إلى صاحبي الشُّرطة بهما أحياناً .

الرابع : « وكالة بيت المال » . وكانت هذه الوكالة لاتُسنَد إلا لذوي الهيبة من شيوخ العدول ، ويفوّض إليه عن الخليفة بيعُ مايرى بيعه من كل صنف يملك ويجوز التصرف فيه شرعاً ، وعتقُ المماليك ، وتزويجُ الإماء ، وتضمين مايقتضي الضمان ، وابتياعُ مايرى ابتياعه ، وإنشاء مايرى إنشاءه من البناء والمراكب وغير ذلك مما يحتاج إليه في التصرف عن الخليفة .

الخامس : « النائب » . والمراد نائب صاحب الباب المتقدّم ذكره المعبّر عنه في زماننا بالمهسندار . قال ابن الطوير : ويعبّر عن هذه النيابة بالنيابة الشريفة . قال : وهي

رتبة جليلة ، يتولاها أعيان العدول وأرباب الأقلام ؛ وصاحبها ينوب عن صاحب الباب في تَلَقِّي الرُّسُل الواردين على الخليفة على مسافة وقفة نُوّاب الباب في خدمته ، ويُنْزِل كلا منهم في المكان اللائق به ، ويرتِّب لهم مايحتاجون إليه ، ولا يمكِّن أحداً من الاجتماع بهم ، ويتولّى افتقادهم ، ويُذَكّر صاحب الباب بهم . ويسعَى في نَجَاز أمرهم ، وهو الذي يسلِّم بهم على الخليفة أو الوزير ويتقدّمهم ويستأذن عليهم ، ويدخل الرسول وصاحبُ الباب قابضٌ على يده اليمنّى ، والنائب قابض على يده اليسرى فيحفظ مايقولون وما يقال لهم ، ويجتهد في انفصالهم على أحسن الوجوه ، وإذا غاب أقام عنه نائباً إلى أن يعود . ومن شريطته أنه لا يتناول من أحد من الرسل تقدمةً ولا طُرْفة إلا باذن .

قال ابن الطوير : وهو المسمّى الآن بالمهمندار ، وسيأتي في الكلام على ترتيب المملكة المستقرّ أن المِهْمَندار الآن من أصحاب السيوف ، وكأنّ ذلك لموافقة الدولة في اللسان والهيئة .

السادس : « القُرّاء » . وكان لهم قراء يقرؤن بحضرة الخليفة في مجالسه وركوبه في المواكب وغير ذلك ، وكان يقال لهم « قراء الحضرة » يزيدون في العدّة على عشرة نَفَرٍ ، وكانوا يأتون في قراءتهم في المجالس ومواكب الركوب بآيات مناسبة للحال بأدنى ملابسة ؛ قد أَلِفُوا ذلك وصار سهلَ الاستحضار عليهم . وكان ذاك يقع منهم موقعَ الاستحسان عند الخليفة والحاضرين ، حتّى إنه يحكى أن بعض الخلفاء غَضِب على أمير فأمر باعتقاله ؛ فقرأ قارىء الحضرة : ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ فاستحسن ذلك وأطلقه ، إلا أنهم كانوا ربما أتوا بآيات إذا رُوعِيَ قصدُهم فيها ، أخرجت القرءان عن معناه : كما يحكى أنه لما استُوزِر المستنصر بدر الجماليّ قرأ قارئهم : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُم أَذِلّةٌ﴾ ولما استُوزِر الحافظ رضوان قرأ قارئهم : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ ورِضْوَان﴾ إلى غير ذلك من الوقائع .

النوع الثاني

من أرباب الأقلام أصحاب الوظائف الديوانية ، وهي على أربعة أضرب :

الضرب الأوّل .

الوزارة إذا كان الوزير صاحبَ قلم

اعلم أن أكثر وزرائهم في ابتداء دولتهم إلى أثناء خلافة المستنصر كانوا من أرباب الأقلام : تارةً وزارة تامة وتارة وَسَاطة ، وهي رتبة دون الوِزَارة ؛ وممن اشتهر من وزرائهم أربابِ الأقلام فيما ذكره ابن الطوير : يعقوب بن كِلِّس وزير العزيز ، والحسنُ بن عبد الله اليازُوريّ وزير المستنصر ؛ وأبو سعيد التُّستَريّ ، والجَرْجَرَاني (١) ، وابن أبي كدينة ، وأبو الطاهر

(١) كذا في كتاب(الاشارة إلى من نال الوزارة) لابن الصيرفي المصري ومعجم البلدان لياقوت . نسبة إلى جرجرايات : بلد من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي . وفي الأصل : « الجرجاني » وهو تحريف .

أحمد بن بابشاذ صاحب المقدّمة في النحو ، ووزير الوزراء عليّ بن فلاح . والمَغْربي وزير المستنصر ، وهو آخر من وُزّر لهم من أصحاب الأقلام ؛ وعليه قدّم أمير الجيوش بدرٌ الجماليّ فوُزّرَ للمستنصر على ماتقدّم ذكره ؛ وربما تخلل تلك المدّة الأولى في الوَسَاطة أربابُ السيوف ، كبرْجَوان الخادم ، وقائد القوّاد الحسين بن جوهر ، وثِقَةُ ثقات السيف والقلم عليّ بن صالح كلهم في أيام الحاكم . وربما وَلِيَ الوساطةَ بعضُ النصارى ، كعيسى بن نسطورس في أيام العزيز ، ومنصور بن عَبْدُون الملقب بالكافي ، وزرعة بن نسطورس الملقب بالشافي ، كلاهما في أيام الحاكم . وربما كان الأمر شُورى في أهل المروادني (١) ؛ وكان من زِيِّ وزرائهم أصحابِ الأقلام أنهم يَلْبَسون المناديل الطبقيات بالأحناك تحت حلوقهم كالعدْول ، وينفردون بلُبْس الدراريع مشقوقةً من النحر إلى أسفل الصدر بأزرار وعُرًى ؛ وهذه علامة الوزارة ؛ ومنهم من تكون أزراره من ذهب مشبك ، ومنهم من تكون أزراره من لؤلؤ ؛ وعادته أن تحمل

(١) كذا في الأصل مضبباً عليه اشارة التوقف ولعله المروءات .

له الدواة المحلاة بالذهب من خزانة الخليفة ويقف بين يديه الحُجّاب . وأمرُه نافذ في أرباب السيوف من الأجناد ، وفي أرباب الأقلام .

* * *

الضرب الثاني

ديوان الإنشاء وكان يتعلق به عندهم ثلاث وظائف :

الأولى : « صَحَابة ديوان الانشاء والمكاتَبَات » وكان لايتولاّه إلا أجلُّ كتّاب البلاغة ، ويخاطب بالأجلّ وكان يقال له عندهم كاتب الدَّسْت الشريف ، وإليه تسلّم المكاتبات الواردة مختومةً فَيَعْرِضها على الخليفة من يده ، وهو الذي يأمر بتنزيلها والإجابة عنها ؛ ويستشيره الخليفة في أكثر أموره ؛ ولا يُحْجب عنه متى قصد المثولَ بين يديه ، وربما بات عنده الليالي ، ولا سبيل إلى أن يدخل إلى ديوانه ولا يجتمع بكُتّابه أحدٌ إلا خواصّ الخليفة . وله حاجب من أمراء الشيوخ ؛ وله مرتبة عظيمة للجلوس عليها بالمخَادّ والمسند ، ودواته من أخصّ الدُّوِيّ وأحسنها إلا أنه ليس لها كرسي توضع عليه

كدواة قاضي القضاة . ويحملها له أستاذ من الأستاذين المختصين بالخليفة إذا أتى إلى حضرته .

الثانية : « التوقيع بالقلم الدقيق في المظالم » وهي رُتْبة جليلة تلي رتبة صاحب ديوان الإنشاء والمكاتبات ، يكون صاحبها جليساً للخليفة في أكثر أيام الأسبوع في خلوته ، يذاكره مايحتاج إليه من كتاب الله تعالى أو أخبار الأنبياء والخلفاء الماضين ، ويقرأ عليه مُلَح السِّير ، ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق ، ويقوّي يده في تجويد الخط وغير ذلك . وصُحْبَته للجلوس دواة مُحَلاّة ، فإذا فرغ من المجالسة ألقى في الدواة كاغَدَة فيها عشرة دنانير ، وقرْطاسٌ فيه ثلاثة مثاقيل ندّ مثلّث خاصّ ليتبخر به عند دخوله على الخليفة ثاني دَفْعة . وإذا جلس الوزير صاحب السيف للمظالم ، كان إلى جانبه يوقِّع بما يأمر به في المظالم . وله موضعٌ من حقوق ديوان المكاتبات لايدخل إليه أحد إلا بإذن ، وفرّاش لتقديم القصص ؛ ويرفع إليه هناك قصص المظالم فيوقِّع عليها بما يقتضيه الحال كما يفعل كاتب السر الآن .

الثالثة: « التوقيع بالقلم الجليل » وكان يسمّى عندهم الخدمة الصغيرة لجلالتها ، ولصاحبها الطرّاحة والمسند في مجلسه بغير حاجب . وموضوعها الكتابة بتنفيذ مايوقّع به صاحب القلم الدقيق وبسطه . وصاحب القلم الدقيق في المعنى ككاتب السر أو كاتب الدّسْت في زماننا ، وصاحب القلم الجليل ككاتب الدّرْج . فاذا رفعت قِصَص المظالم ، حملت إلى صاحب القلم الدقيق فيوقّع عليها بما يقتضيه الحال بأمر الخليفة أو أمر الوزير أو من نفسه ، ثم تحمل إلى الموقّع بالقلم الجليل لبسط ماأشار إليه صاحب القلم الدقيق ، ثم تحمل في خريطة إلى الخليفة فيوقّع عليها ، ثم تُخرَج في خريطتها إلى الحاجب فيقف على باب القصر ، ويسلّم كلّ توقيع لصاحبه . أمّا توقيع الخليفة بيده على القِصَص ، فإنه إن كان ثَمّ وزيرٌ صاحبُ سيف وقّع الخليفة على القصة بخطه : « وزيرنا السيد الأجل (ونعته المعروف به) أمتعنا الله تعالى ببقائه يتقدّم بكذا وكذا إن شاء الله تعالى » ويحمل إلى الوزير فإن كان يحسن الكتابة ، كتب تحت خط الخليفة : « أمتثل أمر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله

عليه » وإن كان لايحسن الكتابة ، كتب (أمتثل) فقط وإن لم يكن وزيرٌ صاحبُ سيف : فان أراد الخليفة نَجاز الأمر لوقته ، وقّع في الجانب الأيمن من القصة « يوقِّع بذلك » فتخرج إلى صاحب الديوان المجلس فيوقِّع عليها بالقلم الجليل ويخلّي موضع العلامة ، ثم تعاد إلى الخليفة فيكتب في موضع العلامة (يُعْتَمد) وثبت في الدواوين بعد ذلك . وإن كان يوقع في مساحة أو تسويغ أو تحبيس ، كتب لرافعها بذلك « وقد أمضينا ذلك » وإن أراد علم حقيقة القصة ، وقّع على جانب القصة « ليخرج الحال في ذلك » وتحمل إلى الكاتب فيكتب الحال وتعاد إلى الخليفة فيفعل فيها ما أراد من توقيع ومنع ، والله أعلم .

* * *

الضرب الثالث

ديوان الجيش والرواتب ، وهو على ثلاثة أقسام :

الأوّل : « ديوان الجيش » . ولا يكون صاحبه إلا مُسْلِماً ، وله الرتبة الجليلة والمكانة الرفيعة ؛ وبين يديه

حاجبٌ ، وإليه عَرْض الأجناد وخيولهم . وذكر حِلاّهم وشِيات خيولهم . وكان من شرط هذا الديوان عندهم ألا يثبت لأحد من الأجناد إلا الفَرَس الجيد من ذكور الخيل وإناثها دون البغال والبراذين ، وليس له تغيير أحد من الأجناد ولا شيء من إقطاعهم إلا بمرسوم . وبين يدي صاحب هذا الديوان نُقَبَاء الأمراء ، يُعَرِّفونه أحوال الأجناد من الحياة والموتِ والغَيْبة والحضور وغير ذلك ، على ما الحال عليه الآن ، وكان قد فسح للأجناد في المقايضة بالإقطاعات لما لهم في ذلك من المصالح كما هو اليوم ، بتوقيعات من صاحب ديوان المجلس من غير علامة ؛ ولم يكن لأمير من أمرائهم بلد كاملة ، وإن علا قدرُه إلا في النادر . ومن هذا الديوان كان يعمل أوراق أرباب الجرايات ، وله خازنان برسم رفع الشواهد .

الثاني : « ديوان الرواتب » . وكان يشتمل على اسم كل مرتزق في الدولة وجارٍ وجِراية ؛ وفيه كاتب أصيل بطرّاحة ونحو عشرة مُعينين ، والتعريفات واردة عليه من كل عمل باستمرار مَنْ هو مستمرّ ، مباشرة

مَن استجدّ وموت مَنْ مات . وفيه عدّة عروض يأتي ذكرها في الكلام على إجراء الأرزاق والعطاء .

الثالث : « ديوان الإقطاع » . وكان مختصاً عندهم بما هو مُقْطَع للأجناد ، وليس للمباشرين فيه تنزيل حلْية جُنْدِي ولا شِية دابته ، وكان يقال لإقطاعات العُرْبان في أطراف البلاد وغيرها الاعتداد ، وهي دون عبرة الأجناد .

* * *

الضرب الرابع

نظر الدواوين

وصاحب هذه الوظيفة هو رأس الكل ، وله الولاية والعزل ، وإليه عَرْضُ الأرزاق في أوقات معروفة على الخليفة والوزير ، وله الجلوس بالمرتبّة والمسند ، وبين يديه حاجب من أمراء الدولة ؛ وتُخْرج له الدواة من خزانة الخليفة بغير كرسيّ ، وإليه طلب الأموال واستخراجُها والمحاسبةُ عليها ، ولا يعترض فيما يقصده من أحد من الدولة . قال ابن الطوير : ولم يُر في هذه الوظيفة نصراني إلا الأخرم .

الثانية (١) : « ديوان التحقيق » . وموضوعه المقابلة على الدواوين ، وكان لا يتولاه إلا كاتب خبير ، وله الخِلَعُ ومَرْتبة يجلس عليها وحاجب بين يديه ، ويُفْتَقَر إليه في كثير من الأوقات ، ويُلْحَق برأس الدواوين المتقدّم ذكره .

الثالثة : « ديوان المَجْلِس » . قال ابن الطوير : هو أصل الدواوين قديماً ، وفيه معالم الدولة بأجمعها ، وفيه عِدّة كُتّاب ، وعنده مُعِين أو معينان ، وصاحب هذا الديوان هو المتحدّث في الإقطاعات ، ويُخْلَع عليه وينشأ له سجلٌ بذلك لاحق بديوان النظر ، وله دواة تُخْرَج له من خِزانة الخليفة ،وحاجب يقف بين يديه ، وكان يتولاه عندهم أحد كُتّاب الدولة ممن يكون مترشحاً لأن يكون رأس الدواوين ، ويسمى استيمارُه دفتر المجلس ، وهو متضمن للعطاء والظاهرِ من الرسوم التي تقرّر في غُرَّةِ السنة والضحايا ، وما

---

(١) لم يتقدم له تقسيم ولم يذكر أولى لتكون هذه ثانيتها والذي يفهم من المقام أنها وظائف وأن وظيفة نظر الدواوين أولى ونظر ديوان التحقيق ثانية . وهكذا تأمل .

يتفق في دار الفِطرة في عيد الفطر ، وفي فتح الخليج والأسمطة المستعملة في رمضان وغيره ، وسائر المآكل والمشارب والتشريفات ، وما يطلَقُ من الأهراء من الغَلاّت ، وما لأولاد الخليفة وأقاربه وأرباب الرواتب على اختلاف الطبقات من المُرتّب ، وما يَرِد من الملوك من الهدايا والتحف ، وما يُبْعَثُ به إليهم من الملاطفات ، ومقاديرُ صِلات الرسل الواردين بالمكاتبات ، وما يخرج من الأكفان لمن يموت من الحريم ؛ وضبط مايُنْفَق في الدولة من المهمّات ليُعْلَم مابين السنة والأخرى من التفاوت.وغير ذلك من الأمور المهمة . وهذا الديوان في زماننا قد تفرّق إلى عدّة دواوين كالوزارة ونظر الخاص والجيش وغيرها .

الرابعة : « ديوان خزائن الكُسْوة » . وكان لها عندهم رتبة عظيمة في المباشرات . وقد تقدّم ذكر حواصلها في جملة الخزائن فيما سبق .

الخامسة : « الطِّراز » . وكان يتولاه الأعيان من المستخدمين ، من أرباب الأقلام ، وله اختصاص بالخليفة

دون كافة المستخدمين ، ومُقَامه بدِمْياطَ وتِنّيسَ وغيرهما من مواضع الاستعمالات ؛ ومن عنده تحمل المستعملات إلى خِزَانة الكسوة المقدّمة الذكر .

السادسة : « الخدمة في ديوان الأحباس » قال ابن الطوير : وهي أوكد الدواوين مباشرة ولا يخدُم فيها إلا أعيان كُتّاب المسلمين من الشهود المعدّلين ، وفيها عدّة مُدَرَاء (١) بسبب أرباب الرواتب ، وكان فيه كاتبان ومُعينان لنظم الاستيمارات ، ويُورد في استيماره كل مافي الرقاع والرواتب ، وما يُجْبى له من جهات كل من الوجهين القبليّ والبحريّ .

السابعة : « الخدمة بديوان الرواتب » . وفيه مرتّبات الوزير فمن دُونَه إلى الضوّي.قال ابن الطوير : بلغ في بعض السنين مايزيد على مائة ألف دينار ونحواً من مائتي ألف ، ومن القمح والشعير عشرة آلاف إردب ، وكان استيمار الرواتب يعرض في كل سنة على الخليفة فيزيد من يزيد ، وينقص مَنْ ينقص ، وإنه عُرِض سنةَ

(١) كذا أوردها القلقشندي والقياس أن يقول : عدة مديرين

على المستنصر بالله فلم يعترض أحداً من المرتّبين بنقص ، ووقّع على ظاهر الاستيمار بخطه « الفقر مُرُّ المَذَاق ، والحَاجَةُ تُذِلُ الأعْنَاق . وحِرَاسَةُ النِّعم بإدْرَار الأرزاق . فلْيُجرَوا على رسومهم في الإطلاق . مَا عِندكم يَنْفَدُ ، وَمَا عِنْدَ الله باقٍ » وأمر وليّ الدولة ابن خيران كاتب الإنشاء بامضاء ذلك .

الثامنة : « الخدمة في ديوان الصعيد » من الصعيد الأعلى والصعيد الأدنى . وكان فيه عدة كُتّاب فروع ، والاستيفاء مقسومٌ بينهم ، وعليهم عمل التذاكر بطلب ما تأخر من الحساب . وصاحب هذا الديوان يترجمها بخطه ، ويحملها إلى صاحب الديوان الكبير فيوقِّع عليها بالاسترفاع ، وينْدُب لها من الحُجّاب أو غيرهم من يراه . وله مياومة يأخذها من المستخدمين مدّة بقائه عندهم ويُحْضِرُها نُسَخاً للدّواوين الأصول .

التاسعة : « الخدمة في ديوان أسفل الأرض » . وهو الوجه البحريُّ خلا الثُّغُورَ ، وحكمه فيما تقدم من الكُتّاب وما يلزم كلاً منهم حكم ديوان الصعيد المتقدّم الذكر من غير فرق .

العاشرة : « الخدمة في ديوان الثُّغُور » . وهي الإسكندرية ودِمْياط ونَسْتَرُوه والبَرَلُّس والفَرَما . وحكمه حكم ماتقدّم من ديوان الصعيد وأسفل الأرض .

الحادية عشرة : « الخدمة في الجوالي والمواريث الحشرية » . قال ابن الطوير : كان لايتولاه إلا عدل ، وفيه جماعة من الكُتّاب على ماتقدّم في غيره من الدواوين أيضاً .

الثانية عشرة : « الخدمة في ديواني الخراجيّ والهلاليّ » وتجري فيه الرباع والمكوس وعليه حوالات أكثر المرتزقين.

الثالثة عشرة : « الخدمة في ديوان الكُرَاع » . وفيه معاملة الإصطبلات ، وما فيها من الدوابّ الخاص وغيرها والبغال والجمال ودوابّ المَرَمّة المُرصَدة للعمائر ورباع الديوان ، وعُدَد ذلك وآلاته ، وعلوفات ذلك مع ماينضم إليه من علوفة الفِيَلَةِ والزَّرَارِيف (١) والوحوش ورواتب

(١) لم نعثر على هذا الجمع في كتب اللغة ولعله جارى العامة في تعبيراتهم .

مَنْ يخدمها . وكان في هذا الديوان كاتباً أصل ومستوفٍ ومُعينان .

الرابعة عشرة : « الخدمة في ديوان الجِهَاد » . ويقال له ديوان العمائر ، وكان محله بالصِّناعة (١) بمصر . وفيه إنشاء المراكب للأسطول وحمل الغلال السلطانية والأحطاب وغيرها ، ومنه يُنْفَق على رؤساء المراكب ورجالها . وإذا لم يف ارتفاقه بما يحتاج إليه استُدْعِيَ له من بيت المال بما يكفيه .

* * *

الصنف الثالث من أرباب الوظائف

أصحاب الوظائف الصناعية

وأعظمها وظائف الأطباء ، وكان للخليفة طبيب يُعْرَف بطبيب الخاصّ يجلس على باب دار الخليفة كلّ يوم ، ويجلس على الدكك التي بالقاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر . دونَهُ أربعةُ أطباء أو ثلاثة فيخرج الأستاذون

(١) المراد بها دار الصناعة التي كانت تنشأ بها المراكب الحربية والأساطيل بمصر القديمة بالساحل القديم .

فيستدعون منهم من يجدونه للدخول على المرضى بالقصر لجهات الأقارب والخواص فيكتب لهم رقاعاً على خزانة الشراب فيأخذون مافيها ، وتبقى الرقاع عند مباشريها شاهداً لهم . ولكل منهم الجاري والراتب على قدره .

* * *

الصنف الرابع

الشعراء

وكانوا جماعة كثيرة من أهل ديوان الإنشاء وغيره ، وكان منهم أهل سُنّة لايغلون في المديح ؛ وشيعةٌ يَغْلُون فيه . فمِنْ أَحْسَنِ مدحٍ فيهم لِسُنّيٍ قول عُمارة اليمني رحمه الله :

أفَاعِيلُهُمْ في الجُودِ أَفْعَالُ سُنَّةٍ
وإن خَالَفُونِي في اعْتِقَادِ التَّشَيُّعِ

ومن الذي وقعت فيه المغالاة قول بعضهم (١)

---

(١) هذان البيتان من قصيدة لابن هانىء الأندلسي يمدح بها المعز طمعاً في صلاته وعطاياه .

هَـذَا أميرُ المؤمنين بمجلس
أبْصَرْتُ فيهِ الوَحْيَ والتّنْزِيلا
وإذا تَمَثَّلَ رَاكِباً في مَوْكِبٍ
عَايَنْتَ تَحْتَ رِكَابِهِ جِبْرِيلاَ

قلت : وهذه المغالاة من المغالاة الفاحشة الّتي لايجوز الإقدام عليها لسنيّ ولا متشيِّع ، وإنما هي من اقتحام الشعراء البوائق .

القسم الثاني

من أرباب الوظائف بالدولة الفاطمية ماهو خارج
عن حضرة الخلافة ، وهو صنفان :

الصنف الأول

النُّوّاب والوُلاة

واعلم أن مملكتهم كانت قد انحصرت في ثلاث ممالك فيها نوّابهم ووُلاتَهم : المملكة الأولى « الديار المصرية » وهي الّتي كانت قد استقرّت قاعدةَ ملكهم ، ومحطَّ رحالهم ، وكان بها أربع ولايات :

الأولى : « ولاية قُوصَ » وكانت هي أعظم ولايات الديار المصرية . وواليها يحكم على جميع بلاد الصعيد ، وربما وُلِّيَ بالأشْمُونينِ ونحوها من يكون دونه .

الثانية : « ولاية الشّرْقية » وكانت دون ولاية قُوصَ في الرتبة ، وكان متوليها يحكم على عمل بِلْبِيْسَ وعمل قَلْيُوب وعمل أشْمُوم .

الثالثة : « ولاية الغربية » وكانت دون ولاية الشرقية في المرتبة ، وكان متوليها يحكم على عمل المَحَلّة ، وعمل مَنُوفَ . وعمل أبيار .

الرابعة : « ولاية الاسْكَنْدَرِيّة » وهي دون الغربية في الرتبة ، وكان متوليها يحكم على أعمال البحيرة بأجمعها .

قال ابن الطوير : وهؤلاء الأربعة كان يُخْلَع عليهم من خزانة الكُسْوَة بالبدنة ، وهو النوع الذي يلبسه الخليفة في يوم فتح الخليج .

قلتُ : لعل هذه الولايات الأربع ولايات الولاة

التي تدخل تحت حكمها الولايات الصِّغار ؛ أو تكون هي التي استقرّ عليه الحال في آخر دولتهم ، وإلا فقد رأيت في تذكرة أبي الفضل الصوريّ ، أحدِ كُتّاب الإنشاء في أيام القاضي الفاضل سجلاتٍ كثيرةً لولاة الوجهين القبليّ والبحري (١) .

* * *

الجملة الخامسة

من ترتيب مملكتهم ، في هيئة الخليفة في مواكبه وقصوره ؛ وهي على ثلاثة أضرب :

الضرب الأوّل

جلوسه في المواكب ، وله ثلاثة جلسات :

الجلوس الأوّل :

جلوسه في المجلس العامّ أيام المواكب .

واعلم أن جلوس الخليفة أوّلا كان بالإيوان الكبير

---

(١) لم يذكر بقية الممالك الثلاث اقتصاراً على المقصود. وسيأتي ذكر البقية في الجزء الرابع .

الذي كان بالقصر على سرير المُلْك الذي كان بصدره إلى آخر أيام المستعلي . فلما ولي ابنه الآمر الخلافةَ بعده ، نقل الجُلوسَ من الإيوان الكبير إلى القاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر أيضاً ، وصار يجلس من مجالسها على سرير المُلْك به ، وجعل الإيوان الكبير خِزَانةً للسلاح ، ولم يتعرّض لإزالة سرير المُلْك منه حتّى جاءت الدولة الأيوبية ، وهو باقٍ . وكان جلوس الخليفة في هذه الحالة لايتعدّى يومي الاثنين والخميس ، وليس ذلك على الدوام بل على التقرير بحسب مايقتضيه الحال. فإذا أراد الجلوس ،فإن كان في الشتاء عُلِّق المجلس الذي يجلس فيه بستور الديباج ، وفُرِش بالبُسُط الحرير ، وإن كان في الصيف ، علق بالستور الدَّبيقية وفرش بطبري طَبَرِسْتَانَ المُذْهَبِ الفائق،وهيئت المرتبة المعدة لجلوسه على سرير الملك بصدر المجلس ، وغُشِّي السرير بالقُرْقُوبي ، ثم يُستدعى الوزيرُ من داره بصاحب الرسالة على حصان رهوان (١) في أسرع حركة على خلاف الحركة

(١) يدرب على هذا النوع من السير .

المعتادة ، فيركب الوزير في هيئته وجماعته وبين يديه الأمراء ، فإذا وصل إلى باب القصر ترجّل الأمراء ، وهو راكب إلى أوّل بابٍ من الدّهاليز الطّوال عند دِهْليز يعرف بدِهْليز العمود ، ويمشي وبين يديه أكابر الأمراء إلى مَقْطَع الوزارة بقاعة الذهب ، فإذا تهيأ جلوس الخليفة ، استدعي الوزير من مَقْطَع الوزارة إلى باب المجلس الذي فيه الخليفة وهو مُغْلَق ، وعلى بابه سِتْرٌ مُغْلَق ، فيقف زِمَام القصر عن يمين باب المجلس ،وزِمَام بيت المال عن يساره ؛ والوزير واقف أمام باب المجلس وحواليه الأمراء المطوّقون وأرباب الخِدَم الجليلة ، وفي خلال القوم قراء الحضرة ؛ ويضع صاحبُ المجلس الدواة مكانها من المرتبة أمام الخليفة ، ثم يخرج كم من أكمامه يعرف بفرد الكم ويشير إلى زِمَام القصر وزِمَام بيت المال الواقفين بباب المجلس ، فيرفع كل منهما جانب الستر فيظهر الخليفة جالساً على سرير الملك مستقبل القول بوجهه ، ويستفتح القرّاء بالقرآن ، ويدخل الوزير المجلس ويسلّم بعد دخوله ، ثم يُقَبّل يدي الخليفة

ورجليه ، ويتأخر مقدار ثلاثة أذرع ويقف ساعة زمانية ، ثم تُخْرَج له مِخَدّة عن الجانب الأيمن من الخليفة ويؤمر بالجلوس إليها ، ويقف الأمراء في أماكنهم المقرّرة لهم ، فصاحب الباب واسفهسلار من جانبي الباب يميناً ويساراً ، ويليهم من خارجه ملاصقاً للعتبة زِمَام الآمرية والحافظية وباقي الأمراء عَلى مراتبهم إلى آخر الرواق ،وهو إفريزٌ عالٍ عن أرض القاعة ، ثم أرباب القصب والعَمّاريّات يَمْنَةً ويَسْرَةً كذلك ، ثم الأماثل والأعيان من الأجناد المترشحين للتقدمة ، ويقف مستنداً بالقدر الذي يقابل باب المجلس نوّابُ الباب والحجابُ ، فاذا انتظم الأمر على ذلك ، فأوّل ماثل للخدمة بالسلام قاضي القضاة والشهودُ المعروفون بالاستخدام فيجيز صاحبُ الباب القاضي دون من معه فيسلم على الخليفة بأدب الخلافة ، بأن يرفع يده اليمنى ويشير بالمسبحة ، ويقول بصوت مسموع : « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » يتخصص بهذا الكلام دون غيره من أهل السلام ، ثم يسلّم بالأشراف الأقارب زمامُهُمْ ، وبالأشراف الطالبيين نقيبهم ، فتمضي عليهم كذلك ساعتان زمانيتان أو ثلاثٌ ،

ثم يسلّم عليه من خُلعَ عليه بقَوص َ أو الشرقية أو الغربية أو الإسكندرية ، ويشرّفون بتقبيل العتبة . وإذا دعت حاجة الوزير إلى مخاطبة الخليفة في أمر ، قام من مكانه وقَرَّب منه مُنْحَنياً على سيفه ويخاطبه مرة أو مرتين أو ثلاثاً ، ثم يأمر الحاضرين بالانصراف فينصرفون ، ويكون آخرهم خروجاً الوزير بعد تقبيل يد الخليفة ورجله . فإذا خرج إلى الدهليز الذي ترجل فيه ، ركب منه إلى داره ، وفي خدمته من حضر في خدمته إلى القصر ، ويدخل الخليفةُ إلى سكنه مع خواصّ الأستاذين ، ثم يُغْلَق باب المجلس ويرخى الستر إلى أن يحتاج إلى حضور موكب آخر فيكون الأمر كذلك .

* * *

الجلوس الثاني

جلوسه للقاضي والشهود في ليالي الوقود الأربع من كل سنة

وهي : ليلة أوّل رجب ؛ وليلة نصفه ؛ وليلة أوّل شعبان ، وليلة نصفه .

إذا مضى النصف من جمادى الآخرة حمل إلى القاضي من حواصل الخليفة ستون شمعة ، زنَةُ كل شمعة منها سُدْس قِنْطَار بالمصري ليركب بها أوّل ليلة من شهر رجب ؛ فإذا كان أوّل ليلة منه جلس الخليفة في مَنْظَرة عالية كانت عند باب الزُّمُرُّد من أبواب القصر المتقدّم ذكره ، وبين يديه شَمع يوقد في العلُوّ يتَبيَّن شخصُه على ارتفاعه . ويركب القاضي من داره بعد صلاة المغرب وبين يديه الشَمعُ المحمول إليه من خزَانة الخليفة موقوداً من كل جانب ثلاثون شمعة ، وبين الصَّفّين مؤذنو الجوامع ، يعلنون بذكر الله تعالى ، ويدعون للخليفة والوزير بترتيب مقرّر محفوظ ،ويحجُبه ثلاثة من نوّاب الباب ، وعشرة من حُجّاب الخليفة ، خارجاً عن حُجّاب الحكم المستقرّين وهم خمسة في زيّ الأمراء ؛ وفي ركابه القُرّاء يقرءون القرآن ، والشهودُ وراءه على ترتيب جلوسهم بمجلس الحكم الأقدمُ فالأقدمُ ؛ وحول كل منهم ثلاث شَمَعات أو شمعتان أو شمعة واحدة إلى بين القصرين في جمع عظيم حتى يأتيَ باب الزُّمُرُّد من أبواب القصر ، فيجلسون في رَحبة تحت المَنْظَرة التي

فيها الخليفة ، ويحضر بين يديه بَسْمتٍ ووقار وتشوّف لانتظار ظهور الخليفة ، فيفتح الخليفة إحدى طاقات المنظرة فيظهر منها رأسه ووجهه ، وعلى رأسه عِدّة من خواص الأستاذين من المحنّكين وغيرهم ، فيفتح بعض الأستاذين طاقةً أخرى فيُخْرِجُ منها رأسه ويدَه اليمنى ، ويشير بكمه قائلا : « أمير المؤمنين يردّ عليكم السلام » فيسلم بقاضي القضاة أوّلا بنعوته ، وبصاحب الباب بعده كذلك ، وبالجماعة الباقية جملةً من غير تعيين أحد ؛ ويستفتح قرّاء الحضرة بالقراءة وهم قيام في الصَّدْر ، ظهورهم إلى حائط المَنْظَرة وَوجوههم للحاضرين . ثم يتقدّم خطيب الجامع الأنور ، وهو الذي بباب البحر . فيخطُب كما يخطب فوق المِنْبَر ، وينبه على فضيلة ذلك الشهر ، وأن ذلك الركوبَ علامتُه ثم يختم كلامه بالدعاء للخليفة ؛ ثم يتقدّم خطيب الجامع الأزهر ، ثم يتقدم خطيب جامع الحاكم فيخطب كذلك ، والقرّاء في خلال تلك الخطب يقرءون ، فإذا انتهت خطَابة الخطباء ، أخرج الأستاذ الأوّل يده من تلك الطاقة فيرد على الجماعة السلام ؛ ثم تغلق الطاقتان وينفضّ الناس ، ثم يركب القاضي والشهود إلى دار الوزير فيجلس لهم

ليسلموا عليه ، ويخطب الخطباء الثلاثة عنده بأخفّ من مقام الخليفة ويدعون له ، ثم ينصرفون ويذهب القاضي والشهود صحبتُه إلى مصر ، ووالي القاهرة في خدمته ، ويمرّ بجامع ابن طولون فيصلّي فيه ويخرج منه فيجد واليَ مصر في تَلَقّيه فيمضي في خِدْمته ، ويمر على المَشَاهد فيتبرك بها ، ويمضي إلى الجامع العتيق ويدخل من باب الزيادة التي يحكم فيها فيصلي في الجامع ركعتين ، ويُوقَد له التنّور الفضة الذي بالجامع ، وهو تَنّور عظيم حَسَن التكوين ، فيه نحو ألف وخمسمائة براقة ، وبسفله نحو مائة قنديل ؛ ثم يخرج من الجامع فإن كان ساكناً بمصر استقرّ بها ، وان كان ساكناً بالقاهرة انتظره والي القاهرة في مكانه حتى يعودَ من مصر فيذهب في خدمته إلى داره .

وكذلك يركب في ليلة الخامس عشر من رجب إلا أنه بعد صلاته في جامع مصر يتوجه إلى القَرافة فيصلّي في جامعها ؛ ثم يركب في أوّل شعبان كذلك ، ثم في نصفه كذلك .

* * *

الجلوس الثالث

جلوسه في مولد النبي صلّى الله عليه وسلم في الثاني عشر من شهر ربيع الأوّل .

وكان عادتهم فيه أن يعمل في دار الفِطرة عشرون قنطاراً من السُّكّر الفائق حَلْوى من طرائف الأصناف ، وتُعبّى في ثلاثمئة صينية نُحَاس . فإذا كان ليلةُ ذلك المولد ، تفرّق في أرباب الرسوم : كقاضي القضاة ، وداعي الدعاة ، وقرّاء الحضرة ، والخطباء ، والمتصدّرين بالجوامع بالقاهرة ومصر ، وقَوَمَةِ المشاهد وغيرهم ممن له اسم ثابت بالديوان . ويجلس الخليفة في مَنْظرة قريبة من الأرض مقابلَ الدار القُطْبِيّة المتقدّمة الذكر (وهي البيمارستان المنصوريّ الآن) ثم يركب القاضي بعد العصر ومعه الشهود إلى الجامع الأزهر ومعهم أرباب تفرقة الصواني المتقدّمة الذكر ، فيجلسون في الجامع مقدار قراءة الختمة الكريمة . وتُسدّ الطريق تحت القصر من جهة السُّيُوفيين وسُوَيقة أمير الجيوش ، ويكنس مابين ذلك ويُرَشّ بالماء رَشّاً ، ويرشّ تحت المَنْظَرة

بالرمل الأصفر ، ويقف صاحب الباب ووالي القاهرة على رأس الطرق لمنع المارة ، ثم يستدعي القاضي ومَن معه فيحضرون ويترجّلون على القرب من المنظرة ويجتمعون تحتها، وهم متشوّفون لانتظار ظهور الخليفة ، فيفتح إحدى طاقات المنظرة فيظهر منها وجهه . ثم يُخْرِجُ أحد الأستاذين المحنّكين يده ويشير بكمه بأن الخليفة يردّ عليكم السلام ، ويقرأ القرّاء ويخطب الخطباء كما تقدّم في ليالي الوَقُود فاذا انتهت خطَابة الخطباء ، أخرج الأستاذ يده مشيراً بردّ السلام كما تقدّم ، ثم تغلق الطاقتان وينصرف الناس إلى بيوتهم ؛ وكذلك شأنهم في مولد عليّ بن أبي طالب، كرم الله وجهه، الخاص في أوقات معلومة عندهم من السنة .

* * *

الضرب الثاني

ركوبه في المواكب ، وهو على نوعين :

النوع الأوّل

ركوبه في المواكب العظام ، وهي ستة مواكب

الموكب الأوّل

ركوب أوّل العام

وكان من شأنهم فيه أنه إذا كان العشر الآخر من ذي الحجة من السنة وقع الاهتمام بإخراج ما يُحتاج إليه في المواكب من حواصل الخليفة ، فيُخْرَج من خزائن السلاح مايحمله الرِّكَابية وغيرهم حولَ الخليفة كالصَّمَاصم ،والدَّبَابيس ، واللُّتُوت ، وعمد الحديد ، والسيوف ، والدَّرَق ، والرماح ، والألوية ، والأعلام . ومن خزانة التجمل برسم الوزير والأمراء وأرباب الخِدَم الألويةُ والقُضُبُ ، والعماريات ، وغير ذلك مما تقدّم ذكره . ومن الإصطبلات مائةُ فرس مسوَّمة برسم ركوب الخليفة وما بجنبه . ويُخْرَج من خزانة السروج مائةُ سرج بالذهب والفضة مرصَّع بعضها بالجواهر

بمراكب من ذهب . وفي أعناق الخيل أطواق الذهب وقلائد العَنْبَرِ ، وفي أرجل أكثرها خلاخل الذهب والفضة مسطحة ، قيمة كل فرس وما عليها من العدّة ألف دينار ، يُدْفَع للوزير منها عشرة بعدّتها برسم ركوبه وركوب أخصّائه ، وتسلّم إلى المُنَاخات أغشية العماريات لتحمل على الجمال ، إلى غير ذلك من الآلات المستعملة في المواكب مما تقدّم ذكره في الكلام على الخزائن ، ويُبْعَث إلى أرباب الخِدَم من الإصطبلات بخيول عادية ليركبوها في الموكب . فإذا كان يوم التاسع والعشرين من ذي الحجة ، استدعى الخليفة الوزير من داره على الرسم المعتاد في الإسراع ، فاذا عاد صاحبُ الرسالة من استدعاء الوزير ، خرج الخليفة من مكانه راكباً في القصر ، فينزل في السدلّى ، بدهليز باب الملك الذي فيه الشباك ، وعليه ستر من ظاهره ، فيقف من جانبه الأيمن زِمَام القصر ، ومن جانبه الأيسر صاحبُ بيت المال ؛ ويركب الوزير من داره وبين يديه الأمراءُ ، فإذا وصل إلى باب القصر ترَجّل الأمراء وهو راكب ، ويدخل من باب العيد ، ولا يزال راكباً إلى أول باب

من الدهاليز الطِّوال ، فينزل ويمشي فيها وحواليه حاشية ومن يُرابُّه من أولاده وأقاربه . فاذا وصل إلى الشُّبّاك ، وجد تحته كرسياً كبيراً من حديد فيجلس عليه ورجلاه تطأ الأرض ، فاذا جلس رفع كلٌّ من زمام القصر وصاحب بيت المال الستر من جانبه فيرى الخليفة جالساً على مرتبة عظيمة ، فيقف ويسلّم ويخدم بيده في الأرض ثلاث مرّات ، ثم يؤمر بالجلوس على كرسيه فيجلس . ويستفتح القُرّاء بقراءة آيات لائقة بذلك المكان مقدارَ نصف ساعة ؛ ثم يسلم الأمراء ، ويُشْرَع في عرض خيول الخاصّ المقدّم ذكرها واحدةً واحدةً إلى آخرها . فاذا تكمل عرضها قرأ القرّاء ما يناسبه ختم ذلك المجلس . فإذا فرغوا أرْخِي الستر وقام الوزير فدخل عليه فقبل يديه ورجليه ، ثم ينصرف عنه فيركب من مكان نزوله ويخرج الأمراء معه إلى خارج فيَمْضُون معه إلى داره رُكْباناً ومُشاة على حسب مراتبهم . فاذا صلّى الخليفة الظهر ، جلس لعرض خزانة الكسوة الخاص وتعيين ما يُلْبَسُ في ذاك الموكب ولباسِه فيه ، فيعين مِنْدِيلا لشدّ التاج ، وبَدْلَةً من هذا النوع ، والجوهرةَ

الثمينةَ وما معها من الجواهر المتقدّمة الذكر لشدّ التاج وتشدّ مِظَلّةٌ تشبه تلك البذلة ، وتلف في مِنْديل دَبِيقي فلا يكشفها إلا حاملُها عند ركوب الخليفة ، ثم يشدّ لواءي الحمد المتقدّمي الذكر . فاذا كان أول يوم من العام ، بَكّرَ أربابُ الرّتَبِ من ذوي السيوف والأقلام فلا يُصْبِح الصبح إلا وهم بين القصرين منتظرين ركوب الخليفة (وهو يومئذ فضاء واسع خالٍ من البناء) . ويبكر الأمراء إلى دار الوزير ليركبوا معه ، فيخرج من داره ويركب إلى القصر من غير استدعاء وأمامه ماشرّفه به الخليفة من الألوية والأعلام ، والأمراء بين يديه ركباناً ومشاة ، وأولاده وإخوته قدّامه ، وكل منهم مرخي الذؤابة بلا حنك ، وهو في هيئة عظيمة من الثياب الفاخرة والمنديل والحَنَك متقلداً بالسيف الذهب . فاذا وصل إلى باب القصر ، ترجّل الأمراء ودخل هو راكباً إلى محلِ نزوله بدِهْليز القصر المعروف بدهليز العمود فيترجّل هناك ويمشي في بقية الدهاليز حتّى يصلَ إلى مَقْطَع الوزارة بقاعة الذهب هو وأولاده وإخوته وخواصِّ حاشيته ، ويجلس الأمراء بالقاعة

على دِكّك معدّة لهم ، ويُدخَل فرسُ الخليفة إلى باب المجلس الذي هو فيه ، وعلى باب المجلس كرسيٌّ يركب من عليه . فاذا استوت الدابة إلى ذلك الكرسيّ ، أخرجت المظلة إلى حاملها فيكشفها مما هي ملفوفة فيه ويتسلمها بإعانة أربعة معدّين لخدمتها فيركزُها في آلة من حديد تشبه القرن المصطحب مشدودة في ركاب حاملها الأيمن بقوّة ، ويمسك العمود بحاجز فوق يده ؛ ثم يخرج السيف فيتسلمه حامله . فاذا تسلمه أرخى ذُؤَابَتَهُ فلا تزال مرخاة مادام حاملاً له ، ثم تُخْرَج الدواة فيتسلمها حاملها ويجعلها قدّامه بينه وبين السرج ، ثم يخرج الوزير عن المَقطَع وينضم إليه الأمراء ويقفون إلى جانب فرس الخليفة ، ويرفع صاحب المجلس السترَ فيخرج مَنْ كان عند الخليفة للخدمة من الأستاذين ، ويخرج الخليفة في أثرهم في ثيابه المختصة بذلك اليوم وعلى رأسه التاج الشريف والدرّة اليتيمة على جبهته ، وهو مُحَنّكٌ مرخيّ الذؤابة مما يلي جانبه الأيسر متقلد بالسيف العربيّ وقضيب المُلْك بيده ، ويسلم على الوزير قوم مرتّبون لذلك ، ثم على القاضي وعلى الأمراء بعدهما ، ثم يخرج

الأمراء وبعدهم الوزير فيركب ويقف قُبَالة باب القصر ، ويخرج الخليفة راكباً وفرسه ماشيةٌ على بُسُط خَشْيَةَ أن تَزْلَق على الرخام والأستاذون حوله . فاذا قارب الباب وظهر وجهُهُ ، ضرب رجلٌ ببُوق لطيف معوج الرأس متّخَذٍ من الذهب يقال له الغريبة مخالف لصوت الأبواق ، فتضرب البوقات في المواكب ، وتُنْشَر المظلة ويخرج الخليفة من باب القصر فيقف وقفةً يسيرة بمقدار ركوب الأستاذين المحنكين وغيرهم من أرباب الرتب الذين كانوا في الخدمة بالقاعة ، ثم يسير الخليفة في الموكب وصاحبُ المظلة على يساره ، وهو يَحْرِص ألاّ يزول ظلها عن الخليفة ، ثم يكتنف الخليفة مقدّمو صِبْيان الركاب ، اثنان منهم في شكيمتي لجام فرسه ، واثنان في عنق الفرس من الجانبين ، واثنان في ركابه من الجانبين أيضاً ، والأيمن منهما هو صاحب المِقْرَعة الذي يناولها للخليفة ويتناولها منه ، وهو الذي يؤدي عن الخليفة مدّة ركوبه الأوامرَ والنواهيَ ، واللواءان المعروفان بلواءي الحمد عن جانبيه ، والمِذَبّتَانِ عند رأس فرس الخليفة ، والركابية يمينَه وشمالَه نحو ألف رجل مقلدو السيوف

مشدودو الأوساط بالمناديل والسلاح . وهم من جانبي الخليفة كالجناحين المادّين ، بينهما فرجة لوجه الفرس ليس فيها أحد ، وبالقرب من رأسها الصقلبيان الحاملان للمِذَبتين ، وهما مرفوعتان كالنخلتين . (ويترتب الموكب) : أجناد الأمراء وأولادهم وأخلاط العسكر أمام الموكب . وأدوان الأمراء يَلُونَهم ، وبعدهم أرباب القُضُبِ الفضة من الأمراء ، ثم أرباب الأطواق منهم ، ثم الأستاذون المحنّكون ، ثم أهل الوزير المتقدّم ذكرهم ، ثم الحاملان للواءي الحمد من الجانبين ، ثم حامل الدواة وحامل السيف بعده ، وهما من الجانب الأيسر . وكل واحد ممن تقدّم ذكره بين عشرة إلى عشرين من أصحابه ، ثم الخليفة بين الركابية ، وهو سائر على تُؤَدَةٍ ورِفْقٍ ، وفي أوائل العسكر ومتقدّميه والي القاهرة ذاهباً وعائداً لفسح الطرقات وتسيير مَنْ يقف ، وفي وسط العسكر اسفهسلار يَحُثُ الأجناد على الحركة ويزجُر المتزاحمين والمعترضين في العسكر ذاهباً وعائداً ، وفي زمرة الخليفة صاحب الباب لترتيب العسكر وحراسة طرقات الخليفة ذاهباً وعائداً ، يلقى صاحبُ الباب اسفهسلار . واسفهسلارٌ يلقى والي

القاهرة وفي يد كل منهم دبُّوس . وخلف الخليفة جماعةٌ من الركابية لحفظ أعقابه ، ثم عشرة يحملون عشرةَ سيوف في خرائط ديباج أحمرَ وأصفرَ يقال لها سيوف الدم برسم ضرب الأعناق . وبعدهم الحاملون للسلاح الصغير المتقدّم الذكر ؛ ووراءه الوزير في هيئة عظيمة ، وفي ركابه نحو خمسمائة رجل ممن يختاره لنفسه من أصحابه ، وقوم يقال لهم صبيان الزّرَد من أقوياء الأجناد من جانبيه بفُرْجة لطيفة أمامه دون فرجة الخليفة مجتهداً ألاّ يغيب الخليفة عن نظره ، وخلفه الطُّبول والصُّنوج والصنافير في عدّة كثيرة تَدْوِي من أصواتها الدنيا ، ووراء ذلك حاملُ الرمح المقدّم ذكره والدرَقَةِ المنسوبة إلى حمزة ، ثم رجال الأساطيل مشاةً ومعهم القِسِي العربية ، وتسمى قسيَّ الرِّجْلِ والركاب ، مايزيد على خمسمائة رجل ؛ ثم طوائف الرجال من المصامدة ، ثم الريحانية والجُيُوشية ، ثم الفرنجية ، ثم الوزيرية : زُمْرَةً بعد زُمْرةٍ في عِدةٍ وافرة تزيد على أربعة آلاف . ثم أصحاب الرايات والسبعين ، ثم طوائف العساكر : من الآمرية والحافظية والحُجَريّة الكبار والحُجَرية الصِغار

والأفضلية والجيوشية ، ثم الأتراك المصطنعون . ثم الديْلَم ، ثم الأكراد ، ثم الغُزُّ المصطنعة وغيرهم مايزيد على ثلاثة آلاف فارس .

قال ابن الطوير : وهذا كله بعضٌ مِنْ كلٍّ .

وإذا ترتب الموكب على ذلك ، سار من باب القصر الذي خرج منه بين القصرين ، يسير بموكبه حتّى يخرج من باب النصر ويصلَ إلى حوض كان هناك يعرف بعزّ الملك على القرب من باب النصر ، ثم ينعطف على يساره طالباً بابَ الفتوح ، وربما عطف عند خروجه من باب النصر على يساره ، وسار بجانب السُّور حتى يأتي باب الفتوح فيدخل منه . وكيفما كان فإنه يدخل منه ، ويسير الموكب حتّى ينتهيَ بين القصرين فيقف العسكر هُناك على ماكان عليه عند الركاب ويترجّل الأمراء . فاذا انتهى الخليفة إلى الجامع الأقمر وقف هناك في جماعته وينفرج الموكب للوزير فيتحرّك مسرعاً ليصير أمام الخليفة . فاذا مرّ بالخليفة : سَكَعَ (١) له سَكْعة ظاهرة ،

(١) سكع (كمنع وفرح) : مشى مشياً متعسفاً لايدري أين يأخذ طريقه .

فيشير الخليفة بالسلام عليه إشارة خفيفة ، وهذه أعظم كرامة تصدُر من الخليفة ، ولا تكون إلا للوزير صاحبِ السيف . فاذا جاوز الوزيرُ الخليفةَ ، سبقه إلى باب القصر ودخل راكباً على عادته والأمراءُ أمامه مشاةٌ إلى الموضع الذي ركب منه بدهليز العمود المقدّم ذكره ، فيترجل هناك ويقف هو والأمراءُ لانتظار الخليفة . فاذا انتهى الخليفة إلى باب القصر ، ترجل الأستاذون المحنّكون ودخل الخليفة القصر وهو راكب والأستاذون مُحْدِقون به. فاذا انتهى إلى الوزير ، مشى الوزير أمام وجه فرسه إلى الكرسيّ الذي ركب من عليه فيخدمُه الوزيرُ والأمراء ؛ وينصرفون ويدخل الخليفة إلى دُوره . فاذا خرج الوزير إلى مكانِ تَرَجُّلِهِ ركب ، والأمراء بين يديه ، وأقاربُه حواليه إلى خارج باب القصر ، فيركب منهم مَنْ يستحق الركوب ، ويمشي من يستحق المشي ، ويسيرون في خدمته إلى داره ، فيدخل راكباً وينزل على كرسيّ فيخدمُه الجماعة وينصرفون ، وقد رأى الناس من حسن الموكب ما أبهجهم وراق خواطِرَهم ، ويتفرّق الناس إلى أماكنهم فيجدون الخليفة قد أرسل إليهم الغرّة :

وهي دنانير رُبَاعية ودراهم خِفَاف مدوّرة ، ويكون الخليفة قد أمر بضربها في العشر الأخير من ذي الحجة برسم التفرقة في هذا اليوم ، لكل واحد من الوزير والأمراء وأرباب المراتب من حملة السيوف والأقلام قدرٌ مخصوص من ذلك ، فيقبلونها على سبيل التبرك من الخليفة ، ويكتب إلى البلاد والأعمال مُخَلَّقات بالبشائر بركوب أوّل العام كما يكتب بوفاء النيل وركوب المَيْدان الآن .

الموكب الثاني

ركوب أوّل شهر رمضان

وهو قائم عند الشيعة مَقَام رؤية الهلال ، والأمر في العَرْض واللباس والآلات والركوب والموكب وترتيبه والطرق المسلوكة على ماتقدّم في أوّل العام من غير فرق ، ويكتب فيه المُخَلَّقات بالبشائر كما يكتب في أوّل العام .

الموكب الثالث

ركوبه في أيام الجمع الثلاث من شهر رمضان

وهي الجمعة الثانية والثالثة والرابعة ، وذلك أنه

إذا ركب إلى الجامع الأنور بباب البحر . بكّر صاحب بيت المال إلى الجامع بالفَرْش المختص بالخليفة محمولاً على أيدي أكابر الفرّاشين ملفوفاً في العرَاضي الدبيقية . فيُفْرَشُ في المحراب ثلاث طرّاحات إمّا شاميات ، وإمّا دَبيقي أبيض ، منقوشة بالحمرة ، وتُفْرش واحدة فوق واحدة ، ويعلّق ستران يَمْنَةً ويَسْرَةً ، في الستر الأيمن مكتوب برقم حرير أحمر سُورةُ الفاتحة وسُورةُ الجمعة ، وفي الستر الأيسر سورةُ الفاتحة وسورةُ المنافقين كتابةً واضحة مضبوطة ، ويصعد قاضي القضاة المنبرَ ، وفي يده مِدْخنة لطيفة خَيْزُرَان يُحْضِرها إليه صاحبُ بيت المال وفيها ندٌّ مثلّث لايشم مثله إلا هناك ، فيبخر ذِرْوة المِنْبر التي عليها القَنا كالقبة لجلوس الخليفة للخطابة ثلاث دفعات ، ويركب الخليفة في هيئة ماتقدّم في أوّل العام وأوّل رمضان : من المِظَلّة والآلات ولباسُه فيه الثياب البياض غير المُذْهَبَةِ توقيراً للصلاة ، والمِنْديل والطيلسان المقوّرة . وحولَ ركابه خارج الركابية قرّاء الحضرة من الجانبين يرفعون أصواتهم بالقراءة نَوْبةً بعد نَوْبَةٍ من حين ركوبه من القصر

إلى حين دخوله قاعة الخَطَّابة ، فيدخل من باب الخطابة فيجلس فيها ، وان احتاج إلى تجديد وضوء فعل ، وتحفظ المقصورة من خارجها بترتيب أصحاب الباب واسفسهلار وصبيان الخاص ، وغيرهم ممن يجري مجراهم من أوّلها إلى آخرها ، وكذلك من داخلها من باب خروجه إلى المنبر . فاذا أُذِّنَ للجمعة دخل إليه قاضي القضاة ، فقال : « السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضي الخطيب ورحمة الله وبركاته ، الصلاةَ يرحمك الله » فيخرج ماشياً وحواليه الأستاذون المحنّكُون والوزير وراءه ، ومن يليهم من الأمراء من صِبْيان الخاص ، وبأيديهم الأسلحة حتى ينتهي إلى المِنْبَر فيصعد حتّى يصلَ إلى الذِّروة تحت القبة المُبخّرة ، والوزير على باب المنبر ووجهه إليه . فاذا استوى جالساً أشار إلى الوزير بالصعود فيصعد إلى أن يصل إليه ، فيُقَبِّلُ يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يزرّ عليه تلك القبة وتصير كالهودج ، ثم ينزل مستقبلا للخليفة ويقف ضابطاً للمنْبر ، فإن لم يكن وزيرٌ صاحب سيف ، كان الذي يَزُرُّ عليه قاضي القضاة ، ويقف صاحب الباب ضابطاً للمنبر ، فيخطب خطبة

قصيرة من سَفَط يأتي إليه من ديوان الإنشاء ، ويقرأ فيها آيةً من القرآن الكريم ، ثم يصلي فيها على أبيه وجده يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه ، ويَعِظُ الناسَ وَعْظاً بليغاً قليلَ اللفظ ؛ ويذكر مَن سلف من آبائه حتّى يصل إلى نفسه فيقول : « اللهم وأنا عبدك وابن عبديك لاأمْلِك لنفسي ضَرّاً ولا نفعاً » ويتوسل بدعوات فخمة تليق به ، ويدعو للوزير إن كان ثَمَّ وزيرٌ ،وللجيوش بالنصر والتآلف ، وللعساكر بالظّفَرِ ، وعلى الكافرين والمخالفين بالهلاك والقَهْر ، ثم يختم بقوله (اذْكُرُوا اللهَ يَذْكُرْكُمْ) فيطلع إليه مَنْ زرّ عليه فيفُكُّ ذلك التزرير عنه ، وينزل القَهْقَرى ، فيدخل المحراب ويقف على تلك الطراحات إماماً والوزير وقاضي القضاة صَفّاً ، ومن ورائهما الأستاذون المحنكون والأمراء المطوّقون وأرباب الرتب من أصحاب السيوف والأقلام ،والمؤذّنون وقوفٌ وظهورهم لحائط المقصورة ، والجامع مشحون بالعالَم للصلاة وراءه

فيقرأ في الركعة الأولى ماهو مكتوب في الستر الأيمن ، وفي الثانية مافي الستر الأيسر . فاذا سَمّعَ الخليفةُ ، سَمّعَ القاضي المؤذنين ، فيسمِّع المؤذنون الناس . فاذا فرغ خرج (١) الناس وركبوا أوّلا فأوّلا وعاد إلى القصر والوَزير وراءه حتّى يأتي إلى القصر ، والطبول والبوقات تضرب ذَهَاباً وإياباً .

فاذا كانت الجمعة الثالثة من الشهر . ركب إلى لجامع الأزهر كذلك وفعل كما فعل في الجمعة الأولى ، لايختلف في ذلك غيرُ الجامع .

فاذا كانت الجمعة الرابعة منه ، ركب إلى الجامع العتيق بمصر. ويزيِّن له أهل القاهرة من باب القصر إلى الجامع الطُّولوني ، ويزيِّن له أهل مِصر من الجامع الطولوني إلى الجامع العتيق ، وقد نَدَب الواليان بالبلدين مَنْ يحفظ الناس والزينة،ويركب من باب القصر ويسير في الشارع الأعظم بمصر ، يمشي في شارع واحد بين العمارة إلى الجامع العتيق بمصر فيفعل كما فعل في الجامعين

(١) لعله خرج وخرج الناس الخ .

الأوّلين من غير مخالفة . فاذا قضى الصلاة ، عاد إلى القاهرة من طريقه تلك إلى أن يصل إلى قصره ، وفي خلال ذلك كلّه لايمرّ بمسجد إلا أعطى أهله ديناراً على كَثْرة المساجد في طريقه .

الموكب الرابع

ركوبه لصلاة عيدي الفطر والأضحى

أما عيد الفطر فيقع الاهتمام بركوبه في العشر الأخير من رمضان ، وتعبّى أهبة المواكب على ماتقدّم في أوّل العام وغيره ، وكان خارج باب النصر مصلّى على رَبْوَةٍ وجميعها مبنيٌّ بالحجر ، ولها سور دائر عليها وقلعة على بابها ، وفي صدرها قبّةٌ كبيرة في صدرها محراب ، والمنبر إلى جانب القبة وسط المصلّى مكشوفاً تحت السماء ، ارتفاعه ثلاثون درجة وعَرْضه ثلاثة أذرع ، وفي أعلاه مصطبةٌ . فاذا كمل رمضان وهو عندهم ثلاثون يوماً من غير نقص . فاذا كان اليوم الأوّل من شوّال ، سار صاحب بيت المال إلى المصلّى خارج

باب النصر ، وفرش الطراحات بمحراب المصلّى ، كما تقدّم في الجوامع في أيام الجمع ، ويعلق سترين يَمْنَةً ويَسْرَةً ، في الأيمن «الفاتحةُ» و«سَبِّح اسْمَ رَبِّكَ الأعلى» ، وفي الأيسر «الفاتحةُ» ، و«هَلْ أتَاكَ حَدِيثُ الغاشيةَ» ، ويركز في جانبي المصلّى لواءين مشدودين على رمحين ملبسين بأنابيب الفضة ، وهما منشوران مرخيان ، ويوضع على ذِرْوة المنبر طرّاحة من شاميات أو دَبيقي ، ويفرش باقيه بستر من بياض ، على مقداره في تقاطيع درجه مضبوطة لاتتغير بالمشي وغيره ، ويجعل في أعلاه لواءان مرقومان بالذهب يَمْنَةً ويَسْرَةً ، ثم سار الوزير من داره إلى قصر الخليفة على عادته المتقدّمة الذكر ، ويركب الخليفة بهيئةِ المواكب العظيمة على ماتقدّم في أوّل العام : من المِظَلّة والتاج وغير ذلك من الآلات ، ويكون لباسه في هذا اليوم الثيابَ البيض الموشّحة المجومة ، وهي أجلُّ لباسه، ومظلته كذلك ، ويخرج من باب العيد على عادته في ركوب المواكب إلا أن العساكر في هذا اليوم من الأمراء والأجناد والركبان والمشاة تكون أكثر من غيره ، وينتظم القوم له صفّيْنِ

من باب القصر إلى المصلّى ، ويركب الخليفة إلى المصلى فيدخل من شرقيها إلى مكان يستريح فيه دقيقةً ، ثم يخرج محفوظاً بحاشيته كما في صلاة الجمع المتقدّمة الذكر فيصير إلى المحراب ، والوزير والقاضي وراءه كما تقدّم ، فيصلي صلاة العيد بالتكبيرات المسنونة ، ويقرأ في الركعة الأولى مافي الستر الذي على يمينه ، وفي الثانية مافي الستر الذي على يساره . فاذا فرغ وسلّم ، صعد المنبر لخَطَابة العيد . فاذا انتهى إلى ذِرْوة المنبر ، جلس على تلك الطرّاحة بحيث يراه الناس ، ويقف أسفل المنبر الوزيرُ ، وقاضي القضاة ، وصاحب الباب واسفسهلار وصاحب السيف ، وصاحب الرسالة ، وزِمَامُ القصر (١) ، وصاحب دفتر المجلس ، وصاحب المِظَلّة ، وزِمَام الأشراف الأقارب ، وصاحب بيت المال ، وحامل الرمح ، ونقيب الأشراف الطالبيين . ووجه الوزير إليه ، فيشير إليه فيصعد ويقرب وقوفه منه ويكون وجهه موازياً رجليه ، فيقبلهما بحيث يراه الناس ، ثم يقوم فيقف

(١) زمام القصر : هو الذي يتولى ادارة أمور خدام القصر والاشراف على أعمالهم .

على يَمْنَةِ الخليفة . فاذا وقف أشار إلى قاضي القضاة بالصعود فيصعد إلى سابع درجة ، ثم يتطلع إليه منتظراً مايقول ، فيشير إليه فيُخْرِجُ من كُمِّهِ دَرْجاً قد أحْضر إليه في أمسه من ديوان الإنشاء بعد عرضه على الخليفة والوزير ، فيعلن بقراءة مضمونه ويقول بعد البسملة : « ثَبَتٌ بمن شُرِّف بصعوده المنبر الشريف في يوم كذا ، وهو عيد الفطر من سنة كذا من عند أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين و أبنائه الأكرمين بعد صعود السيد الأجل . . . » (يذكر نعوت الوزير المقررة والدعاء له) ثم ذَكَرَ مَنْ يُشَرِّفُه الخليفة بصعود المنبر من أولاد الوزير ، ثم ذكر القاضي ولكنه يكون هو القارىء للثّبَت فلا يسعه ذكر نعوته فيقول : «المملوك فلان بن فلان» ونحو ذلك، ثم الواقفين على باب المنبر ، من تقدم ذكره بنعوتهم واحداً واحداً، وكلما ذكر واحداً استدعاه وطلع المنبر ، كل منهم يعرف مقامه في المنبر يَمْنَةً ويَسْرَةً . فاذا لم يبق أحد ممن أُطلع إلى المنبر ، أشار الوزير إليهم فأخذ كل منْ هو في جانب بيده نصيباً من اللواء الذي بجانبه فيستتر الخليفة ويستترون ، وينادي في الناس بالإنصات ، فيخطب الخليفةُ خطبةً بليغةً مناسبة لذلك

لمقام ، يقرؤها من السَّفَطِ الذي يُحْضَر إليه مسطَّراً من ديوان الإنشاء كما في جُمَعِ رمضان المتقدّمة الذكر . فإذا فرغ من الخطبة ، ألقى كلُّ مَنْ في يده شيءٌ من اللواء خارج المنبر ، فينكشفون وينزلون القهقرى أوّلا بأوّل الأقرب فالأقرب . فاذا خلا المنبر للخليفة ، هبط ودخل المكانَ الذي خرج منه ، فيلبث قليلا ثم يركب في هيئته التي أتى فيها إلى المصلّى ، ويعود إلى طريقه التي أتى منها . فإذا قرب من القصر ، تقدّمه الوزير على العادة ، ثم يدخل من باب العيد الذي خرج منه ، فيجلس في الشُّبّاك الذي في الإيوان الكبير ، وقد مدّ منه إلى فسقية في وسط الإيوان مقدار عشرين قصبة سِماطٌ فيه من الخُشكنان (١) و البِسْتَنْدُود (٢) ، وغير ذلك مما يعمل في العيد مثلُ الجبل الشاهق ، كل قطعة مابين ربع قنطار إلى رطل واحد ، فيأكل مَنْ يأكل

(١) الخشكنان ويعرف في مصر بالخشتنان ، وهو نوع من الحلوى مصنوع من الرقاق على شكل حلقة مجوفة يملأ وسطها باللوز أو الفستق .

(٢) البستندود ، أصله بالفارسية (بشندة) : طعام فارسي مصنوع من دقيق وبلح . وفي الأصل : « البسندود » .

وينقلُ مَنْ ينقل لاحَجْرُ عليه ولا مانع دونه ، ثم يقوم من الإيوان فيركب إلى قاعة الذهب فيجد سرير الملك قد نُصِب ، ووضع له مائدة من فضة ، ومَدّ السماط تحت السرير فيترجل عن السرير ، ويجلس على المائدة ، ويستدعي الوزير فيجلس معه ، ويجلس الأمراء على السماط ولا يزال كذلك حتّى يستهدم السماط قريبَ صلاة الظهر ؛ ثم يقوم وينصرف الوزير إلى داره والأمراء في خدمته فيمدّ لهم سماطاً يأكلون منه وينصرفون .

وأما عيد الأضحى فإنه إذا دخل ذو الحجة وقع الاهتمام بركوبه . فاذا كان يوم العيد ، ركب الخليفة على ماتقدّم في عيد الفِطْر من الزِّيّ والترتيب والركوب إلى المصلّى ، ويكون لباس الخليفة فيه الأحمرَ الموشحَ ، ومِظَلّته كذلك ، ويخرج إلى المصلّى خارج باب النصر ويخطب ، ثم يعود إلى القصر كما في عيد الفطر من غير زيادة ولا نقص ؛ ثم بعد دخوله إلى القصر يخرج من باب الفرَج ، وهو باب القصر الذي كان مسامتاً لدار سعيد السُّعَداء التي هي الخانقاه الآن ، فيجد الوزيرَ راكباً على الباب المذكور فيترجّل الوزيرُ ، ويمشي في

خادمته إلى المَنْحَر (١) ، وهو خارج الباب المذكور . وكان إذ ذاك الفضاء واسعاً لابناء فيه ، وهناك مصطبة مفروشة فيطلُع عليها الخليفةُ والوزيرُ وقاضي القضاة والأستاذون المحنّكُون وأكابر الدولة ، ويكون قد سبق إلى المنحر أحدٌ وثلاثون فصيلاً وناقةً للأضحيَّة ، وبيده حربة ، وقاضي القضاة ممسك بأصل سِنَانها ، وتُقَدَم إليه الأضحيَّة رأساً رأساً فيجعل القاضي السنانَ في نحر النحيرة ويطعن به الخليفة في لَبّتِها ، فتخرّ بين يديه حتّى يأتي على الجميع ، ثم يُسَيِّرُ رسومَ الأضحية إلى أرباب الرسوم المقررة ، وفي اليوم الثاني يساق إلى المنحر سبعةٌ وعشرون رأساً ، ويركب الخليفة فيفعل بها كذلك ، وفي اليوم الثالث يساق إليه ثلاثٌ وعشرون رأساً فيفعل بها كذلك . فاذا انقضى ذلك في اليوم الثالث وعاد الخليفة إلى القصر ؛ خلع على الوزير ثيابه الحمرَ

(١) المنحر : الموضع الذي اتخذه الخلفاء لنحر الأضاحي في عيد الأضحى وعيد الغدير . وكان موضع المنحر أرض فضاء بالدرب الأصفر ومحله اليوم مجموعة المباني الواقعة غرب جامع سعيد السعداء بين شارعي الدرب الأصفر والتمبكشية بقسم الجمالية .

التي كانت عليه يوم العيد . ومنديلا بغير اليتيمة والعقد المنظوم بالجوهر ، ويركبُ الوزيرُ بالخلعة من القصر ، ويشق القاهرة بالشارع سالكاً إلى الخليج فيسير عليه حتى يدخل من باب القنطرة إلى دار الوزارة ، وبذلك انفصال العيد . ثم أوّل نحيرة تنحر تقدّد وتُسيَّرُ إلى داعي اليَمن فيفرّقها على المعتقَدين من وزن نصف درهم إلى وزن ربع درهم . وباقي ذلك يفرّق على أرباب الرسوم في أطباق للبَرَكة ، وأكثره يُفرقه قاضي القضاة وداعي الدّعاة على الطلبة بدار العدل والمتصدّرين بجوامع القاهرة ، وفي اليوم الأول يمد السماط بقاعة الذهب على ما تقدّم في عيد الفطر من غير فرق .

الموكب الخامس

ركوبه لتخليق المقياس عند وفاء النيل

قد تقدّم عند ذكر النيل في الكلام على الديار المصرية ابتداءُ زيادة النيل ووفاؤه وانتهاؤه ، وذكرُ المناداة عليه على ما الأمر مستقرّ عليه . إلا أنه في زمن هؤلاء الخلفاء لم يكن ينادى عليه قبل الوفاء ، وإنما يؤخذ قاعُه

وتكتب به رُقْعَةٌ للخليفة والوزير ، ثم ينزل بديوان الرسائل في مسير معدّ له في الديوان ، ويستمرّ الحال على ذلك في كل يوم ترفع رقعة إلى ديوان الإنشاء بالزيادة لايطّلع عليها غير الخليفة والوزير ، وأمره مكتوم إلى أن يبقى من ذراع الوفاء (وهو السادس عشر) أصبعٌ أو اصبعان فيؤمر بأن يبيت في جامع المقياس تلك الليلة قُرَّاءُ الحضرة والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة ومصر ومن يجري مجراهم لختم القرآن الكريم في تلك الليلة هناك ، ويمدّ لهم السماط بالأطعمة الفاخرة ، وتوقد عليهم الشموع إلى الصبح .
فاذا أصبح الصبح وأذِن الله تعالى بوفاء النيل في تلك الليلة ، طلعت رُقْعة ابن أبي الردّاد إلى الخليفة ، فتُحضَر إليه بالقصر ، فيركب الخليفةُ في هيئة عظيمة من الثياب الفاخرة والموكب العظيم ، إلا أنه يلبس التاج الذي فيه اليتيمة ، ولا يُخَلّي المظلة على رأسه في ذلك اليوم ؛ ويركب الوزيرُ وراءه في الجمع العظيم على ترتيب الموكب ؛ ويخرج من القصر شاقاً القاهرةَ إلى باب زويلة فيخرج منه ، ويسلك الشارع إلى أن يجاوز البستان المعروف بعباس عند رأس الصَّلِيبة بالقرب من الخانقاه الشيخونية الآن ، فيعطف سالكاً على الجامع الطولونيّ والجسر الأعظم

حتّى يأتيَ مصر ، ويدخل من الصناعة ، وهي يومئذ في غاية العمارة ، وبها دهليزٌ ممتدٌ بعصاطبَ مفروشةٍ بالحصر العبدانيّ مؤزّر بها ، ويخرج من بابها شاقاً مصرَ حتّى يأتيَ المنظرةَ المعروفةَ برواق الملك على القرب من باب القنطرة ، فيدخلها من الباب المواجه له والوزيرُ معه ماشياً إلى المكان المعدّ له ، ويكون العشاريّ الخاص المعبّر عنه الآن بالحرّاقة واقفاً هناك بشاطىء النيل ، وقد حُمِل إليه من القصر بيتٌ مثمّن من العاج والآبنُوسِ ، كل جانب منه ثلاثة أذرع ، وطوله قامةُ رجل تامّ ، فيركب في العشاريّ المذكور وعليه قبة من خشب محكم الصنعة ، وهو وقبّته ملبّس صفائح الفضة المُذْهَبَةِ ، ثم يخرج الخليفة من دار الملك المذكور ومعه من الأستاذين المحنّكين من يختاره من ثلاثة إلى أربعة ، ثم يطلُع خواص الخليفة إلى العشاريّ والوزيرُ ومعه من خواصّه اثنان أو ثلاثة لا غير ، فيجلس الوزير في رُواقٍ بظاهر البيت المذكور ، بفوانيس من خشب مخروط مدهونة مذهَبَة ، بستور مسدَلة عليه ، ويسير العشاري من باب المنظرة إلى باب المقياس العالي على الدَّرَج ؛ فيطلع من العشاريّ ، ويدخل

إلى الفُسْقيَّة التي فيها المقياس ،والوزير والأستاذون المحنكون بين يديه ، فيصلّي هو والوزير ؛ كلٌّ منهما ركعتين بمفرده ، ثم يؤتى بالزَّعفران والمسك فيَديفه في إناء بيده بآلة معه ، ويتناوله صاحب بيت المال فيناوله لابن أبي الردّاد ، فيُلْقي نفسه في الفسقية بثيابه فيتعلق في العمود برجليه ويده اليسرى ويُخَلّقه بيده اليمنى ، وقرّاء الحضرة من الجانب الآخر يقرءون القرآن ؛ ثم يخرج على فوره راكباً في العشاريّ المذكور ، ثم يعود إلى دار الملك ، ويركب منها عائداً إلى القاهرة ؛ وتارة ينحدر في العشاريّ إلى المَقْس ، ويتبعه الموكب فيسير من هناك إلى القاهرة . ويكون في البحر ذلك اليوم نحوُ ألف مركب مشحونة بالناس للتفرّج وإظهار الفرح . فاذا كان اليوم الثاني من التخليق أتى ابن أبي الردّاد إلى الإيوان الكبير الذي فيه الشُّبّاك بالقصر فيجد خِلْعة مُذهَبَةً بطَيْلَسان مقوّر ويُدْفَعُ إليه خمسة أكياس في كل كيس خمسمائة درهم مهيأة له ، فيلبس الخِلْعة ، ويخرج من باب العيد المتقدّم ذكره في أبواب القصر ، وقد هُيِىء له خمس بغال على ظهورها الأحمال المزيّنَةُ بالحليّ ، على ظهر

كل منها راكب ،وبيده أحد الأكياس الخمسة المتقدّمة الذكر ظاهرٌ في يده ، وأقاربه وبنو عمه يحجبونه وأصدقاؤه حوله وأمامه حِمْلان من النّقّارات السلطانية ، والأبواقُ تضرب أمامه ، والطبل وراءه مثل الأمراء ؛ فيشق بين القصرين ، وكلما مر على باب من أبواب القصر يدخل منه الخليفة أو يخرج ، نزل فقبّلَه ، ويخرج من باب زويلة في الشارع الأعظم حتّى يأتيَ مِصْرَ فيشقُّ وسَطَها ويمرّ بالجامع العتيق ، ويجاوزه إلى شاطىء النيل فيعدّي إلى المقياس بخِلْعته وما معه من الأكياس ، فيأخذ من الأكياس قدراً مقرّراً له ، ويفرّق باقي ذلك على أرباب الرسوم الجارية من قديم الزمان من بني عمه وغيرهم .

الموكب السادس

ركوبه لفتح الخليج

وهو في اليوم الثالث أو الرابع من يوم التخليق المتقدّم ذكره ، وليس كما في زماننا من فتحه في يوم التخليق ؛ وكان يقع الاهتمام عندهم بركوب هذا اليوم من حين

يأخذ النيل في الزيادة ، وتعمل في بيت المال موائدُ من التماثيل المختلفة : من الغزْلان ، والسباع ، والفيَلة ، والزّرَاريف عدّة وافرة ؛ منها ماهو ملبّس بالعنبر ، وما هو مُلَبّسٌ بالصندل ، مفسرة الأعين والأعضاء بالذهب ، وكذلك يُعْمَلُ أشكالُ التُّفَاحِ والأتْرُجِّ وغير ذلك ، وتخرج الخَيْمَةُ العظيمة المعروفة بالقاتول المتقدّمة الذكر فتنصب للخليفة في برّ الخليج الغربيّ على حافته منْظَرة يقال لها السكّرة على القرب من فم الخليج . ويُلَفُّ عمودُ الخيمة بديباج أحمرَ أو أبيض أو أصفر من أعلاه إلى أسفله ، وينصب فيها سرير الملك مستنداً إليه ويغشّى بقُرْقوبي ، وعرَانيسه ذهبٌ ظاهرة ، ويوضع عليه مرْتبة عظيمة من الفرش للخليفة ؛ ويضرب لأرباب الرُّتَبِ من الأمراء بَحْرِيّ هذه الخيمة خيَمٌ كثيرة على قدر مراتبهم في المقدار والقرب من خيمة الخليفة ؛ ثم يركب الخليفة على عادته في المواكب العظيمة بالمظلّة وتوابعها من السيف والرمح والألوية والدواة وسائر الآلات ، ويزاد فيه أربعون بُوقاً : عشرة من الذهب وثلاثون من الفضة ، يكون المنفّرون

بها ركباناً . والمنفّرون بالأبواق النّحاس مشاةً ، ومن الطبول العظام عشرة طبول . فاذا كان يومُ الركوب حضر الوزير من دار الوزارة راكباً في هيئة عظيمة ، ويركب حينئذ إلى باب القصر الذي يخرج منه الخليفة ، ويخرج الخليفة من باب القصر راكباً والأستاذون المحنّكُون مشاةٌ حوله ، وعليه ثوب يسمى البدنة حريرٌ مرقومٌ بذهب ، لايلبسه غير ذلك اليوم . والمظلة بنسبته ؛ فيركب الأستاذون المحنّكُون ويسير الموكب على الترتيب المتقدّم في ركوب أوّل العام سائراً في الطريق التي ذهب فيها للتخليق حتى يأتيَ الجامع الطولوني ؛ ويكون قاضي القضاة وأعيانُ الشهود جلوساً ببابه من هذه الجهة ، فيقف لهم الخليفة وقفةً لطيفةً ، ويسلم على القاضي ، ويُقَبِّلُ رجله التي من جانبه ، ويأتي الشهود أمام وجه فرس الخليفة ، ويقفون بمقدار أربعة أذرع عن الخليفة فيسلم عليهم . ثم يركبون ويسير الموكب حتّى يأتي ساحل الخليج . فيسير حتى يقارب الخليفةُ الخيمةَ ، فيتقدّمه الوزير على العادة ، فيترجل على باب الخيمة ، ويجلس على المرتبة

الموضوعة له فوقه (١) ويحيط به الأستاذون المحنكون والأمراء المطوّقون بعدهم ؛ ويوضع للوزير كرسيُّه الجاري به العادة على ماتقدّم في جلوسه في القصر ، فيجلس ورجلاه يحُكّان الأرض ، ويقف أرباب الرُّتَب صفّين من سرير المُلْك إلى باب الخيمة ، وقرّاء الحضرة يقرءون القرآن ساعة زمانية ، فاذا فرغوا من القراءة ، استأذن صاحبُ الباب على حضور الشعراء للخدمة ، فيؤذن لهم فيتقدّمون واحداً بعد واحد على مقدار منازلهم المقرّرة لهم ، ويُنْشِدُ كلٌّ منهم ماوقع له نظمه مما يناسب الحال : فاذا فرغ أتى غيره وأنشد مانظمه إلى أن يفرغ إنشادهم ، والحاضرون ينتقدون على كل شاعر مايقوله ، ويُحَسّنُون منه ماحَسُنَ ويُوَهّون منه ماوهى]. فإذا انقضى هذا المجلس ، قام الخليفة عن السرير فركب إلى المنظرة المعروفة بالسكرة بقرب الخيمة والوزير بين يديه ، وقد فُرُشت بالفُرُش المعدّة لها ، فيجلس الخليفة بمكان معدّ له منها ، ويجلس الوزيرُ بمكان منها بمفرده ، ويجلس القاضي

---

(١) أي فوق السرير المتقدم وصفه قريباً .

والشهودُ في الخيمة البيضاء الدَّبيقيَّة ، فيُطِلُّ منها أستاذ من الأستاذين المحنكين فيشير بفتح السدّ فيفتح بالمعاول ، وتضرب الطبول والأبواق من البرّين ، وفي أثناء ذلك يصل السِّماط من القصر صحبةَ صاحب المائدة القائم مقام أستاذ دار الصحبة الآن ، وعدّتها مائة شدّة في الطيافير الواسعة في القواوير الحرير ، وفوقها الطرّاحات النفيسة ؛ وريح المسك والأفاويه تفوح منها ، فتوضع في خيمة وسيعة معدّة لذلك ؛ ويحمل منها للوزير وأولاده ماجرت به عادتهم ، ثم لقاضي القضاة والشهود ، ثم إلى الأمراء على قدر مراتبهم : على أنواع الموائد من التماثيل المقدّمة الذكر خلا القاضي والشهود ، فانه لايكون في موائدهم تماثيل . فاذا اعتدل الماء في الخليج دخلت فيه العشاريات اللطاف ووراءها العشاريات الكبار ، وهي سبعة : الذهبيّ المختص بالخليفة ، وهو الذي يركب فيه يوم التخليق ، والفِضّي ، والأحمر ، والأصفر ، والأخضر ، واللازَورْدي والصِّقِلّي ، وهو عشاريٌّ أنشأه نَجارٌ من صِقِلّيَة على الإنشاء المعتاد فنسب إليه ، وعليه الستور الدبيقي الملوّنة وفي أعناقها الأهلّة وقلائد العنبر والخرز الأزرق ، وتسير

حتّى ترسُوَ على بر المنظرة التي فيها الخليفة . فاذا صلى الخليفةُ العصر ، ركب لابساً غير الثياب التي كانت عليه في أوّل النهار ، ومظلته مناسبة لثيابه التي لبسها ، وباقي الموكب على حاله ، ويسير في البر الغربيّ من الخليج شاقاً للبساتين حتّى يصلَ إلى باب القنطرة فيعطف على يمينه ويسير إلى القصر ، والوزير تابعه على الرسم المعتاد ، فيدخل الخليفة قصره ، ويمرّ الوزير إلى داره على عادته في مثل ذلك اليوم .

وذكر القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر : أنه إذا ركب من المنظرة المعروفة بالسكرة ، سار في بر الخليج الغربيّ على ماتقدّم ذكره حتّى يأتيَ بستان الدكة ، وقد علُقّت دهاليزه بالزينة فيدخله وحده ويسقي منه فرسه ، ثم يخرج حتّى يقف على الرعنة المعروفة بخليج الدار . ويدخل من باب القنطرة ويسير إلى قصره .

* * *

النوع الثاني

من مواكبهم المختصرة في أثناء السنة

وهي أربعة أيام أو خمسة فيما بين أوّل العام ورمضان

ولا يتعدّى ذلك يومي السبت والثلاثاء . فاذا عزم على الركوب في يوم من هذه الأيام ، قدّم تفرقة السلاح على الركابية على ماتقدّم ذكره في أوّل العام ، وأكثرُ مايكون ركوبه إلى مصر ، فيركب الوزير وراءه على أخصرَ من النظام المتقدّم له في المواكب العظام وأقلَّ جمعاً ، ولبسه في هذه الأيام الثياب المُذْهَبَةُ من البياض والملوّن ومنديلٌ من نسبة ذلك مشدودة بشدّة غير شدّات غيره ، وذوائبه مرخاة تقرب من جانبه الأيسر ، وهو مقلد بالسيف العربي المجوهر بغير حنك ولا مظلة ، ويخرج شاقاً القاهرة في الشارع الأعظم حتّى يجاوز الجامع الطولوني على المشاهد (١) إلى الجامع العتيق . فاذا وصل إلى بابه ، وجد الخطيب قد وقف على مصطبة بجانبه فيها محراب ، مفروشةٍ بحصير وعليها سجادة معلقة ، وفي يده المصحف الكريم المنسوب خطه إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، كرّم الله وجهه ، فيناوله

---

(١) يريد بالمشاهد الأماكن التي كان الناس لا يزالون يتبركون بزيارتها كمشهد زين العابدين ومشهد السيدة نفيسة ومشهد السيدة أم كلثوم رضوان الله عليهم .

المصحف من يده فيقبله ويتبرك به ويأمر له بعطاء يفرّق على أهل الجامع .

* * *

الضرب الثالث

من هيئة الخليفة هيئته في قُصُوره

قال ابن الطوير : كان له ثياب يلبَسُها في الدور ، أكمامها على النصف من أكمام ثيابه التي يلبسها في المواكب ، وكان من شأنه أنه لاينصرف من مكان إلى مكان في القصر في ليل أو نهار إلا وهو راكب ، ولا يقتصر في القصر على ركوب الخيل بل يركب البغال والحمير الإناث لما تدعوه الضرورة إليه من الجواز في السراديب القصيرة والطلوع على الزلاقات إلى أعلى المناظر والمساكن ، وله في الليل نسوة برسم شدّ ما يحتاج إلى ركوبه من البغال والحمير ، وفي كل محلة من محلات القصر فُسْقيّةٌ مملوءة بالماء خيفَةً من حدوث حريق في الليل ، ويبيت خارج القصر في كل ليلة خمسون فارساً للحراسة ، فاذا أُذّن بالعشاء الآخرة داخلَ قاعة الذهب وصلى الإمامُ الراتبُ فيها بالمقيمين من الأستاذين وغيرهم ، وقف على

باب القصر أميرٌ يقال له سِنَان الدولة — مقام أمير جاندار الآن — فاذا علم بفراغ الصلاة تضرب البوقيةُ من الطبول والبوقات وتوابعها على طريق مستحسنة ساعةً زمانية ، ثم يخرج أستاذ برسم هذه الخدمة فيقول : « أمير المؤمنين يردّ على سنان الدولة السلام » فيغرِزُ سنان الدولة حربةً على الباب ثم يرفعها بيده ، فاذا رفعها أغلق الباب ، ودار حول القصر سبعَ دَوْرات . فاذا انتهى ذلك جعل على الباب البوّابين والفرّاشين وأوى المؤذّنون إلى خزائنَ لهم هناك وتُرْمى السلسلة عند المضيق، وأخرى بين القصرين عند السيوفيين فينقطع المارّ من ذلك المكان إلى أن تضرب البوقية سَحَراً قربَ الفجر فتُرفَع السلسلة ويجوز الناس من هناك .

* * *

الجملة السادسة

في اهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور واعتنائهم بأمر الجهاد ، وسيرهم في رعاياهم ، واستمالة قلوب مخالفيهم

أما اهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور ، واعتناؤهم

بأمر الجهاد . فكان ذلك من أهمّ أمورهم ، وأجلّ ما وقع الاعتناءُ به عندهم . وكانت أساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية كالاسْكَنْدَرِية ودِمْياط من الديار المصرية ، وعَسْقَلان وعَكا وصُور وغيرها من سواحل الشام ، حين كانت بأيديهم ، قبل أن يغلبهم عليها الفرنج ؛ وكانت جريدة قوّادهم تزيد على خمسة آلاف مقاتل مدوّنة . وجوامكهم في كل شهر من عشرين ديناراً إلى خمسة عشر ديناراً إلى عشرة إلى ثمانية إلى دينارين ، وعلى الأسطول أميرٌ كبيرٌ من أعيان الأمراء وأقواهم جأشاً وكان أسطولهم يومئذ يزيد على خمسة وسبعين شينياً وعشر مسطحات وعشر حمالات ، وعمارة المراكب متواصلة بالصناعة لاتنقطع . فاذا أراد الخليفة تجهيزها للغزو ، جلس للنفقة بنفسه حتّى يكملها ، ثم يخرج مع الوزير إلى ساحل النيل بالمَقْسم ، فيجلس في مَنْظَرَةٍ كانت بجامع باب البحر والوزير معه للموادَعة (١) ، ويأتي القُوّادُ بالمراكب إلى تحت المنظرة ؛ وهي مزينة بالأسلحة

(١) أي التوديع . وقد جرى فيه وفي كثير غيره على اصطلاحات العامة .

والمَنْجنَيقات واللعب منصوبة في بعضها ، فتسيّر بالمجاديف ذَهَاباً وعَوْداً كما يُفْعَلُ حالة القتال ، ثم يحضر إلى بين يدي الخليفة المُقَدَّمُ والريِّسُ فيوصيهما ويدعو لهم بالسلامة ، وتنحدر المراكب إلى دِمْيَاطَ وتخرج إلى البحر المِلْح فيكون لها في بلاد العدوّ الصِّيتُ والسُّمعة . فاذا غنموا مَرْكَباً اصطفى الخليفة لنفسه السبْيَ الذي فيه من رجال أو نساء أو أطفال ، وكذلك السلاح ، وما عدا ذلك يكون للغانمين لايُساهَمُون فيه . وكان لهم أيضاً أسطول بعَيْذَابَ يتلقّى به الكارم فيما بين عَيْذَابَ وسواكن ، وما حولها خوفاً على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب ، فيحميهم الأسطول منهم ، وكان عدّة هذا الأسطول خمسة مراكب ، ثم صارت إلى ثلاثة ، وكان والي قُوص هو المتولّي لأمر هذا الأسطول ، وربما تولاه أمير من الباب ، ويحمل إليه من خزائن السلاح ما يكفيه .

وأما سَيْرُهم في رعيتهم ؛ واستمالة قلوب مخالفيهم ،

فكان لهم الإقبال على من يَفِدُ عليهم من أهل الأقاليم جلّ أو دَقّ ، ويقابلون كل أحد بما يليق به من الإكرام ، ويعوّضون أرباب الهدايا بأضعافها . وكانوا يتألّفون أهل السُّنّة والجماعة ويمكّنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ، ولا يمنعون من إقامة صلاة التّراويح في الجوامع والمساجد على مخالفة معتَقَدهم في ذلك (١) بذكر الصحابة رضوان الله عليهم ؛ ومذاهب مالك والشافعي وأحمد ظاهرة الشِّعار في مملكتهم ، بخلاف مذهب أبي حنيفة ، ويُراعُون مذهب مالك ، ومَنْ سألهم الحكم به أجابوه ، وكان من شأن الخليفة أنه لايكتب في علامته إلا « الحمد لله رب العالمين » ، ولا يخاطب أحداً في مكاتبته إلا بالكاف حتّى الوزير صاحب السيف ، وإنما المكاتبات عن الوزير هي التي تتفاوت مراتبها ؛ ولا يخاطب عنهم أحدٌ إلا بنعت مقرّر له ودعاء معروف به ؛ ويراعون من يموت في خدمتهم في عقبه ، وان كان له مرتب نقلوه إلى ذرّيته من رجال أو نساء .

* * *

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

الجملة السابعة

في إجراء الأرزاق والعطاء لأرباب الخدم بدولتهم وما يتصل بذلك من الطعمة

أمّا إجراء الأرزاق والعطاء : فقد تقدّم أن ديوان الجيوش كان عندهم على ثلاثة أقسام : قسم يختص بالعرض وتحلية الأجناد وشِيات دوابِّهم ، وقسم يختص بضبط إقطاعات الأجناد ، وقسم يختص بمعرفة ما لكل مرتزق في الدولة من راتب وجار وجراية ، ولكل من الثلاثة كُتّابٌ يختصون بخدمته . والقسم الثالث هو المقصود هنا ؛ وكان راتبهم فيه بالدنانير الجَيْشية ، وكان يشتمل على ثمانية أقسام :

الأوّل : فيه راتب الوزير وأولاده وحاشيته .

فراتب الوزير في كل شهر خمسة آلاف دينار ، ومَنْ يليه من ولد أو أخ من ثلاثمئة دينار إلى مائتي دينار ، ولم يقرّر لولد وزير خمسُمائة دينار سوى الكامل بن شاور ، ثم حواشيه من خمسمائة دينار ، إلى أربعمائة دينار ، إلى ثلاثمئة دينار خارجاً عن الإقطاعات .

الثاني : فيه حواشي الخليفة .

فأوّلهم الأستاذُون المحنكون على رُتَبِهِمْ . فزِمَامُ القصر ، وصاحبُ بيت المال ، وحامل الرسالة ، وصاحب الدفتر ، وشادُّ التاج ، وزِمَامُ الأشراف الأقارب . وصاحب المجلس ، لكل واحد منهم في الشهر مائة دينار ، ثُمَّ مَنْ دونهم من تسعين ديناراً إلى عشرة دنانير على تفاوُت الرُّتَب . وفي هذا طبيبا الخاص ، ولكل واحد منهما في الشهر خمسون ديناراً ، ولمن دونهما من الأطباء المقيمين بالقصر لكل واحد عشرة دنانير .

الثالث : فيه أرباب الرُّتَب بحضرة الخليفة .

فأوّل مسطور فيه كاتبُ الدَّسْت ، وهو المعبّر عنه الآن بكاتب السرّ ؛ وله في الشهر مائة وخمسون ديناراً ، ولكل واحد من كُتّابه ثلاثون ديناراً ؛ ثم الموقّع بالقلم الدقيق ، وله مائة دينار ؛ ثم صاحب الباب ؛ وله مائة وعشرون ديناراً ؛ ثم حامل السيف وحامل الرمح ، ولكل منهما سبعون ديناراً ؛ وبقيّة الأزِمّة على العساكر والسودان من خمسين ديناراً ، إلى أربعين ديناراً ، إلى ثلاثين :

الرابع : فيه قاضي القضاة ، وله في الشهر مائة دينار ؛ وداعي الدُّعاة وله مثله ؛ وقُرَّاء الحضرة ، ولكل منهم عشرون ديناراً ، إلى خمسة عشر ديناراً ، إلى عشرة .

الخامس : فيه أرباب الدواوين ومن يجري مَجْراهم . فأوّلهم مُتَوَلِّي ديوان النظر ، وله في الشهر سبعون ديناراً ؛ ثم متولي ديوان التحقيق ، وله خمسون ديناراً ؛ ثم متولي ديوان المجلس ، وله أربعون ديناراً ؛ ثم متولي ديوان الجيوش ، وله أربعون ديناراً ؛ ثم صاحب دفتر المجلس ، وله خمسة وثلاثون ديناراً ؛ ثم الموَقِّع بالقلم الجليل القائم مقام كاتب الدَّرْج الآن ، وله ثلاثون ديناراً . ولكل مُعِين عشرة دنانير ، إلى سبعة ، إلى خمسة .

السادس : فيه المستخدمون بالقاهرة ومصر في خدمة واليهما ، ولكل واحد منهما خمسون ديناراً ؛ وللحُمَاة بالأهراء والمُنَاخات والجوالي والبساتين والأملاك وغيرها لكل منهم مايقوم به من عشرين ديناراً ، إلى خمسة عشر ، إلى عشرة ، إلى خمسة .

السابع : فيه عدّة الفرّاشين برسم خِدْمَةِ الخليفة والقصور وتنظيفها خارجاً وداخلاً ونصب الستائر المحتاج إليها والمناظر الخارجة عن القصر ، ولكل منهم في الشهر ثلاثون ديناراً فما حولها ؛ ثم مَنْ يليهم من الرشّاشين داخل القصر وخارجه وهم نحو ثلاثمئة رجل ، ولكل منهم من عشرة دنانير إلى خمسة .

الثامن : فيه الركابية ومقدّموهم ، ولكل من مقدّميهم في الشهر خمسون ديناراً ؛ وللركابية من خمسة عشر ديناراً إلى عشرة إلى خمسة .

وأما الطُّعمة فعلى ضربين :

الضرب الأول

الأسمطة التي تمدّ في شهر رمضان والعيدين

أما شهر رمضان فإن الخليفة كان يرتّب بقاعة الذهب بالقصر سِماطاً في كل ليلة من استقبال الرابع منه ، وإلى آخر السادس والعشرين منه ، ويستدْعي الأمراء لحضوره في كل ليلة بالنَّوْبة ، يحضرُ منهم في كل ليلة

قومٌ كي لايحرمَهم الإفطار في بيوتهم طول الشهر ، ولا يكلّف قاضي القضاة الحضورَ سوى ليالي الجُمَع توقيراً له ، ولا يحضرُ الخليفة هذا السِّماط ، ويحضر الوزيرُ فيجلس على رأس السماط . فان غاب قام ولده أو أخوه مقامه . فإن لم يحضر أحدٌ منهم ، وكان صاحبُ الباب عِوضَه . وكان هذا السّماط من أعظم الأسمطة وأحسنها ، يُمَد من صدر القاعة إلى مقدار ثلثيها بأصناف المأكولات والأطعمة الفاخرة ؛ ويخرجون من هنالك بعد العشاء الآخرة بساعة أو ساعتين ، ويفرّق فضلُ السماط كلَّ ليلة ، ويتهاداه أرباب الرسوم حتى يصل إلى أكثر الناس . وإذا حضر الوزير بعث الخليفة إليه من طعامه الذي يأكل منه تشريفاً له ، وربما خصه بشيء من سَحُوره .

* * *

وأما سِماط العيدين فانه يمدّ في عيد الفطر وعيد الأضحى تحت سرير الملك بقاعة الذهب المذكورة أمام المجلس الذي يجلس فيه الخليفة الجلوسَ العامَّ أيام

المواكب ، وتنصب على الكرسيّ مائدة من فضة تعرف بالمدوّرة ، وعليها من الأواني الذهبيات والصينيّ الحاوية للأطعمة الفاخرة مالايليق إلا بالملوك ؛ وينصب السّماط العامّ تحت السرير من خشب مدهون في طول القاعة في عرض عشرة أذرع ، وتفرش فوقه الأزهارُ المشمومة ، ويُرَصّ الخبز على جوانبه، كل شابورة ثلاثة أرطال من نقيّ الدقيق ؛ ويعمر داخل السماط على طوله بأحد وعشرين طبقاً عظاماً ، في كل طبق أحد وعشرون خروفاً من الشّويّ ، وفي كل واحد منها ثلاثمئة وخمسون طيراً من الدّجاج والفراريج وأفراخ الحمام ، ويعبى مستطيلا في العلوّ حتّى يكون كقامة الرجل الطويل ، ويسوّر بتشاريح الحلواء اليابسة على اختلاف ألوانها ، ويُسدّ خلل تلك الأطباق على السماط نحوٌ من خمسمائة صحن من الصحون الخزَفية المترعة بالألوان الفائقة (١) ، وفي كل منها سبع دجاجات من الحلواء المائعة والأطعمة الفاخرة ؛ ويعمل بدار الفطرة الآتي ذكرها قصران من

(١) عبارة المقريزي « من الصحون الخزفية » التي في كل منها سبع دجاجات وهي مترعة الخ .

حلوى .زنة كل منها سبعة عشر قنطاراً في أحسن شكل . عليها صُوَر الحيوان المختلفة ، ويحملان إلى القاعة فيوضعان في طرفي السماط . ويأتي الخليفة راكباً فيترجّل على السرير الذي قد نصبت عليه المائدة الفضة ، ويجلس على المائدة .وعلى رأسه أربعة من كبار الأستاذين المحنكين ، ثم يستدعي الوزيرَ وحده فيطلعُ ويجلس على يمينه بالقرب من باب السرير ، ويشير إلى الأمراء المطوّقين فمن دونهم من الأمراء ، فيجلسون على السِّماط على قدر مراتبهم فيأكلون ، وقرّاءُ الحضرة في خلال ذلك يقرؤون القرآن . ويبقى السماط ممدوداً إلى قريب من صلاة الظهر حتى يستهلك جميع ماعليه أكلاً وحملاً ، وتفرقةً على أرباب الرسوم .

الضرب الثاني

فيما كان يعمل بدار الفطرة في عيد الفطر

وكان لهم الاهتمام العظيم . وقد ذكر ابن عبد الظاهر أصنافها فقال : كانت ألف حملة دقيق ، وأربعمائة(١)

---

(١) في المقريزي والنجوم الزاهرة (ج ٤ ص ١٢٢) : « سبعمائة »

قنطار سُكّر ، وستة قناطير فُسْتُق ، وأربعمائة وثلاثين إردب زبيب ، وخمسة عشر قنطاراً عسل نحل : وثلاثة قناطير خل ، وإردبين سمسم ، وإردبين أنيسون وخمسين رطلاً ماء ورد ، وخمس نوافج (١) مسك ، وكافور قديم عشرة مثاقيل ، وزعفران مطحون مائة وخمسون درهماً ، وزيت برسم الوقود ثلاثون قنطاراً . في أصناف أخرى يطول ذكرها . قال ابن الطوير : ويندب لها مائة صانع من الحلاويين ، ومائة فرّاش برسم تفرقة الطوافير على أصحاب الرسوم خارجاً عمن هو مرتّب فيها ؛ ويحضرها الخليفة والوزير معه فيجلس الخليفة على سريره فيها ، ويجلس الوزير على كرسي له ؛ في النصف الأخير من رمضان ، وقد صار مالها من المستعملات كالجبال الرواسي ، فتفرّق الحلوى من رُبْع قنطار إلى عشرة أرطال إلى رطل واحد ، والخشكنان من مائة حبة إلى خمس وسبعين حبة ، إلى ثلاث وثلاثين

(١) النوافج : جمع نافجة ، والنافجة ، وعاء المسك وهي الجلدة التي يجتمع فيها .

إلى خمس وعشرين، إلى عشرين، ويفرّق على السودان على يد مقدّمهم بالأفراد من تسعة إلى سبعة، إلى خمسة، إلى ثلاثة. كل طائفة على مقدارها(١) بسماط يوم الفطر مايمدّ في الإيوان الكبير قبل مدّ سماط الطعام بقاعة الذهب. وقد وقع في كلام ابن الطوير خُلفٌ في وقته، فذكر في موضع من كتابه أن ذلك يكون قبل ركوب الخليفة لصلاة العيد، وذكر في موضع آخر أن ذلك يكون بعد حضوره من الصلاة.

* * *

الطرف الثامن

في جلوس الوزير للمظالم إذا كان صاحب سيف، وترتيب جلوسه

يجلس الوزير في صَدْر المكان، وقاضي القضاة مقابِلَه، وعن جانبيه شاهدان من المعتبرين، وكاتب الوزير بالقلم الدقيق، ويليه صاحب ديوان المال؛ وبين يديه صاحب الباب وأسفهسلارٌ، وبين أيديهما النواب والحُجّاب على طبقاتهم. وذلك يومان في الأسبوع.

---

(١) هنا بياض بالأصل المخطوط. ولعله (وقد كان سماط يوم الفطر يمد ...) الخ.

وقد رثاهم عُمارة اليمنيّ بعد انقراضهم واستيلاء السلطان صلاح الدين بن أيوب على المملكة بقصيدة وصف فيها مملكتهم ، وعدّ مواكبهم ، وحكى مكارمهم ، وجلّى محاسنهم ، وهي :

رمَيْتَ يادَهْرُ كفَّ المَجْدِ بالشّلَلِ
وجيدَهُ بعد حُسْنِ الحَلْيِ بالعَطَلِ

سَعَيْتَ في مَنْهَجِ الرّأيِ العَثُورِ فإنْ
قدَرْتَ من عثراتِ الدّهْرِ فاستقِلِ

جَدَعْتَ مَارِنَكَ الأقْنى فأنْفُكَ لا
ينفَكُّ مابين أمْرِ الشَّينِ(١)والخجلِ

هَدَمْتَ قاعِدَةَ المعرُوف عن عَجَلٍ
شَقيتَ ، مَهْلاً أمَا تَمْشي على مَهَلِ

لَهْفي ولَهْفَ بني الآمَالِ قاطِبَةً
على فَجيعتِها في أكرم الدُّوَلِ

(١) في الخطط للمقريزي « قرع السن » .

قَدِمْتُ مصرَ فأَوْلَتْنِي خلائِفُهَا
من المكارِمِ ما أَرْبى على أملي

قَوْمٌ عرفتُ لهم كَسْبَ الألوفِ، ومِنْ
كمالِهَا أنها جاءتْ ولم أسَلِ

وكُنْتُ من وُزَرَاءِ الدَّستِ حيثُ سَمَا
رأسُ الحِصانِ بِهَادِيهِ على الكَفَلِ

ونِلْتُ من عُظَمَاءِ الجيش تَكْرِمَةً
وخُلَّةً حُرِسَتْ من عَارِضِ الخَلَلِ

ياعاذلي في هوى أبْنَاءِ فاطِمَةٍ
لَكَ المَلامَةُ إن قَصَّرْتَ في عَذَلِي

بالله ! زُرْ ساحةَ القَصْرَيْن وَابكِ مَعِي
عَلَيْهِما لا على صِفِّينَ والجَمَلِ !

وقُلْ لأهلِيهما : واللهِ ما التَحَمَتْ
فيكم جُرُوحِي ولا قَرْحِي بمُنْدَمِلِ

ماذا تَرى كانتِ الإفرنْجُ فاعِلَةً
في نَسْلِ آلِ أميرِ المؤمنينَ علي

هَلْ كَانَ فِي الأمرِ شيءٌ غير قسمَة ما
مَلَكْتُمُو بَيْنَ حُكْمِ السَّبْي والنفلِ (١)

وقَدْ حَصَلْتُمْ عليها ، واسمُ جَدِّكُمُ
محمدٌ وأبُوكُمْ خَيْرُ مُنْتَعِلِ

مررتُ بالقَصْرِ والأركَانُ خَالِيَةٌ
من الوُفُودِ وكانتْ قِبْلَةَ القُبَلِ

فَمِلتُ عَنْهَا بِوَجْهٍ خَوفَ مُنْتَقِدٍ
من الأعادي ، وَوَجْهُ الوُدِّ لم يَمِلِ

أسْبَلْتُ من أسَفي دَمْعِي غَدَاة خلت
رِحَابُكُمْ وَغدَتْ مَهْجُورَةَ السُّبُلِ

أبْكِي على مَآثِرَاتٍ من مكَارِمِكُمْ
حَالَ الزَّمَانُ عَليها وهْيَ لمْ تَحُلِ

(دارُ الضِّيافةِ) كانتْ أُنْسَ وَافدِكُمْ
واليَوْمَ أوْحَشُ من رَسْمٍ ومن طَلَلِ

---

(١) هذا البيت من خطط المقريزي . والنكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية لعمارة اليمني (ص ١١٣ طبع أوربا) .

وَ(فِطْرَةُ الصَّوْمِ) إذ أَضْحَتْ مَكَارِمُكُمْ
تَشْكُو من الدَّهْرِ حَيْفاً غيرَ مُحتمَلِ

وَ(كُسْوَةُ الناسِ) في الفَصْلَيْنِ قد دَرَسَتْ
وَرَثَّ منها جَدِيدٌ عندهم وَبَلِي

وَمَوْسِمٌ كان في (يوم الخليج) لَكُمْ
يَأْتِي تَجَمُّلُكُمْ فيه على الجَمَلِ

وَ(أَوَّلُ العامِ) وَ(العيدينِ) كَمْ لَكُمُ
فِيهِنَّ من وَبْلِ جُودٍ ليس بالوَشَلِ

والأرضُ تَهْتَزُّ في (يوم الغدير) كما
يهتز ما بين قَصْرَيْكُمْ من الأَسَلِ

والخَيْلُ تُعْرَضُ في وَشْيٍ وفي شِيَةٍ
مثلَ العَرائسِ في حَلْيٍ وفي حُلَلِ

وما حَمَلْتُمْ قِرى الأضيافِ من سَعَةِ الـ
أطباقِ إلا على الأكتافِ والعَجَلِ

وما خَصَصْتُمْ بِبِرٍّ أهلَ مَمْلَكَةٍ
حتى عَمَمْتُمْ به الأقصى من المِلَلِ

كانتْ رَوَاتِبُكُمْ للوافدين وللضـ ...

... يْفِ المُقيم والطَّارِي من الرُّسلِ

ثم (الطِّرَازُ) بِتنّيسَ الذي عَظُمَتْ

منه الصِّلاَت لأهل الأرض والدُّوَلِ

وللجَوامع من أخْمَاسكم (١) نِعَمٌ

لمن تَصدَّرَ في عِلْم وفي عَمَلِ

ورُبَّمَا عادتِ الدُّنْيا فَمعقِلُها

منكم وأضْحَتْ بكم محلُولَةَ العُقُلِ

واللهِ ! لافَازَ يومَ الحَشْرِ مُبْغِضكُمْ

ولا نَجا من عذاب النارِ غيرُ وَلِي

ولا سُقِي الماءَ من حَرٍّ ومن ظَمإٍ

من كَفِّ خير البَرَايَا خاتِمَ الرُّسُل

ولاَ رأى جنةَ اللهِ التي خُلِقَتْ

مَنْ خان عَهْدَ الإمامِ العَاضِد بنعلي(٢)

---

(١) فيخطط المقريزي والنكت العصرية فيأخبار الوزراء المصرية لعمارة اليمني : « من إحسانكم » وهي أوضح .

(٢) أضفناهذاالبيتمن كتابي النكت العصرية وخطط المقريزي.

أئمتي وهداتي والذخيرة لي
إذا ارتهنت بما قدمت من عمل

والله لم نوفهم في المدح حقهم !
لأن فضلهم كالوابل الهطل

ولو تضاعفت الأقوال واستبقت
ما كنت فيهم بحمد الله بالخجل

باب النجاة هم دنيا وآخرة
وحبهم فهو أصل الدين والعمل

نور الدجى ومصابيح الهدى وهم
من نور خالص نور الله لم يغل

والله لازلت عن حبي لهم أبداً
ما أخر الله لي في مدة الأجل

قلت : وعمارة هذا لم يكن على معتقد الشيعة بل فقيهاً شافعياً ، قدم مصر برسالة عن القاسم بن هاشم بن أبي فليتة أمير مكة إلى الفائز أحد خلفائهم في سنة خمسين وخمسمائة في وزارة الصالح طلائع بن

رُزّيك ، فأحسنوا له وبالغوا في بره . فأقام عندهم وتألف بهم ، وأتى فيهم من المدح بما بَهرَ العقول ، ولم يزل موالياً لهم حتّى زالت دولتهم واستولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله ، فرثاهم بهذه القصيدة ، فكانت آخر أسباب حتفه ، فصلب فيمن صُلِب بين القصرين من أتباع الدولة الفاطمية .

* * *

الحالة الثالثة

من أحوال المملكة . ما عليه ترتيب المملكة

من ابتداء الدولة الأيوبية وإلى زماننا

واعلم أن الدولة الأيوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلفتها في الديار المصرية ، خالفتها في كثير من ترتيب المملكة ، وغيّرت غالب معالمها ، وجرت على ما كانت عليه الدولة الأتابكية ، عماد الدين زنكي بالموصل ، ثم ولده الملك العادل نور الدين محمود بالشام وما معه ؛ وكان من شأنهم أنهم يلبسون الكلوتات الصُّفْر على رؤُوسهم مكشوفةً بغير عمائم ، وذوائب شعورهم مُرْخاةٌ تحتها ، سواء في

ذلك المماليك والأمراء وغيرهم . حتّى يحكى عن الملك المعظم عيسى بن العادل أبي بكر صاحب دِمَشْقَ في اطّراح التكلف : أنه كان يلبس الكلوتة الصفراء بلا شاش، ويخترق الأسواقَ من غير أن يُطَرَّقَ بين يديه كغيره من الملوك ، وكان سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي حين ملك المَوْصل بعد أبيه أحدث حمل السّنّجَق على رأسه ، فتبعه الملوك على ذلك ؛ وألزم الأجناد أن يشدّوا السيوف في أوساطهم ، ويجعلوا الدّبابيس تحت رُكَبِهم عند الركوب كما حكاه السلطان عماد الدين صاحب حَمَاة في تاريخه .

فأما ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه الله، الديار المصرية ، جرى على هذا المنهج أو ماقارَبَه ، وجاءت الدولة التركية ، وقد تنقحت المملكة وتَرَتّبَتْ ، فأخذت في الزيادة في تحسين الترتيب وتنضيد الملك وقيام أُبّهَتِه ، ونقلت عن كل مملكة أحْسَنَ مافيها ، فسلكت سبيلَه ونَسَجَت على منواله حتّى تهذّبت وترتبت أحسنَ ترتيب ، وفاقت سائرَ الممالك ، وفَخَرَ مَلِكُها على سائر المُلوك .

ولم يزل السلطان والجُنْد يلبسون الكلوتة الصفراءَ بغير عمامة إلى أن وَلِيَ السلطانُ الملك الأشرف خليل » ابن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون السلطنةَ ، فأحدث الشاشَ عليها فجاءت في نهاية من الحسن ، وصاروا يلبسونها فوق الذَّوائب الشعر المُرْخاةِ على ما كان عليه الأمر أوّلا إلى أن حَجَّ السلطانُ الملك الناصر محمد ابن قلاوون في سلطنته الثالثة ، فحلق رأسه وحلق الناسُ رؤُوسَهم ، واستداموا حلق رؤُوسهم وتركت ذوائب الشعر إلى الآن .

ويتعلق القول من ذلك بعدة مقاصد .

المقصد الأوّل

في ذكر رسوم الملك وآلاته ؛ وهو أنواع كثيرة ، بعضها عامّ في الملوك أو أكثرهم ، وبعضها خاصٌ بهذه المملكة

منها (سرير الملك) ويقال له تخت الملك . وهو من الأمور العامة للملوك ، وقد تقدّم أن أوّل من اتخذ

مرتبة للجلوس عليها في الإسلام معاويةُ رضي الله عنه حين بَدنَ . ثم تنافس الخلفاء والملوك بعده في الإسلام في ذلك حتّى اتخذوا الأَسِرَّةَ ، وكانت أسِرّةُ خلفاء بني العباس ببغداد يبلغ علوّها نحوَ سبعة أذرعٍ . وهو في هذه المملكة مِنْبر من رُخام بصَدر إيوان السلطان الذي يجلس فيه ، وهو على هيئة منابر الجوامع إلا أنه مستند إلى الحائط . وهذا المِنْبَرُ يجلس عليه السلطان في يوم مُهمٍّ كقدوم رُسُل عليه ونحو ذلك ؛ وفي سائر الأيام يجلس على كرسيٍّ من خشب مغشى بالحرير ، إذا أرخى رجليه كادتا أن تلْحقا الأرض ، وفي داخل قصوره يجلس على كرسيٍّ صغير من حديد يحمل معه إلى حيث يجلس .

ومنها (المقصورة) للصلاة في الجامع . وقد تقدّم في الكلام على ترتيب الخلافة أن أوّل مَنِ اتخذها في الإسلام معاويةُ ، وقد صارت سُنّةً لملوك الإسلام بعد ذلك تمييزاً للسلطان عن غيره من الرعية ، وهي في هذه المملكة مقْصُورَةٌ بجامع قلعة الجبل على القرب من المِنْبَرِ

متّخذةٌ من شباك حديد محكمةِ الصنعة ، يصلّي فيها السلطان ومَنْ معه من أخصاء خاصكيته يوم الجمعة .

ومنها (نَقْشُ اسم السلطان) على ما يُنْسَجُ ويُرْقَمُ من الكِسْوة والطُّرُزِ المتخذة من الحرير أو الذهب بلون مخالف للون القماش أو الطرز لتصير الثياب والطرز السلطانية مميّزة عن غيرها ، تنويهاً بقدر لابسها : من السلطان أو مَنْ يُشَرِّفُه بلبسها عند ولاية وظيفة أو إنعام أو غير ذلكَ . ولذلك دارٌ مفردة بعمله بالإسْكَنْدَرِيةِ تعرفُ بدار الطِّراز ، وعلى ذلك كانت خلفاء الدولتين : بني أُمَيّةَ وبني العبّاس حين كانت الخلافة قائمةً .

ومنها (الغاشيَة) . وهي غاشية سرج من أديم مخروزةٌ بالذهب ، يَخَالها الناظر جميعَها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يديه عند الركوب في المواكب الحَفلة كالميادين والأعياد ونحوها ، يحملها الرِّكَاب داريّة ، رافعاً لها على يديه يلفتها يميناً وشمالا ، وهي من خواص هذه المملكة .

ومنها (المِظَلّة) . ويعبر عنها بالجتْرِ (بجيم

مكسورة ، قد تبدل شيناً معجمة ، وتاء مثناه فوق) ؛ وهي قُبَّةٌ من حرير أصفر مزركَش بالذهب ؛ على أعلاها طائرٌ من فِضَّةٍ مَطْلِيّةٍ بالذهب ، تحمل على رأسه في العيدين . وهي من بَقايا الدولة الفاطمية ، وقد تقدّم الكلام عليها مبسوطاً في الكلام على ترتيب مملكتهم .

ومنها (الرَّقَبة) . وهي رقبة من أطلس أصفر مزرْكَشةٌ بالذهب بحيث لايُرى الأطلس لتراكم الذهب عليها ؛ تجعل على رقبة الفرس في العيدين والميادين من تحت أذني الفرس إلى نهاية عُرْفِهِ ؛ وهي من خواصّ هذه المملكة .

ومنها (الجفتة) . وهما اثنان من أوشاقية إصطبله قريبان في السنّ ، عليهما قَبَاءان أصفران من حرير بِطراز من زَرْكش ، وعلى رأسيهما قُبّعتَان من زركش ، وتحتهما فرسان أشهبان برقبتين وعُدّة ، نظير ما السلطان راكب به كأنهما معدّان لأن يركبهما ، يركبان أمامه في أوقات مخصوصة كالركوب للعب الكُرة في الميدان الكبير ونحو ذلك ، وهما من خواصّ هذه المملكة .

ومنها (الأعلام) . وهي عدّة رايات . منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرّزة بالذهب ، عليها ألقاب السلطان واسمه . وتسمّى العِصَابة ؛ وراية عظيمة في رأسها خُصْلة من الشعر تسمّى الجاليش ، ورايات صُفْر صغار تسمّى السّناجق .

قال السلطان عماد الدين صاحب حَماةَ في تاريخه : وأوّل من حُمِلَ السنجق على رأسه من الملوك في ركوبه غازي بن زنكي ؛ وهو أخو السلطان نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام .

ومنها (الطبلخاناه) . وهي طبول متعدّدة معها أبواق وزمر (١) تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص ، تَدُقّ في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب ، وتكون صحبة الطُّلْبِ في الأسفار والحروب ، وهي من الآلات العامّة لجميع الملوك . ويقال إن الإسْكَنْدَرَ كان معه أربعون حِمْلاً طبلخاناه ، وقد كتب أرسطو في « كتاب السياسة » الذي كتبه للإسْكَنْدَرِ أن السرّ في ذلك إرهابُ

(١) لعله وزمارات .

العدوّ في الحرب . والذي ذهب إليه بعض المحققين أن السرّ في ذلك أن في أصواتها تهييجاً للنفس عند الحرب وتقويةَ الجأش كما تنفعل الإبل بالحُدَاء ونحو ذلك .

ومنها (الكُوسات) . وهي صُنُوجات من نُحاس شبه التُّرس الصغير ، يُدَقّ بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ، ومع ذلك طبولٌ وشَبّابة ، يدق بها مرتين في القلعة كل ليلة ، ويُدَار بها في جوانبها مرةً بعد العشاء الآخرة ، ومرةً قبل التسبيح على الموادن (١) ، وتسمّى الدَّوْرة بذلك في القلعة ، وكذلك إذا كان السلطان في السفر تدور حول خيامه .

ومنها (الخيام والفسَاطيط) في الأسفار . ولهذا السلطان من ذلك المَدَد الكبير ، تتخذ له الخيام العظيمةَ الشأْنِ المختلفةُ المقاديرِ والصنعة من القطن الشاميّ الملوّن بالأبيض والأحمر والأزرق وغيرها ، وكذلك من الجوخ المختلف الألوان مما يُدْهِشُ بحسنه العقولَ ؛ لينوب مَنَاب قصورهم في الإقامة ، وسيأتي ذكر أمور أخرى

---

(١) صوابه المآذن . وكثيراً مايجاري المؤلف القلقشندي لغة العامة .

من آلات الملك سوى ماتقدّم منفردة في أماكنها إن شاء الله تعالى .

* * *

المقصد الثاني

(في حواصل السلطان ، وهي على أربعة أنواع)(١)

النوع الأوّل

(الحواصل المعبَّر عنها بالبيوت)

وذلك أنهم يضيفون كل واحد منها إلى لفظ خاناه كالطشت خاناه ، والشراب خاناه ونحوهما ؛ وخاناه لفظ فارسيّ معناه البيت ، والمعنى بيت كذا إلا أنهم يؤخرون المضاف عن المضاف إليه على عادة العجم في ذلك ، وهي ثمانية بيوت .

الأوّل : (الشّرَاب خاناه) . ومعناها بيت الشراب وتشتمل على أنواع الأشْرِبة المُرْصَدَةَ لخاصّ السلطان ، والمشروبِ الخاص من السكر والأقْسِما وغير ذلك ،

---

(١) يظهر أن هذا التنويع من ناسخ الكتاب فانه في الضوء اللامع لم يذكر التنويع ، وإنماقسم الحواصل إلى البيوت الثمانية فقط ثم اتبعها بالمقصد الثالث .

وفيها يكون السكر المخصوص بالمشروب ، وبها الأواني النفيسةُ من الصِّيني الفاخر من اللاَّزَوَرْدِيّ وغيره مما تساوي السُّكُرُّجة الواحدة اللطيفة منه ألفَ درهم فما حوله . ووظيفة الشادّ بها تكون لأمير من أكابر أمراء المِئين الخاصكية المؤتمنين ، ولها مِهْتار يعرف بمهتار الشراب خاناه متسلمٌ لحواصلها ، له مكانة علية ، وتحت يده غِلْمَانٌ عنده برسم الخِدْمة . يُطْلَق على كل منهم شَراب دار ، وسيأتي في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة معنى الإضافة إلى الدار في ذلك ونحوه .

الثاني : (الطِّشْت خَانَاه) . ومعناه بيت الطشت ، سميت بذلك لأن فيها يكون الطِّشْت الذي تغسل فيه الأيدي، والطِّشْت الذي يُغسَل فيه القماش ، وقد غلب عليهم استعمال لفظ الطشت بشين معجمة مع كسر الطاء ، وصوابه بالسين المهملة مع فتح الطاء ، وأصله طَسّ بسين مشدّدة فأبدلت من إحدى السينين تاء للاستثقال . فاذا جُمعَ أو صُغِّرَ ، ردّت السين إلى أصلها ، فيقال في الجمع طساس وطُسُوس ، وفي التصغير طُسَيْس . قال الجوهريّ : ويقال فيه أيضاً طَسّة ، ويجمع على

طَسَّات . والناس الآن يقولون طاسة ويجمعونه على طاسات ويجعلون الطَّسْتَ اسماً لنوع خاص ، والطاسةَ اسماً لنوع خاص .

وفي الطِّشْتَ خاناه يكون ما يلبسه السلطان من الكلوتة والأقبية وسائر الثياب والسيف والخُفّ والسُّرموزة وغير ذلك .

وفيها يكون مايجلس عليه السلطان من المَقَاعد والمَخَادّ والسَّجّادات التي يصلِّي عليها وما شاكل ذلك ، ولها أيضاً مِهْتارٌ من كبار المهتارية ، يعرف بمهتار الطِّشْتَ خاناه ، وتحت يديه عدّة غِلْمَانٍ بعضهم يعرفون بالطشتدارية ، وبعضهم يعرف بالرختوانية . وله التحدّث في تفرقة اللحم على المماليك السلطانية من الحوائج خاناه وإقامة قُبّاض اللحم ، ويطلق على كلٍّ من غلمان الطشت خاناه وقُبّاض اللحم بَابَا ، وهي لفظة رومية بمعنى الأب ، أطلقوها على مهتار الطِّشْتَ خاناه تعظيماً له ، ثم غلبت على من عداه ، ولغلمانها دُرْبَةٌ بترتيب الأحمال التي تحمل على ظهور البغال للزينة في المواكب العظيمة

ونحوها ، يأتُون فيها من بديع الصَّنْعة والتعاليق الغريبة بكل عجيب ، وهم يتباهَوْن بذلك ، ويسامِي بعضهم بعضاً فيه .

الثالث : (الفرّاش خاناه) . معناها بيت الفرّاش ، وتشتمل على أنواع الفَرْش من البُسُط والخيام ؛ ولها مِهْتار يعرف بمهتار الفراش خاناه ، وتحت يده جماعة من الغِلْمان مستكثَرَة مرصَدُون للخدمة فيها في السفر والحَضَر يعبر عنهم بالفرّاشين ، وهم من أمْهَرِ الغلمان وأنْهَضِهمْ ، ولهم دُرْبَةٌ عظيمة في نَصْب الخيام حتى إن الواحد منهم ربما أقام الخَيْمة العظيمة ونصبها وحده بغير معاون له في ذلك ؛ ولهم معرفة تامّة بشدّ الأحمال التي تحمل في المواكب على ظهور البغال ، يبلغ الحمل منها نحوَ خمسة عشرة ذراعاً .

الرابع : (السِّلاح خاناه) . ومعناها بيت السلاح ، وربما قيل الزَّرَدْخاناه ومعناها بيت الزَّرَد لما فيها من الدروع الزَّرَد ؛ وتشتمل على أنواع السلاح : من السيوف ، والقِسِيّ العربية ، والنُّشّاب ، والرماح ، والدروع

المتخذة من الزرد المانع ، والقرقلات المتخذة من صفائح الحديد المُغَشّاة بالديباج الأحمر والأصفر . وغير ذلك من الأطبار وسائر أنواع السلاح ، ويقلُّ بها قسيّ الرِّجْل والرِّكَاب لعدم معاناتها بالديار المصرية ، وإنما تكثر بالثغور كالإسْكَنْدَرِيّة وغيرها ، وفي كل سنة يحمل إليها ما يعمل بخزائن السلاح من الأسلحة ، يجعل على رءوس الحَمّالين ويُزَفُّ إلى القلعة ويكون يوماً مشهوداً ، وفي هذه السلاح خاناه من الصُّنّاعِ المقيمين بها لإصلاح العُدَد وتجديد المستعملات جماعة كثيرة ، ويسمّى صانع ذلك الزردكاش ، وهي لفظة عجمية ، وكأن معناها صانع الزرد ، ولها غِلْمان أخرى وفرّاشون بسبب خدمة القُمَاش وافتقاده .

الخامس : (الرِّكَاب خاناه) . ومعناها بيت الركاب ، وتشتمل على عُدَد الخيل من السروج ، واللجم ، والكَنَابيش وعبي المراكيب ، والعبي الإصطبليات ، والأجلال ، والمَخَالي وغير ذلك من الأصناف التي يطول ذكرها ؛ وفيها من السُّروج المغَشّاة بالذهب والفضة المطلية والساذَجة والكَنّابيش المتخَذة من الذهب المزركش المزَهّرة بالريش

وغير المزهرة ، والعبي المُتّخذة من الحرير وصوف السهك (١) . وغير ذلك من نفائس العُدَد والمراكيب مايحير العقول ويُدْهِش البصر ، مما لايقدر على مثله إلا عظماء الملوك . ولها مهتار متسلم لحواصلها يعبر عنه بمهتار الركاب خاناه ، وتحت يده رجال لمعاضَدته على ذلك .

السادس : (الحوائج خاناه) . ومعناها بيت الحوائج ، وليست على هيئة البيوت المتقدّمة ، مشتملةً على حاصل معيّن ، وإنما لها جهة تحت يد الوزير ، منها يصرف اللّحم الراتب للمطبخ السلطانيّ والدور السلطانية ورواتب الأمراء والمماليك السلطانية وسائر الجند والمتعمّمين ، وغيرهم من أرباب الرتب والذين تملأ أسماؤهم الدفاتر ، وكذلك تَوَابلُ الطعام المطبخ السلطانيّ والدور السلطانية ، ومن له تَوابلُ مرتّبة من الأمراء وغيرهم ، والزيت للوقود ، والحبوب ، وغير ذلك من الأصناف المتعدّدة ؛ ولها مباشرون منفردون بها يضْبِطون أسماء أرباب المستحَقّات

---

(١) لم نعثر على حيوان بهذا الاسم ولعله مصحف عن السمند .

ومقاديرَ استحقاقهم ، وهي من أوسع جهات الصرف حتّى إن ثمن اللحم وحده يبلغ ثلاثين ألف درهم في كل يوم خارجاً عما عداه من الأصناف ، وربما زاد على ذلك.

السابع : (المَطْبَخ) . وهو الذي يُطْبَخ فيه طعام السلطان الراتب في الغَدَاء والعَشَاء والطارىء في الليل والنهار والأسمطة التي تمدّ بالإيوان الكبير بدار العدل في أيام المواكب ، ويحمل إليه اللّحم والتوابل وسائر الأصناف من الحوائج خاناه المتقدّمة الذكر بقدر معلوم مرتب ؛ يُستهلك فيه في كل يوم قناطير مقنطرة من اللحم والدّجاج والإوَزّ والأطعمة الفاخرة ؛ وله أمير من الأمراء يحكم عليه يسمّى أستادار الصحبة وتحت يده آخر يعبر عنه بالمُشْرِف ؛ وله طَبّاخ كبير معتبر يعبر عنه باسباسلار .

الثامن : (الطبلخاناه) . ومعناه بيت الطبل ، ويشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات ؛ ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير عَلَم ، يقف عليها عند ضربها في كل ليلة ، ويتولّى أمرها في السّفَر ؛ ولها مهتار متسلم لحواصلها يعرف بمهتار الطبلخاناه ؛

وله رجال تحت يده مابين دبندار : وهو الذي يضرب على الطبل ، ومُنَفِّر وهو الذي يضرب بالبوق ، وكُوسِيّ وهو الذي يضرب بالصنوج النحاس بعضها على بعض وغير أولئك من الصُّنّاع .

* * *

المَقْصِد الثالث

(في ذكر أعيان المملكة وأرباب المناصب
الذين بهم انتظام المملكة وقيام المُلْك ، وهم
على أربعة أضرب)

الضرب الأوّل

(أرباب السيوف ؛ والنظر فيهم من وجهين)

الوجه الأول

(مراتبهم على سبيل الإجمال ؛ وهي على نوعين)

النوع الأوّل

(الأمراء ؛ وهم على أربع طبقات)

الطبقة الأولى : أمراء المِئِين مقدّمو الألوف ، وعدّة كل منهم مائة فارس .

قال في « مسالك الأبصار » : وربما زاد الواحد منهم العشرة والعشرين ؛ وله التَّقْدِمَةُ على ألف فارس ممن دونه من الأمراء ، وهذه الطبقة هي أعلى مراتب الأمراء على تقارب درجاتهم ، ومنهم يكون أكابر أرباب الوظائف والنوّاب . ثم الذي كان استقر عليه قاعدة المملكة في الروك الناصري محمد بن قلاوون . ومابعده إلى آخر الدولة الأشرفية شعبان بن حسين ، أن يكون بالديار المصرية أربعة وعشرون مقدّماً ، ولما استجدّ في الدولة الظاهرية الديوانُ المفرّد لخاص السلطان وأفرد له عدّة كثيرة من المماليك السلطانية والمستخدمين ، نقصت عِدّة المقدّمين عما كانت عليه ، وصارت دائرةً بين الثمانية عشر والعشرين مقدّماً بما في ذلك من نائب الإسْكَنْدَرِيّة ونائبي الوجهين : القبلي والبحريّ .

الطبقة الثانية : أمراء الطبلخاناه ، وعدّة كل منهم في الغالب أربعون فارساً .

قال في « مسالك الأبصار » : وقد يزيد بعضهم على ذلك إلى سبعين فارساً ، بل ذكر في « التعريف » في

أواخر المكاتبات أنه يكون للواحد منهم ثمانون فارساً . قال في « مسالك الأبصار » : ولا تكون الطبلخاناه لأقل من أربعين ، وهذه الطبقة لاضابط لعدّة أمرائها بل تتفاوت بالزيادة والنقص لأنه مهما فرقت إمرة الطبلخاناه فجعلت إمرتي عشرين أو أربع عشرات ، أو ضم بعض العشرات ونحوها إلى بعض وجعلت طبلخاناه ، ومن أمراء الطبلخاناه تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكُشّاف بالأعمال ، وأكابر الولاة .

الطبقة الثالثة : أمراء العشرات ، وعدّة كل منهم عشرة فوارس . قال في « مسالك الأبصار » : وربما كان فيهم من له عشرون فارساً ، ولا يعدّ إلا في أمراء العشرات وهذه الطبقة أيضاً لاضابط لعدد أمرائها بل تزيد وتنقص كما تقدّم في الكلام على أمراء الطبلخاناه ؛ ومن هذه الطبقة يكون صغار الوُلاَة ونحوهم من أرباب الوظائف .

الطبقة الرابعة : أمراء الخمسات . وهم أقل من القليل خصوصاً بالديار المصرية ، وأكثر مايقع ذلك في

أولاد الأمراء المندرجين بالوفاة رعايةً لسَلَفِهم ، وهم في الحقيقة كأكابر الأجناد .

النوع الثاني

(الأجناد ؛ وهم على طبقتين)

الطبقة الأولى : المماليك السلطانية . وهم أعظم الأجناد شأناً ، وأرفعُهم قدراً ، وأشدّهم إلى السلطان قُرْباً ، وأوفرهم إقطاعاً ؛ ومنهم تؤمّر الأمراء رتبة بعد رتبة ، وهم في العِدَّة بحسب ما يُؤْثِره السلطان من الكثرة والقلّة ، وقد كان لهم في زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ثم في أيام السلطان الملك الظاهر برقوق العَدَد الجَمّ والمَدَدُ الوافر لطول مُدَّة ملكهما واعتنائهما بجلب المماليك ومشتراها .

الطبقة الثانية : أجناد الحَلْقة . وهم عدد جَمّ وخلق كثير ، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعمِّمين وغيرهم ، بواسطة النزول عن الإقطاعات ، وقد جرت عادة ديوان الجيش عدم الجمع على الجند كي لا يُحاط

بعدّته ويطلع إليه . قال في « مسالك الأبصار » : ولكل أربعين نفساً منهم مقدّم منهم ، ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر كانت مواقفهم معه ، وترتيبهم في موقفهم إليه . ومن الأجناد طائفة ثالثة يقال لهم البحرية يبيتون بالقلعة وحولَ دهاليز السلطان في السفر كالحرَس ، وأوّل من رتبهم وسماهم بهذا الاسم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب .

الوجه الثاني

(في ذكر أرباب الوظائف من أرباب السيوف
المتقدّم ذكرهم ؛ وهم على نوعين)

النوع الأوّل

(من هو بحضرة السلطان ، وهي خمسة وعشرون
وظيفة)

الأولى : النِّيابة . ويعبر عن صاحبها بالنائب الكافل ، وكافل الممالك الإسلامية . قال في « التعريف » : وهو

يحكُم في كل مايحكم فيه السلطان ويُعلِّمُ في التقاليد والتواقيع والمناشير ، وغير ذلك مما هو من هذا النوع على كل مايُعَلِّمُ عليه السلطان ؛ وسائر النوّاب لايُعلمُ الرجل منهم إلا على مايتعلّق بخاصة نيابته . قال : وهذه رتبة لايخفى مافيها من التمييز . قال في « مسالك الأبصار » : وجميع نوّاب الممالك تكاتبه فيما تُكاتب فيه السلطان ويراجعونه فيه كما يُراجَع السلطان . ويستخدم الجُنْدَ من غير مشاورة السلطان . ويعيِّن أرباب الوظائف الجليلة كالوزارة وكتابة السر ، وقلّ أن لايجاب فيمن يُعيِّنه ؛ وهو سلطانٌ مختصر بل هو السلطان الثاني . وعادته أن يركب بالعسكر في أيام المواكب وينزل الجميعُ في خدمته . فاذا مثل في حضرة السلطان ، وقف في ركن الإيوان . فاذا انقضت الخدمة ، خرج إلى دار النيابة بالقلعة والأمراءُ معه ويجلس جلوساً عاماً للناس . ويحضُره أرباب الوظائف ، ويقف قدّامه الحُجّاب ، وتُقرأ عليه القِصَصُ ، ثم يَمُدُّ السماطَ للأمراء كما يمدّ لهم السلطان فيأكلون وينصرفون . وإذا كانت النيابة قائمة على هذه الصورة ، لم يكن السلطان

يتصدّى لقراءة القِصص ، وسماع الشّكاوى بنفسه .
ويأمر في ذلك بما يرى من كتابة مثال ونحوه ، ولكنه
لايستبدّ بما يكتب من الأبواب السلطانية بنفسه بل يكتب
بإشارته وينبه على ذلك ، وتشمله العلامة الشريفة بعد ذلك .

أمّا ديوان الجيش فانه لايكون له خدمةٌ إلا عنده
ولا اجتماعٌ إلا به . ولا اجتماع لهم بالسلطان في أمر من
الأمور ، وما كان من الأمور المُعْضِلةِ التي لابدّ من
إحاطة علم السلطان بها فانه يُعْلمه بها تارة بنفسه وتارة
بمن يرسله إليه . هذا آخر كلامه في « المسالك » غير أن
هذا النائب يُنَصَّب وتارة يُعَطّلُ جيدُ المملكة منه .
وعلى هذا كان الحال في الأيام الناصرية ابن قلاوون تارة
وتارة وكذا الحال في زماننا . وإذا كان منتصباً ، اختُصَّ
باخراج بعض الإقطاعات دون بعض ، ويكون صاحب
ديوان الجيش هو الملازم له وناظر الجيش ملازم السلطان .

قال في « التعريف » : أمّا نائب الغَيْبة : وهو الذي
يترك (١) إذا غاب السلطان والنائب الكافل ، وليس إلا

---

(١) كذا في الضوء أيضاً. ومراده يترك وشأنه في الحكم .

لإخماد الثوائر وخلاص الحقوق . فحكمه في رسم الكتابة إليه رسم مثله من الأمراء .

الثانية : الأَتَابكيّة . ويعبر عن صاحبها بأَتَابك العساكر . قال السلطان عماد الدين في « تاريخه » : وأصله أطابك ومعناه الولد الأمير ، وأوّل من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السّلْجوقيّ حين فوّض إليه ملكشاه تدبيرَ المملكة سنة خمس وستين وأربعمائة ، ولقبه بألقاب منها هذا ؛ وقيل أطابك معناه أمير أب ، والمراد أبو الأمراء ، وهو أكبر الأمراء المقدّمين بعد النائب الكافل ، وليس له وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهي ، وغايته رِفْعَةُ المَحَلّ وعلوّ المقام .

الثالثة : وظيفة رأس نَوْبة . وموضوعها الحكم على المماليك السلطانية والأخذُ على أيديهم ، وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة أمراء : واحدٌ مقدّم ألف ، وثلاثةٌ طبلخاناه.

الرابعة : إمرة مجلس . وموضوعها (١) وهو

(١) هنا بياض بالأصل المخطوط . ولعل الساقط (وموضوعها تولي أمور مجلس السلطان) .

يتحدث على الأطباء والكحّالين ، ومَنْ شاكلهم ، ولا يكون إلا واحداً .

الخامسة : إمرة سلاح . وأصل موضوعها حمل السلاح للسلطان في المجامع الجامعة ، وصاحبها هو المقدّم على السِّلاح دارية من المماليك السلطانية والمتحدّث في السلاح خاناه السلطانية ، وما يستعمل لها ويقدّم إليها . ولا يكون إلا واحداً من الأمراء المقدّمين .

السادسة : إمرة آخورية . وموضوعها التحدّث على إصطبل السلطان وخيوله ، وعادتها مقدّم ألف يكون متحدّثاً فيها حديثاً عاماً ، وهو الذي يكون ساكناً باصطبل السلطان ، ودونه ثلاثة من أمراء الطبلخاناه . أما أمراء العشرات والجند فغير محصورين .

السابعة : الدّوَادارِيّة .. قال في « مسالك الأبصار » : وموضوعها تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامّة الأمور ، وتقديم القِصَص إليه ، والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف وتقديمُ البريد ، وهو أمير جاندار وكاتب السر ، ويأخذ الخط على عامّة المناشير والتواقيع

والكُتُب . وإذا خرج عن السلطان بكتابة شيء بمرسوم : حمل رسالته وعينت فيما يكتب ، وسيأتي بيان ذلك فيما يكتب بالرسائل في الكلام على قوانين ديوان الإنشاء إن شاء الله تعالى .

وفي هذه الوظيفة عدّةٌ من الأمراء والجُنْد ، وقد كانت في أيام الناصر محمد بن قلاوون وما تلاها ليس فيها أميرٌ مقدّم ألف ، ثم آل الأمر إلى أن صار الأعلى منهم مقدّمَ ألف ، ونائبه طبلخاناه . وأوّل من استقر في وظيفة الدّوادارية من الأمراء الألوف طغيتمر النجميّ في الدولة الناصرية حسن ، ثم صار غالب من يليها ألوف ، وربما كان طبلخاناه أحياناً .

الثامنة : الحُجُوبية . قال في « مسالك الأبصار » : وموضوعها أن صاحبها يُنصفُ بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب إن كان ، وإليه تقديم مَنْ يعرض ومَنْ يرد ، وعَرْضُ الجند وما ناسب ذلك ؛ والذي جرت به العادة خمسة حُجّاب ، اثنان من مقدّمي

الألوف : وهما حاجب الحُجّاب (١) هو المشار إليه من الباب الشريف ، والقائم مقام النائب في كثير من الأمور . واعلم أن هذا الاسم أوّل ماحدث في الدولة الأُمَوِيّة في خلافة عبد الملك بن مروان ، وكان موضوعها إذ ذاك حَجْبَ السلطان عن العامّة ، ويُغلِق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قدره في مواقيته ، ثم تَبِعَهُم بنو العبّاس على ذلك . وقد ذكر السلطان عماد الدين صاحب حماة : أنه كان للمقتدر سبعمائة حاجب . هذا وكانت الخلافة قد أخذت في الضعف ، وهو خلاف موضوعها الآن ، وفيها بملك المغرب معانٍ أخرى يأتي ذكرها عند الكلام على ممالكها إن شاء الله تعالى .

التاسعة : إمرة جاندار . وموضوعها أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان . قال في « مسالك الأبصار » : ويقدّم البريدَ مع الدوادار وكاتب السر . قال : وصاحبها كالمتسلم للباب ، وله به البردداریة وطوائف الركابية والخازندارية.

(١) في الكلام سقط ظاهر ولعل الأصل « حاجب الحجاب ونائبه وحاجب الحجاب هو ..الخ » تأمل .

وإذا أراد السلطان تغرير أحد أو قتله كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة ، وهو المتسلم للزَّرَدْخاناه التي هي أرفع قدراً في الاعتقالات ، ولا تطول مدّة المعتقل بها ، بل إمّا يعجل بتخلية سبيله أو إتلاف نفسه ؛ وصاحب هذه الوظيفة هو الذي يطوف بالزَّفّة حول السلطان في سفره ، وقد جرت العادة أن يكون فيها أميران : مقدّم ألف ، وطبلخاناه ، والمشار إليه هو المقدّم .

العاشرة : الاستادارِيّة . قال في « مسالك الأبصار »: وموضوعها التحدّث في أمر بيوت السلطان كلها من المَطابخ والشّراب خاناه والحاشية والغِلْمان ، وهو الذي يمشي بطلب السلطان ، ويحكم في غِلمانه وباب داره ، وإليه أمر الجاشِنكيرية ، وإن كان كبيرُهم نظيرَه في الإمرة من ذوي المِئين ، وله حديثٌ مطلق وتصرفٌ تامٌ في استدعاء مايحتاجه كلُّ مَنْ في بيت السلطان من النفقات والكساوي (١) وما يجرِي مجرى ذلك للمماليك

(١) جمع الكسوة كساً وكساء . فما في الأصل جار على اصطلاح العامة .

وغيرهم . وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة : واحد مقدّم ألف وثلاثة طبلخاناه ، وربما نقصُوا عن ذلك .

الحاديةَ عشرةَ : الجاشنكيريّة . وموضوعها التحدّثُ في أمر السِّماط مع الاستادار على ماتقدّمت الاشارة إليه ، ويقف على السِّماط مع أستادار الصحبة ، وأكبرهم يكون من الأمراء المقدّمين .

الثانيةَ عشرةَ : الخازندارية . وموضوعها التحدّث في خزائن الأموال السلطانية من نَقْد وقُماش وغير ذلك ، وكانت عادتها طبلخاناه ، ثم استقرّت تقدمة ألف ، ويطالبه في حساب ذلك ناظرُ الخاصّ الآتي ذكره .

الثالثة عشرة : شَدّ الشراب خاناه . وموضوعها التحدّث في أمر الشراب خاناه السلطانية وما عمل إليها من السُّكّر والمشروب والفواكه وغير ذلك ، وتارة يكون مقدّماً ، وتارة يكون طبلخاناه .

الرابعةَ عشرةَ : أستادارية الصحبة . وموضوعها التحدّث على المَطْبَخ السلطانيّ والإشراف على الطعام

والمشي أمامه والوقوف على السِّماط ؛ والعادة أن يكون صاحبها أمير عشرة .

الخامسةَ عشرةَ : تقدمة المماليك . وموضوعها التحدّث على المماليك السلطانية والحكم فيهم ، ولا يكون صاحبها إلا من الخدّام ؛ والعادة أن تكون إمرة طبلخاناه ، وله نائب أمير عشرة .

السادسةَ عشرةَ : زِماميّة الدور السلطانية . وصاحبها من أكبر الخدّام ، وهو المعبر عنه بالزِّمّام ، وعادته أن يكون أمير طبلخاناه .

السابعة عشرة : نِقَابة الجيوش . قال في « مسالك الأبصار »: وهي موضوعة لتحلية الجند في عرضهم ، ومعه يمشي النُّقَباء . وإذا طلب السلطان أو النائب أو الحاجب أميراً أو غيره ، أحضره . قال : وهو كأحد الحُجّاب الصغار ، وله التطلب بالحراسة في الموكب والسفر .

الثامنةَ عشرةَ : المهمندارية . وموضوعها تَلَقّي الرسل الواردين وأمراء العُرْبان وغيرهم ممن يردُ من أهل المملكة وغيرها .

التاسعة عشرة : شَدّ الدواوين . وموضوعها أن يكون صاحبها رفيقاً للوزير متحدّثاً في استخلاص الأموال ، وما في معنى ذلك ، وعادتها إمرة عشرة .

العشرون : إمرة طَبَر . وموضوعها أن يكون صاحبها حاملاً الطّبَر في المواكب ، ويحكم على مَنْ دونه من الطّبَرداريّة ؛ وعادتها إمرة عشرة أيضاً .

الحادية والعشرون : إمرة عَلَم . وموضوعها أن يكون صاحبها متحدّثاً على الطبلخاناه السلطانية وأهلها ، متصرفاً في أمرها ؛ وعادتها إمرة عشرة .

الثانية والعشرون : إمرة شكار . وموضوعها أن يكون صاحبها متحدّثاً في الجوارح السلطانية من الطُّيور وغيرها والصُّيود السلطانية وأحواش الطيور وغيرها ؛ وهي إمرة عشرة .

الثالثة والعشرون : حِراسة الطير . وموضوعها أن يكون صاحبها متحدّثاً على حراسة الطيور من الكَراكي التي هي بصدد أن يصيدها السلطان في الأماكن التي تنزل بها الطيور من المزارع وغيرها ؛ وهي إمرة عشرة .

الرابعة والعشرون : شدّ العمائر . وموضوعها أن يكون صاحبها متكلماً في العمائر السلطانية مما يختار السلطان إحداثَه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار ؛ وهي إمرة عشرة .

الخامسة والعشرون : الولاية . والوُلاَة بالحاضرة على صنفين .

الصنف الأوّل

(وُلاَة الشُّرْطة ، المعروفون في الديار المصرية بوُلاة الحرب ؛ وهم ثلاثة ، بالقاهرة ، والفُسْطَاط المعروف بمصر ، والقَرَافة)

فأما والِي القاهرة ، فيحكم في القاهرة وضواحيها ، وهو أكبر الثلاثة وأعلاهم رتبةً ، وعادته إمرة طبلخاناه .

وأما والِي الفُسطاط ، فيحكم في خاصَّة مصر على نظير ما يحكم والِي القاهرة في بلده ؛ وعادته إمرة عشرة .

وأما والِي القرافة ، فيحكم في القرافة التي هي تُرْبة هاتين المدينتين بمراجعة والِي مصر ؛ وعادته إمرة عشرة .

وقد أضيفت الآن القرافة إلى مصر . وصارت ولاية واحدة وجعلت إمرة طبلخاناه ، ولكنها لاتبلغ شأوَ القاهرة .

الصنف الثاني

(وُلاة القَلْعة ، وهم اثنان)

أحدهما : والِي القلعة ، وهو أمير طبلخاناه ، وله التحدّث على باب القلعة الكبير الذي منه طلوع عامّة العسكر ونزولهم في الفتح والغلق ونحو ذلك .

الثاني : والِي باب القلعة ، وهو أمير عشرة ، وله التحدّث على الباب المذكور وأهله كما لوالي القلعة التحدّث على الباب الكبير المتقدّم ذكره .

* * *

النوع الثاني

(ماهو خارج عن الحضرة السلطانية ، وهم على ثلاث طبقات)

الطبقة الأوّلى

(نُوّاب السلطنة)

والذي بمصر الآن ثلاثُ نيابات ، جميعها مستحدثة عن قُرْب .

الأولى : نيابةُ الإسكندرية . وهي نيابة جليلة تُضاهي نيابةَ طَرَابُلُس وحماةَ وصَفَدَ من المملكة الشامية الآتي ذكرها ، وبها كرسيّ سلطنةٍ ونمجاه سلطانية توضع على الكرسيّ ، ونائبها من الأمراء المقدّمين يركَبُ في المراكب بالشبّابة السلطانية ، ومعه أجناد الحَلْقَة المرتّبون بها ، ويخرج في موكبه إلى ظاهر الإسْكَنْدَريّة خارجَ باب البحر ، ويجتمع إليه الأمراء المسيّرون بها هناك ، ثم يعوذ وهم معه إلى دار النيابة ، ويمُدّ السماط السلطانيّ ، ويأكل عليه الأمراء والأجناد ، ويحضره القضاة ، وتقرأ القِصَص على عادة النيابات ثم ينصرفون .

وكان ابتداء ترتيب هذه النيابة في سنة سبع وستين وسبعمائة في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين حين طَرَق العدوّ المخذول من الفرنج الإسكندريةَ وفتكوا بأهلها وقتلوا

منهم الخلقَ العظيم ونهبوا الأموال الجمّة . وكانت قبل ذلك ولاية تُعدّ في جملة الولايات ، وكان لواليها الرتبة الجليلة والمكانة العلية من أكابر أمراء الطبلخاناه .

الثانية : نيِـَابة الوجه القبليّ . وهي مما استُحْدِث في الدولة الظاهرية برقوق ، وهو في رتبة نيابة الوجه البحري بل أعظم خَطَراً منه ، ومقرّ نيابته مدينة أُسْيوط المتقدّم ذكرها ، وحكمه على جميع بلاد الوجه القبليّ بأسرها ، وهي في الترتيب على ماتقدّم من نيابة الوجه البحريّ ، وكانت قبل ذلك كاشفاً يطلق عليه والِي الوُلاة كما كان في الوجه البحريّ .

الثالثة : نيابة الوجه البحريّ . وهي مما استحدث في الدولة الظاهرية أيضاً ، ونائبها من الأمراء المقدّمين ، وهو في رتبة مقدّم العسكر بغزّة الآتي ذكرها ، ومقرّ نائبها دمنهور مدينة البحيرة المتقدّم ذكرها ؛ وليست على قاعدة النيابات ، بل هي في الحقيقة ولاية حرب كبيرة ، وقد كان القائم بها قبل ذلك كاشفاً يطلق عليه والي الولاة ، ولم يكن له مَقَرّةٌ خاصة .

الطبقة الثانية

(الكُشّافُ)

قد تقدّم أنه قبل النيابة بالوجهين القبليّ والبحريّ كان بها كاشفان ، ولما استقرّت النيابة بهما جعل للوجه البحريّ كاشف من أمراء الطبلخاناه على العادة المتقدّمة ، يتحدث في بلاده ماعدا عَمل البحيرة لقربه من نائب الوجه البحريّ ، وجعل كاشف آخر من رتبته لعمل الفَيُّوم وعطّل من الوالي ، وأضيف إليه عمل البهنسى أيضاً ؛ وسائر الوجه القبليّ أمره راجع إلى نائبه المتقدّم ذكره .

الطبقة الثالثة

(الوُلاَة بالوجهين : القبليّ والبحريّ)

وقد تقدّم ذكر أعمالهما . ومراتب الوُلاة بهما لاتخرج عن مرتبتين .

المرتبة الأولى

(أمراء الطبلخاناه ؛ وهي سبع (١) ولايات بالوجهين : القبليّ والبحريّ)

فأما الوجه القبليّ ففيه أربع وُلاَة من هذه الرتبة .

الأوّل : والي البهنسى ، وهي أقرب ولاة الطبلخاناه بهذا الوجه الآن إلى القاهرة .

الثاني : والي الأُشْمُونين .

الثالث : والي قُوصَ وإخميم ؛ وهو أعظم ولاة الوجه القبليّ حتّى إنه يركب في المواكب بالشّبّابة السلطانية أسوة النوّاب بالممالك .

الرابع : والي أسْوان ، وهو محدَث في الدولة الظاهرية برقوق ، وكانت قبل ذلك مضافة إلى والي قُوص ، وكانت ولاية الفَيُّوم طبلخاناه استقرت كشفاً على ماتقدّم .

أما أسيوط . فلم يكن بها ولاية لكونها كانت مستقرّ والي الولاة بالوجه القبلي ، ثم صارت مستقر النائب به ،

---

(١) لعله ثمان ولايات كما يظهر من عد الولاة بالوجهين .

وسيأتي بيان ما كان ولاية طبلخاناه ، ثم نقل إلى العَشَرات .

وأما الوجه البحريّ ففيه أربعة ولاة من هذه الرتبة .

الأوّل : والي الشرقية ، وهو والي بُلْبَيْس .

الثاني : والي مَنُوف .

الثالث : والي الغربية ، وهو والي المحلة ، ورتبته في الوجه البحري في رِفعة القدر تضاهي رتبة والي قُوص في الوجه القبلي .

الرابع : والي البحيرة ، وهو والي دَمَنْهُور .

وقد تقدّم أن الإسكندرية قبل أن تستقرّ نيابة كان بها والٍ من أمراء الطبلخاناه .

المرتبة الثانية

(من الوُلاَة أمراء العشرات ، وهي سبعة وُلاَة بالوجهين)

فأما الوجه القبلي ففيه ثلاثة ولاة .

الأوّل : والي الجيزة . وقد كان قبل ذلك طبلخاناه ، ثم نقل إلى العشرات .

الثاني : والي إطفيح ، ولم يزل عشرة .

الثالث : والي منفلوط ، وهو وإن كان الآن أمير عشرين فقد تقدّم أن مَنْ دون الأربعين معدود في العشرات. على أنها كانت قبل ذلك ولايةَ طبلخاناه وحُطّت عن ذلك .

وقد كان بِعَيْذابَ في الأيام الناصرية والٍ أميرُ عشرة يولّى من قِبَلِ السلطان. يراجع والي قُوصً في الأمور المهمة .

وأما الوجه البحريّ ، ففيه أربعة وُلاة من هذه الرتبة .

الأوّل : والي قَلْيُوبَ ، ولم تزل ولايتها إمرة عشرة .

الثاني : والي أشْمُومَ ، ولم تزل عشرة أيضاً .

الثالث : والي دِمْيَاطَ .

الرابع : والي قَطْيا ، وكان قبل ذلك طبلخاناه .

* * *

الضرب الثاني

(من أعيان المملكة وأرباب المناصب حَمَلة الأقلام . وهم على نوعين)

النوع الأوّل

(أرباب الوظائف الدّيوانية ، وهي كثيرة للغاية لايسع استيفاؤها ؛ والمعتبر منها مما يجب الاقتصارُ عليه تسعُ وظائف) (١)

الأولى : الوِزَارة . وهي أجلّ الوظائف وأرفعها رتبةً في الحقيقة لو لم تخرج عن موضوعها ويُعْدَل بها عن قاعدتها . قال في « مسالك الأبصار » : وربَّما ثاني السلطان لو أُنْصِفَ وعُرِفَ حقُّه ؛ لكنها لما حدّثت عليها النيابة تأخرت وقَعَدَ بها مكانُها حتى صار المتحدّث فيها كناظر المال لايتعدّى الحديث فيه ، ولا يتسع له في التصرف مجال ، ولا تمتدّ يده في الولاية والعزل لِتَطَلُّع

(١) أوصلها في العد إلى ست وعشرين ومراده أن المهم منها تسع وإن كان قد ذكر أكثر .

السلطان إلى الإحاطة بجزئيات الأحوال . قال : وقد صار يليها أناسٌ من أرباب السيوف والأقلام بأرزاق على قدر الإنفاق ، وقطيعتها أشهر من أن تذكر .

قال : وكان هذا السلطان (يعني الناصرَ محمد بن قلاوون رحمه الله) قد أبطلها ، وصار ما كان يتحدث فيه الوزير منقسماً إلى ثلاثة : ناظرِ المال ، ومعه شادّ الدواوين لتحصيل المال وصرف النفقات ؛ وناظر الخاص لتدبير الأمور العامّة وتعيين المباشرين؛وكاتب السر للتوقيع في دار العدل مما كان يوقّع فيه الوزير مشاورةً واستقلالا . قلت : ولما عادت الوزارة بعد ذلك ، صارت إلى ما كانت عليه من الاقتصار على التحدّث في المال ، وبقيت كتابة السر على ما صارت إليه من التوقيع على القصص بدار العدل وغيرها . ثم إن كان الوزير صاحب قلم ، فهو مستقلّ بمباشرة الوظيفة نظراً وتنفيذاً ومحاسبةً على الأموال ، وإن كان صاحبَ سيفٍ ، كان مقتصراً على النظر والتنفيذ ، وكان أمر الحساب في الأموال راجعاً إلى ناظر الدولة معه .

ثم لوظيفة الوزارة أتباع كثيرة أجلّها نظر الدولة واستيفاء الصُّحبة واستيفاء الدولة .

فأما نظر الدولة ـ وهو المعبر عنه في مصطلح الدواوين المعمورة بالصُّحْبة الشريفة فموضوعها أن صاحبها يتحدّث مع الوزير في كل مايتحدّث فيه. ويشاركُه في الكتابة في كل مايكتبُ فيه ، ويوقّع في كل ما يوقّع فيه الوزير تَبَعاً له . وإن كان الوزير صاحب سيف ، كان ناظر الدولة هو المتحدّثَ في أمر الحسابات ، وما يتعلق بها والوزير مقتصر على النظر والتنفيذ .

وأما استيفاء الصحبة ، فهي وظيفة جليلة رفيعة القدر . قال في « مسالك الأبصار » : وصاحبها يتحدّث في جميع المملكة مصراً وشاماً ، ويكتب مراسيمَ يُعَلِّمُ عليها السلطان ، تارة تكون بما يُعْمَل في البلاد ، وتارة بإطلاقات ، وتارة باستخدامات كبار في صغار الأعمال ، وما يجري مجراه .

قال : وهذا الديوان هو أرفع دواوين الأموال ، وفيه تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية ، وكلٌّ من دواوين الأموال فهو فرعُ هذا الديوان. وإليه يرجع حسابه وتتناهى أسبابه .

وأما استيفاء الدولة ، فهي وظيفة رئيسية ، وعلى متولّيها مدار أمور الدولة في الضبط والتحرير ومعرفة أصول الأموال ووجوه مصارفها ، ويكون فيها مستوفيان فأكثر .

الوظيفة الثانية : كتابةُ السر . قال في «مسالك الأبصار» : وموضوعها قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها وأخذُ خطّ السلطان عليها وتسفيرها ، وتصريف المراسيم وروداً وصدراً ، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها . وقد تقدّم في الكلام على الوزارة أنه صار يوقّع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة مع مراجعة السلطان فيما يحتاج إلى المراجعة فيه ، في أمور أخرى من التحدّث في أمر البريد وتصريف البريدية والقُصّاد ، ومشاركة الدّوادار في أكثر الأمور السلطانية مما تقدّم ذكره مفصلاً . وبديوانه كُتّاب الدَّسْت : وهم الذين يجلسون معه في دار العدل ويقرءون القصص على السلطان ، ويوقّعون عليها بأمر السلطان ، وكُتّاب الدَّرْج : وهم الذين يكتبون الولايات والمكاتبات ونحوها مما يكتب

عن الأبواب الشريفة ، وربما شاركهم كُتّاب الدست في ذلك .

الوظيفة الثالثة : نظر الخاصّ . وهي وظيفة محدّثة ، أحدثها السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » ، رحمه الله ، حين أبطل الوزارة على ما تقدّم ذكره ، وأصل موضوعها التحدّث فيما هو خاصّ بمال السلطان . قال في « مسالك الأبصار » : «وقد صار كالوزير لقربه من السلطان وتصرّفه ، وصار إليه تدبير جملة الأمور وتعيين المباشرين» يعني في زمن تعطيل الوزارة . قال : وصاحب هذه الوظيفة لايقدر على الاستقلال بأمر إلا بمراجعة السلطان . ولناظر الخاصّ أتباع من كُتّاب ديوان الخاصّ كمستوفي الخاص ، وناظر خِزَانة الخاص ونحو ذلك مما لا يسع استيعابه .

الوظيفة الرابعة : نَظَر الجيش . وموضوعُها التحدّث في أمر الإقطاعات بمصر والشام ، والكتابةُ بالكشف عنها ، ومشاورةُ السلطان عليها وأخذُ خطّه ؛ وهي وظيفة جليلة رفيعة المقدار ، وديوانها أوّل ديوان وُضع في الإسلام بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم في خلافة عمرَ . قال الزُّهْري :

قال سعيد بن المسيب : وذلك في سنة عشرين من الهجرة ».
وسيأتي الكلام على مايتعلق بها في الكلام على كتابة المناشير
في المقالة السادسة إن شاء الله تعالى . ولناظر الجيش أتباع
بديوانه يُوَلَّوْن عن السلطان ، كصاحب ديوان الجيش
وكُتّابه وشهوده ، وكذلك صاحب ديوان المماليك ،
وكاتب المماليك وشهود المماليك . فإن المماليك السلطانية
فرعٌ من الجيش . ونظرهم راجع إلى ناظر الجيش .

الوظيفة الخامسة : نظر الدواوين المعمورة والصحبة
الشريفة . وهو المعبر عنه بناظر الدولة . وموضوعها التحدّث
في كل مايتحدّث فيه الوزير ، وكلّ ماكَتَبَ فيه الوزير
كَتَب فيه هو . يكتب فيه بمثل مارسم به .

الوظيفة السادسة : نظر الخزانة . قال في « مسالك
الأبصار » : وكانت أوّلا كبيرة الوضع لأنها مستودَع
أموال المملكة . فلما استُحدِثت وظيفة الخاص ، صَغُر
أمرُ الخزانة ، وسميت بالخزانة الكبرى ، وهو اسم فوق
مسماه . قال : ولم يكن بها الآن إلا خِلَعٌ تخلع منها ،
أو مايحضر إليها ويصرف أوّلاً فأوّلاً ، وفي الغالب يكون

ناظرها من القُضاة أو من يلتحق بهم . ولناظر الخزانة أتباع يُولّون عن السلطان كصاحب ديوان الخزانة .

الوظيفة السابعة : نظر البيوت والحاشية . وهو نظر جليل ، وكلّ مايتحدّث فيه الأستادار له فيه مشاركة في التحدّث فيه ، وقد تقدّم تفصيل حال وظيفة الأستادارية .

الوظيفة الثامنة : نظر بيت المال . وموضوعها حملُ حمول المملكة إلى بيت المال والتصرف فيه تارة قبضاً وصرفاً وتارة بالتسويغ محضراً وصرفاً . قال في « مسالك الأبصار » : ولا يليها إلا ذو العدالة البارزة من أهل العلم والديانة .

الوظيفة التاسعة : نظر الإصطبلات السلطانية . وموضوعها مباشرة إصطبلات السلطان . والتحدّث في أنواع الخيول والبغال والدواب والجمال السلطانية ، وعليقها وعدّتها ، وما لها من الاستعمالات والإطلاقات وكل مايبتاع لها أو يباع منها ، وأرزاق المستخدمين بها ونحو ذلك .

الوظيفة العاشرة : نظر دار الضيافة والأسواق . وموضوعها التحدّث في أمر مايتَحصّل من سوق الخيل والرقيق ونحوهما ، وصرف ذلك في كلفة من يرد إلى الأبواب السلطانية من رُسُل الملوك ونحوهم ، وصرف مرتبات مقررة لأناس في كل شهر ؛ والتحدّثُ فيها ولايةً وعزلاً وتنفيذاً راجعٌ إلى الدّوادار ؛ وللوزير المشاركة معه في المتحصّل في شيء مخصوص .

الوظيفة الحاديةَ عشرةَ : نظر خزائن السلاح . وموضوعها التحدّث على كل مايستعمل من السلاح السلطانيّ ، وعادته أن يجمع مايَتحصّل من عمل كل سنة ويجهّز في يوم معين ، ويحمل على رؤوس الحمّالين إلى خزائن السلاح بالقلعة المحروسة ، ويخلع عليه وعلى رُفْقَتِه من المباشرين .

الوظيفة الثانية عشرة : نظر الأملاك السلطانية . وموضوعها التحدّثُ على الأملاك الخاصّة بالسلطان من ضِيَاع ورِبَاع وغير ذلك .

الوظيفة الثالثة عشرة : نظر البَهَار والكارميّ (١) .
وموضوعها التحدّث على واصل التجار الكارِميّة من اليمن من أصناف البَهَار وأنواع المتجر ، وهي وظيفة جليلة تارة تضاف إلى الوزارة وتجعل تبعاً لها ، وتارة تضاف إلى الخاص وتجعل تبعاً لها ، وتارة تنفرد عنهما بحسب مايراه السلطان .

الوظيفة الرابعة عشرة : نظر الأهراء بمصر بالصناعة .
وهي شُونة الغلال السلطانية التي يتكلم عليها الوزير ، وموضوعها التحدّث فيما يصل إليها من النواحي من الغلال وغيرها ، وما يُصرف منها على الإصطبلات الشريفة والمُنَاخات السلطانية وغير ذلك .

الوظيفة الخامسة عشرةَ : نظر المواريث الحَشْريّة ؛ وموضوعها التحدّث على ديوان المواريث الحشرية ممن يموت ولا وارث له ،أو وله وارث لا يستغرق ميراثه ، مع التحدث في إطلاق جميع الموتى من المسلمين وغيرهم .

---

(١) رجح في الضوء الكانمي بالنون وقال إنه نسبة إلى الكانم فرقة من السودان كان منهم طائفة مقيمة بمصر يتجرون في البهار من الفلفل والقرنفل ونحوهما مما يجلب من الهند واليمن فعرف ذلك بهم إلى آخر ماقال . فراجعه إن شئت .

الوظيفة السادسة عشرة : نظر الطواحين السلط
بمصر بالصناعة أيضاً . وهو مغلق عظيم فيه عشرة حج
يخرج منها في كل يوم نحو خمسين تليساً .

الوظيفة السابعة عشرة : نظر الحاصلات . وهو المع
عنه بنظر الجهات ؛ وموضوعه التحدّث في أموال جها
الوزارة من متحصّل ومصروف أو حمل لبيت المال وغير

الوظيفة الثامنة عشرة : نظر المرتَجَعات . وموضو
التحدّث على ما يُرتَجَع ممن يموت من الأمراء ون
ذلك ، وقد رُفِضت هذه الوظيفة وتعطلّت ولايتها
الغالب وصار أمر المرتَجَع موقوفاً على مستوفِي المرتجع
وهو الذي يحكم في القضايا الديوانية ويفصلها على مصطل
الديوان ، وهو المعبر عنه بديوان السلطان .

الوظيفة التاسعة عشرة : نظر الجيزة . وموضو
التحدّث على ما يَتحصّل من عمل الجيزيّة التي هي خا
السلطان ، وهي فرع من فروع الدواون .

الوظيفة العشرون: نظر الوجه القبليّ . وموضو
التحدّث على بلاد الصعيد بأسرها مما يتَحصّل فيها م
ميراث وغيره .

الوظيفة الحادية والعشرون : نظر الوجه البحريّ
وموضوعها كموضوع نظر الوجه القبليّ المتقدّم ذكره .

الوظيفة الثانية والعشرون : صحابة ديوان الجيش .
وموضوعها التحدّث في كل مايتحدّث فيه ناظر الجيش من أمر الإقطاعات .

الوظيفة الثالثة والعشرون : صحابة ديوان البيمارستان.
وموضوعها التحدّث في كل مايتحدّث فيه ناظر البيمارستان .

الوظيفة الرابعة والعشرون : صحابة ديوان الأحباس .
وصاحبها يكتب في كل مايكتب فيه ناظر الأحباس إلا أنها بطالات .

الوظيفة الخامسة والعشرون : استيفاء الصحبة .

استيفاء الدولة (١)

* * *

(١) تقدم الكلام عليهما في الكلام على توابع الوظيفة الأولى من هذا النوع وهي الوزارة فرأى أنه لا داعي إلى الاعادة فلا سقط في الكلام كما قد يتوهم .

النوع الثاني

(أرباب الوظائف الدينية ، وهم صنفان)

الصنف الأوّل

(من له مجلس بالحضرة السلطانية بدار العدل
الشريف ، وهو منحصر في خمس وظائف)

الوظيفة الأولى : قضاء القضاة . وموضوعها التحدّثُ في الأحكام الشرعية وتنفيذ قضاياها . والقيامُ بالأوامر الشرعية ، والفصل بين الخصوم ، ونصب النوّاب للتحدّث فيما عَسُر عليه مباشرته بنفسه ؛ وهي أرفع الوظائف الدينية وأعلاها قدراً وأجلُّها رتبة .

واعلم أن الأمر في الزمن الأوّل كان قاصراً على قاضٍ واحد بالديار المصرية من أيّ مذهب كان ، بل كان في الدولة الفاطمية قاضٍ واحدٌ بالديار المصرية ، وأجنادِ الشام ، وبلاد المغرب ، مضافٌ إليه التحدّث في أمر الصلاة ودُور الضرب وغير ذلك على ماستقف عليه في تقاليد بعض قضاتهم في الكلام على تقاليد القضاة إن شاء

الله تعالى ، ثم استقرّ الحال في الأيّام الظاهرية بيبرس في سنة ثلاث وستين وستمائة على أربعة قضاة من مذاهب الأئمة الأربعة : الشافعيّ ومالك وأبي حنيفة وأحمد بن حَنْبَل رضي الله عنهم ، وكان السبب في ذلك فيما ذكره صاحب « نهاية الأرب » أن قضاء القضاة بالديار المصرية كان يومئذٍ بيد القاضي تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز بمفرده ؛ وكان الأمير جمال الدين أيدغدي أحد أمراء السلطان الظاهر المتقدّم ذكره يعانده في أموره ، ويغُضّ منه عند السلطان ، لتثبُّته في الأمور وتوقفه في الأحكام ، فبينما السلطان ذاتَ يوم جالس بدار العدل إذ رُفِعت إليه قصة بسبب مكانٍ باعه القاضي بدر الدين السنجاريّ ، ثم ادّعى ذرّيته بعد وفاته أنه موقوف ، فأخذ الأمير أيدغدي يَغُضّ من القضاة بحضرة السلطان ، فسكت السلطان لذلك ، ثم قال للقاضي تاج الدين : ما الحكم في ذلك ؟ قال : إذا ثبتت الوقفية يستعادُ الثمن من تركة البائع ، قال : فإن عجزت التركة عن ذلك ، قال : يوقف على حاله ، فامتعض لها السلطان وسكت ، ثم جرى في المجلس ذكرُ أمور أخرى توقف القاضي في تمشيتها ،

وكان آخرُ الأمر أن الأمير أيدغدي حَسَّنَ للسلطان نصبَ أربعة قضاة في المذاهب الأربعة ففعل ، وأقرّ القاضي تاجَ الدين ابن بنت الأعز في قضاء الشافعية ، وولّيَ الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن عبد الله بن صالح السبكيّ قضاءّ المالكية ، والقاضي بدر الدين بن سلمان قضاءَ الحنفية ، والقاضي شمسُ الدين محمد بن الشيخ عماد الدين إبراهيم القدسيّ قضاءَ الحنابلة ، وجعل لهم الأربعة أن يولّوا النوّاب بأعمال الديار المصرية ، وأفرد القاضيَ تاج الدين بالنظر في مال الأيتام والأوقاف ، وكُتِبَ له بذلك تقليدٌ من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر أوّله « الحمد لله مجرِّد سيف الحق على مَنْ اعتدى » . ثم كل من الأربعة له التحدّث فيما يقتضيه مذهبه بالقاهرة والفُسْطَاطِ ، ونصب النوّاب ، وإجلاس الشهود ، ويستقلّ الشافعيّ منهم بتولية النوّاب بنواحي الوجهين القبليّ والبحريّ لايشاركه فيه غيره .

الوظيفة الثانية : قضاء العسكر . وهي وظيفة جليلة قديمة كانت في زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن

أيوب ، وكان قاضي عسكره بهاء الدين بن (١)

وموضوعها أن صاحبها يحضُر بدار العدل مع القُضاة المتقدّم ذكرهم ، ويسافر مع السلطان إذا سافر ؛ وهم ثلاثة نفر : شافعيّ ، وحنفيّ ، ومالكيّ ، وليس للحنابلة منهم حظ . وجلوسهم في دار العدل دون القُضاة الأربعة المتقدّمي الذكر على مايأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثالثة : إفتاء دار العدل . وموضوعها على نحو ماتقدّم في قضاء العسكر ، وبها أربعة نفر ، من كل مذهب واحد ، وجلوسهم دون قُضاة العسكر على ما يأتي ذكره .

الوظيفة الرابعة : وَكَالة بيت المال . وهي وظيفة عظيمة الشأن رفيعة القدر ، وموضوعها التحدُّث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشتَرَياته من أراض وآدُر وغير ذلك ، والمعاقدة على ذلك وما يجري هذا المجرى . قال في « مسالك الأبصار » : ولا يليها إلا أهل العلم والديانة ، ومجلسه بدار العدل : تارة يكون دون المحتَسِب وتارة فوقه بحسب رفعة قدر كل منهما في نفسه .

(١) بياض بالأصل .

الوظيفة الخامسة : الحِسْبة . وهي وظيفة جليلة رفيعة الشأن ، وموضوعها التحدّث في الأمر والنهي ، والتحدّث على المعايش والصنائع ، والأخذُ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته . وبالحضرة السلطانية محتسبان : أحدهما بالقاهرة ، وهو أعظمهما قدراً وأرفعهما شأناً ؛ وله التصرف بالحكم والتولية بالوجه البحري بكامله خلا الإسْكَنْدَريّة ، فان لها محتسباً يخُصها ، والثاني بالفُسطاط ومرتبته منحطة عن الأوّل ؛ وله التحدّث والتولية بالوجه القبليّ بكماله ، والذي يجلس منهما بدار العدل في أيام المواكب محتسب القاهرة فقط دون محتسب مصر ؛ ومحلُّ جلوسه دون وكيل بيت المال ، وربما جلس أعلى منه إذا كان أرفع منه بعلم أو نحوه .

الصنف الثاني

(من أرباب الوظائف الدينية من لامَجلِسَ له بالحضرة السلطانية)

وهذه الوظائف لاحصْرَ لعددها على التفصيل ،

ولا سبيلَ إلى استيفاء ذكرها على تفاوُت المراتب فوجب الاقتصار على ذكر المُهِمّ منها .

ثمّ هذه الوظائف منها ماهو مختصّ بشخص واحد ، ومنها ماهو عامّ في أشخاص .

فأما التي هي مختصة بشخص واحد .

فمنها (نِقَابة الأشراف) وهي وظيفة شريفة ، ومرتبة نفيسة ؛ موضوعها التحدّث على ولد عليّ بن أبي طالب — كرم الله تعالى وجهه — من فاطمة بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهم المراد بالأشراف ، وفي الفحص عن أنسابهم والتحدّث في أقاربهم والأخذ على يد المعتدي منهم ونحو ذلك ، وكان يعبّر عنها في زمن الخلفاء المتقدّمين بنقابة الطالبيّين .

ومنها (مشيخة الشيوخ) والمراد بها مشيخة الخانقاه التي أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون بسرياقوس من ضواحي القاهرة .

أمّا مشيخة الخانقاه الصلاحية بالقاهرة المعروفة بسعيد

السعداء : فإنها وإن قَدُم زمنها وعَظُم قدرها دونَ تلك في المشيخة .

ومنها (نَظَر الأحباس المبرورة) وهي وظيفة عالية المقدار ؛ وموضوعها أنّ صاحبها يتحدّث في رِزق الجوامع والمساجد والرُّبُط والزوايا والمدارس من الأرضين المفردة لذلك من نواحي الديار المصرية خاصةً . وما هو من ذلك على سبيل البِرّ والصدقة لأناس معيّنين ، وأصل هذه الوظيفة أن اللّيْثَ بن سعد، رحمه الله، اشترى أراضيَ من بيت المال في نواحٍ من البُلْدان وحَبسها على وجوه البِرّ . وهي المسماة بديوان الأحباس بوجوه العين . ثم أضيف إلى ذلك الرِّبَاعُ والدور المعروفة بالفُسْطاط وغيره ، ثم أضيف إليها رِزَق الخطابات ، ثم كثرت الرِّزَق من الأرضين في الدولة الظاهرية بيبرس بواسطة الصاحب بهاء الدين بن حنا وأخذت في الزيادة إلى زماننا ؛ وهي تارة يتحدّث فيها السلطان بنفسه ، وتارة النائب ، وفي غالب الوقت يتحدّث فيها الدّوادار الكبير على ما استقرّ عليه الحال آخراً .

ومنها (نظر البيمارستان) والمراد البيمارستان المنصوريّ الذي أنشأه المنصور قلاوون بين القصرين ، وكان داراً لِستِّ الملك أخت الحاكم الفاطميّ فغيّر معالمه وزاد فيه ، وليس له نظير في الدنيا في بِرِّه ومعروفه ؛ وهي من أجلّ الوظائف وأعلاها ؛ وعادةُ النظر فيه من أصحاب السيوف لأكبر الأمراء بالديار المصرية .

وأمّا التي هي عامة في أشخاص .

فمنها (الخَطَابة) وهي في الحقيقة أجلّ الوظائف وأعلاها رتبة ، إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعلها بنفسه ، ثم فعلها الخلفاء الراشدون فمَنْ بعدهم ، وهي على كثرة الجوامع بالديار المصرية بحيث إنها لاتحصى كَثْرَةً ، لايتعلق منها بولاية السلطان إلا القليل النادر كجامع القلعة إلا إذا كان مفرداً عن القضاء ونحو ذلك مما لاناظر له خاصٌّ .

ومنها (التداريس) وهي على اختلاف أنواعها من الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة وغير ذلك لايولّي السلطان فيها إلا فيما يَعْظُمُ خَطَره ويرتفع شأنه مما

لاناظر له خاصّ كالمدرسة الصلاحية بجوار تربة الإمام الشافعيّ رضي الله عنه ، والزاوية الصلاحية بالجامع العتيق بالفُسْطَاطِ ، وهي المعروفة بالخشابية ، والمدرسة المنصورية بالبيمارستان المنصوريّ المتقدم ذكره بين القصرين ؛ ودرس الجامع الطولوني ونحو ذلك .

* * *

المقصد الرابع

(في زِيّ أعيان المملكة من أرباب المناصب السلطانية بالديار المصرية في لبسهم وركوبهم ، وهم أربع طوائف)

الطائفة الأولى

(أرباب السُّيوف ، وزِيُّهُمْ راجع إلى أمرين)

الأمر الأوّل (لُبْسهم) . ويختلف الحال فيه باعتبار مواضع اللُّبس من البدن .

فأما مابه تَغْطِيَةُ رؤوسهم ، فقد تقدّم أنهم كانوا في الدولة الأيوبية يلبسون كَلُّوتات صُفْر بغير عمائم ،

وكانت لهم ذوائبُ شعر يرسلونها خلفهم . فلما كانت الدولة الأشرفية « خليل بن قلاوون » رحمه الله ، غيَّر لونها من الصُّفْرَةِ إلى الحُمْرة وأمر بالعمائم من فوقها ، وبقيت كذلك حتى حَجَّ الملكُ الناصر « محمد بن قلاوون » رحمه الله في أواخر دولته فحلق رأسه فحلق الجميع رؤوسهم ، واستمرّوا على الحلق إلى الآن ، وكانت عمامتهم صغيرة فزيد في قدرها في الدولة الأشرفية « شعبان بن حسين » فحسُنَت هيئتها وجادت ، وهي على ذلك إلى زماننا .

وأما ثياب أبدانهم فيلْبَسون الأقبية التتَرِيّةَ والتكلاوات فوقها ثم القَبَاء الإسلاميّ فوق ذلك ، يشدّ عليه السيف من جهة اليسار والصولق والكزلك من جهة اليمين .

قال السلطان عماد الدين صاحب حماة في « تاريخه » : وأوّل من أمر بذلك غازي بن زنكي أخو العادل نور الدين الشهيد حين ملك المَوْصِلَ بعد أبيه ، ثم الأمراء والمقدّمون وأعيان الجند تلبس فوقه أقبيةً قصيرةُ الأكمامِ أقصرُ من القَبَاء التحتانيّ بلا تفاوت كبير في قِصَر الكُمّ وطوله ، مع سَعَة الكم القصير وضيق الأكمام الطويلة .

ثم إن كان زمنُ الصيف كان جميع القماش من الفوقاني وغيره أبيضَ من النصافي ونحوه ، وتشدّ فوق القبَاء الإسلاميّ المِنْطَقَةُ ، وهي الحياصة ، ومعظم مناطقهم من الفضة المطلية بالذهب ، وربما جُعِلت من الذهب ، وقد تُرصّع باليشم . قال في « مسالك الأبصار » : ولا تُرصَّع بالجواهر إلا في خلع السلطان لأكابر أمراء المِئِين .

وإن كان زمنُ الشتاء كانت فوْقانياتهم ملوّنة من الصوف النفيس والحرير الفائق ، تحتها فِرَاءُ السِّنجاب الغض . ويلبس أكابر الأمراء السّمُّورَ ، والوشق ، والقاقم والفنك ، ويجعل في المِنْطَقَةِ منديلالطيفاً مُسْدَلاً على الصولق ، ومعظمهم يلبس المطرّز على الكُمّين من الزركش أو الحرير الأسود المرقوم . قال في « المسالك » : ولا يَلْبَسُ المُطَرّزَ إلا مَنْ له إقطاع في الحَلْقَةِ ، أما مَنْ هو بعدُ بالجامكية ، فلا يتعاطى ذلك .

وأما مايجعل في أرجلهم ، فان كان في الصيف لَبِسوا الخفاف البيض العَلَوية ، وإن كان في الشتاء لبسوا الخِفَاف الصفر من الأديم الطائفيّ ، ويشدّون المهاميز المسَقّطة

بالفضة في القدم على الخلف . قال في « مسالك الأبصار » : ولا يُكَفَّت مِهْمازَه بالذهب إلا مَنْ له إقطاع في الحَلْقة على ما تقدّم في لبس المطرّز .

الأمر الثاني (ركوبهم) . أما ما يركبون ، فالخيل المُسَوَّمَةُ النفيسة الأثمان خصوصاً الأمراء ومن يُلْحق بشأْوِهم ، ولا يركبون البغال بحال بل تركبها غلمانهم خلفهم بالقُماش النفيس والهيئة الحسنة والقوالب المحلاّة بالفضة ، وربما غُشّي جميعها بالفضة بل ربما غُشّي جميعها بالذهب للسلطان وأعيان الأمراء . ومعها العِبْي السابلة الملوّنة من الصوف الفائق ، وربما جعلت من الحرير لأعيانهم ، وقد يتخذ بدلها الكنابيش بالحواشي المَخَايش ، وربما كانت زركشاً للسلطان والأمراء ، وتحلى لُجُمُهُمْ وتُسَقّط بالفضة بحسب اختيار صاحبها ، ويجعل الدّبّوس في حَلْقة متصلة بالسرج تحت ركبته اليمنى . قال صاحب حماة : وأوّل من أمرهم بذلك غازي بن زنكي حين أمرهم بشدّ السيوف في أوساطهم على ماتقدم ذكره . قال في « مسالك الأبصار » : وعلى الجملة فزيّهم ظريف وعَدَدُهم فائقة نفيسة .

الطائفة الثانية

(أرباب الوظائف الدينية من القُضاة وسائر العلماء : وزِيُّهُمْ راجع أيضاً إلى أمرين)

الأمر الأوّل (ملبوسهم) . ويختلف ذلك باختلاف مراتبهم ، فالقضاة والعلماء منهم يلْبَسون العمائم من الشاشات الكبار للغاية ، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذُؤابة تلحق قَرَبُوسَ سرجه إذا ركب ، ومنهم من يجعل عِوَض الذُّؤابة الطيلسانَ الفائق ، ويَلْبَسُ فوق ثيابه دلقاً متسعَ الأكمام طويلَها مفتوحاً فوق كتفيه بغير تفريج ، سابلا على قدميه . ويتميز قُضاة القضاة الشافعيّ والحنفيّ بِلُبْس طرحة تستُر عمامته وتنسدل على ظهره ، وكان قبل ذلك مختصاً بالشافعيّ ؛ ومَنْ دون هذه منهم تكون عمامته ألطف ، ويلبس بدل الدلق فَرَجِيّة مفرجة من قدّامه من أعلاها إلى أسفلها مزرّرة بالأزرار ، وليس فيهم من يَلْبس الحرير ، ولا ماغلب فيه الحرير ؛ وإن كان شتاء كان الفَوْقاني من ملبوسهم من الصوف الأبيض الملطيّ ، ولا يلبسون الملوّن إلا في بيوتهم ، وربما لبسه

بعضهم من الصوف في الطرقات ، ويلبسون الخِفاف من الأديم الطائفيّ بغير مَهامِيز .

الأمر الثاني (مركوبهم) : أما أعيان هذه الطائفة من القُضاة ونحوهم فيركبون البِغَال النفيسة المساوية في الأثمان لمُسَوَّمَاتِ الخيول ، بلُجُمٍ ثِقَال وسروج مدهونة غير مُحلاَّة بشيء من الفضة ؛ ويجعلون حول السرج قرقشينا من جوخ . قال في « مسالك الأبصار » : وهو شبيه بثوب السرج مختصر منه ، ويجعلون بدل العبي الكنابيش من الصوف المرقوم محاذية لكفل البغلة ، ويمتاز قضاة القضاة بأن يجعل بدل ذلك الزناريّ من الجوخ ، وهو شبيه بالعباءة مستدير من وراء الكَفَل ولا يعلوه بردنب ولا قوش ، وربما رَكِبوا بالكنابيش . وأما من دون هؤلاء من هذه الطائفة فربما ركبوا الخيول بالكنابيش والعبي .

* * *

الطائفة الثالثة

(مشايخ الصوفية)

وهم مُضاهُون لطائفة العلماء في لبس الدلق إلا أنه يكون غير سابل ، ولا طويل الكُمّ ؛ ويُرْخون ذؤابة لطيفة على الأذن اليسرى لاتكاد تلحق الكتف ، ويركبون البغال بالكنابيش على نحو ماتقدّم .

* * *

الطائفة الرابعة

(أرباب الوظائف الديوانية)

أما أعيانهم كالوزراء ومَنْ ضاهاهم ، فيلبسون الفراجي المضاهية لفراجي العلماء المتقدّمة الذكر ، وربما لَبِسوا الجِببَاب المفرجة من ورائها . وقد ذكر في « مسالك الأبصار » : أن أكابرهم كانوا يجعلون في أكمامهم بادهنجات مفتوحة ، وقد صار ذلك الآن قاصراً على مايلبسونه من التشاريف . ومَنْ دون هؤلاء يلبسون الفرجيات المفرجة من ورائها على ماتقدّم .

وأما ركوبهم فيضاهي ركوب الجند أو يقاربه .

قال في « مسالك الأبصار » : وتجمّل هذه الطائفة بمصر أكمل مما هم بالشام في زيّهم وملبوسهم ، إلا مايحكى عن قبْط مصر في بيوتهم من اتساع الأحوال والنفقات ؛ حتّى إن الواحد منهم يكون في ديوانه بأدنى اللباس ويأكل أدنى المآكل ، ويركب الحمار ، حتّى إذا صار في بيته انتقل من حال إلى حال وخرج من عدم إلى وجود . قال : ولقد تبالغ الناس فيما تحكي من ذلك عنهم .

* * *

المقصد الخامس

(في هيئة السلطان في ترتيب الملك ؛ وله ثلاث (١) هيئات)

الهيئة الأولى

(هيئته في جلوسه بدار العدل لخلاَص المظَالم)

عادةُ هذا السلطان إذا كان بالقلعة في غير شهر رمضان أن يجلس بُكْرَةَ يوم الاثنين بايوانه الكبير المسمّى بدار

(١) الصواب سبع كما عبر به في الضوء وهي في العدد أيضاً سبع كما ستراه .

العدل المتقدّم ذكره مع ذكر القلعة في الكلام على حاضرة الديار المصرية ؛ ويكون جلوسه على الكرسيّ الذي هو موضوع تحت سرير المُلْك . قال في « مسالك الأبصار » : ويجلس على يمينه قُضاة القُضاة من المذاهب الأربعة ، ثم وكيل بيت المال ، ثم الناظر في الحسبة . ويجلس على يساره كاتب السِّر ، وقدّامه ناظر الجيش وجماعةُ الموقّعين تكملة حَلْقَة دائرة . قال : وإن كان الوزير من أرباب الأقلام ، كان بينه وبين كاتب السر ، وإن كان من أرباب السيوف ، كان واقفاً على بُعْدٍ مع بقية أرباب الوظائف . وكذلك إن كان ثَمّ نائب وقف مع أرباب الوظائف . ويقف من وراء السلطان مماليكُ صِغار عن يمينه ويساره من السلاح دارية والجمدارية والخاصكية ؛ ويجلس على بُعْد بقدر خمسةَ عشر ذراعاً من يَمْنته ويَسْرته ذوو السنّ من أكابر أمراء المئين ، وهم أمراء المَشُورَةِ ؛ ويليهم مِن أسفلَ منهم أكابرُ الأمراء ، وأرباب الوظائف وقوفٌ ، وباقي الأمراء وقوف من وراء المَشُورَةِ ؛ ويقف خلْفَ هذه الحَلْقَةِ المحيطة بالسلطان الحُجّابُ والدّوادارية لإحضار قِصَص أرباب

الضرورات وإحضار المساكين ، وتقرأ عليه القصص. فما احتاج فيه إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه ، وما كان متعلقاً بالعسكر تحدّث فيه مع الحاجب وناظر الجيش . ويأمر في البقية بما يراه .

قلت : وقد استقرّ الحال على أن يكون عن يمينه قاضيان من القضاة الأربعة : وهما الشافعيّ والمالكيّ . وعن يساره قاضيان وهما الحنفيّ ثم الحنبليّ ؛ ويلي القاضي المالكيّ من الجانب الأيمن قُضاةُ العسكر الثلاثةُ المتقدّم ذكرهم الشافعيّ ثم الحنفيّ ثم المالكي ؛ ويليهم مُفْتُو دار العدل على هذا الترتيب ؛ ويليهم وكيلُ بيت المال ثم الناظر في الحِسْبة بالقاهرة ، وربما جلس المحتسب فوق وكيل بيت المال إذا علا قَدْرُه عليه بعِلْم أو رياسة . كل هؤلاء صفٌ واحدٌ عن يمين السلطان مستدبرين جِدارَ صدر الإيوان مستقبلين بابه ، والقاضيان الحنفيّ والحنبليّ كذلك من الجانب الأيسر ، والوزير إن كان من أرباب الأقلام إلى جانب الكرسيّ من الجانب الأيسر بانحراف ، وكاتب السرّ يليه ؛ وتستدير الحَلْقَةُ حتّى يصير الجالس

بها مستدبراً باب الإيوان على ماتقدّمت الإشارة إليه في كلام « مسالك الأبصار » .

* * *

الهيئة الثانية

(هيئته في بقيّة الأيام)

عادته فيما عدا الاثنين والخميس من الأيام أن يخرج من قُصُوره الجُوانية المتقدّم ذكرها إلى قصره الكبير المُشْرِف على إصطبلاته ، ثم تارة يجلس على تخت الملك الذي بصَدْره ، وتارة يجلس على الأرض ، ويقف الأمراء حوله على ماتقدّم في الجلوس في الإيوان ، خلا أمراء المَشُورَةِ والغرباء منه فليس لهم عادة بحضور هذا المجلس إلا مَنْ دعت الحاجة إلى حضوره ، ثم يقوم في الثالثة من النهار فيدخل إلى قصوره الجوّانية لمصالح ملكه ، ويعبر عليه خاصته من أرباب الوظائف كالوزير ، وكاتب السر ، وناظر الخاص ، وناظر الجيش في الأشغال المتعلقة به على ماتدعو الحاجة إليه .

* * *

الهيئة الثالثة

(هيئته في صلاة الجمعة والعيدين)

أما صلاة الجمعة فإن عادته أن يخرج إلى الجامع المجاور لقصره المتقدّم ذكره من القصر ، ومعه خاصة أمرائه ، فيدخل من أقرب أبواب الجامع للقصر ، ويصلّي في مقصورة في الجامع عن يمين المِحْراب خاصة ، ويصلّي عنده فيها أكابر خاصته ، ويجيء بقية الأمراء : خاصّتُهم وعامّتهم فيصلون خارج المقصورة عن يمينها ويسارها على مراتبهم ، فاذا فرغ من الصلاة دخل إلى دُور حريمه وذهب الأمراء كلٌّ وأحد إلى مكانه .

وأما صلاة العيدين ، فعادته أن يركب من باب قصره وينزل من مَنْفَذة من الإصطبل إلى الميدان الملاصق له . وقد ضُرِب له فيه دِهْليز على أكمل مايكون من الهيئة ، ويَحْضُر خطيب جامع القلعة إلى الميدان فيصلي به العيد ويخطب ، فاذا فرغ من سماع الخطبة ركب وخرج من باب الميدان والأمراء والمماليك يمشون حوله . وعلى رأسه العصائب السلطانية ، والغاشية محمولة أمامه ، والجتر

وهو المظلة محمول على رأسه مع أحد أكابر الأمراء المقدّمين وهو راكب فرساً إلى جانبه ، والأوشاقيّان الجفتة المتقدّم ذكرهما راكبان أمامه ، وخلفه الجنائب ، وعلى رأسه (١) العصائب السُّلْطانية ، وأرباب الوظائف من السلاح دارية كلُّهم خلفه . والطّبَرْدارية أمامه مشاة بأيديهم الأطبار ، ويطلُع من باب الإصطبل ويطلُع إلى الإيوان الكبير المقدّم ذكره ، ويمدّ السماط ويَخْلَع على حامل الجتر . وأمير سلاح ، والأستادار ، والجاشنكير ، وجماعة من أرباب الوظائف ممن لهم خدمة في مُهِمّ العيد كنوّاب أستادار ، وصغار الجاشنكيرية ، وناظر البيوت ونحوهم .

* * *

الهيئة الرابعة

(هيئته لِلَعِب الكُرَة بالميدان الأكبر)

عادته أن يركب لذلك بعد وفاء النيل ثلاثة مواكب متوالية في كل سبت ينزل من قصره أول النهار من باب

(١) لم يذكر هذه الجملة في الضوء وعدم ذكرها أولى لأنها سبقت .

الإصطبل ، وهو راكب على الهيئة المذكورة في العيد ماعدا الجتر فانه لايحمل على رأسه ، وتحمل الغاشية أمامه في أوّل الطريق وآخره ، ويصير إلى الميدان فينزل في قصوره ، وينزل الأمراء منازلهم على قدر طَبَقاتهم ، ثم يركب للعب الكُرَة بعد صلاة الظهر والأمراء معه ؛ ثم ينزل فيستريح ، ويستمرّ الأمراء في لعب الكرة إلى أذان العصر ، فيصلي العصرَ ويركب على الهيئة التي كان عليها في أوّل النهار ويطلُع إلى قصره .

* * *

الهيئة الخامسة

(هيئته في الركوب لكسر الخليج عند وفاء النيل)

واعلم أن السلطان قد يركب لكسر الخليج ، ولم تجر العادة بركوبه فيه بمظلة ولا رقبةِ فرس ، ولا غاشية ، ولا مافي معنى ذلك مما تقدّم ذكره في ركوب الميدان والعيدين ، بل يقتصر على السناجق ، والطّبَرْدارية ، والجاويشية ونحو ذلك ؛ ويركب من القلعة عند طلوع صاحب المِقْياس بالوفاء في أيّ وقت كان ، ويتوجه إلى المِقْياس فيدخله

من بابه ويَمُدّ هناك سِماطاً يأكل منه مَنْ معه من الأمراء والمماليك ، ثم يُذاب زعفران في إناء ويتناوله صاحب المقياس ويَسْبَحُ في فَسْقيّة المقياس حتّى يأتيَ العمود والإناءُ الزعفران بيده فيخلّق العمود ، ثم يعود ويخلّق جوانب الفسقية وتكون حرّاقة السلطان قد زُيّنت بأنواع الزينة ، وكذلك حراريق الأمراء ، وقد فتح شُبّاك المقياس المطلّ على النيل من جهة الفُسْطاطِ وعُلّق عليه ستر ، فيؤتى بحرّاقة السلطان إلى ذلك الشباك فينزل منه ويَسْبَحُ وحراريقُ الأمراء حوله ،وقدشحن البحر بمراكب المتفرجين يسيرون خلف الحراريق حتّى يدخل إلى فم الخليج ، وحراقة السلطان العظمى المعروفة بالذّهبيّة وحراريقُ الأمراء يلعب بها في وسط امتدادها ، ويرمى بمدافع النّفْطِ على مقدامها ، ويسير السلطان في حراقته الصغيرة حتّى يأتيَ السدّ فيُقْطَعُ بحضوره ، ويركب وينصرف إلى القلعة.

* * *

الهيئة السادسة

(هيئته في أسفاره)

ولم تجر العادة فيها بإظهار ماتقدّم من الزينة في موكب

العيد والميدان ، بل يركب في عِدّة كبيرة من الأمراء : الأكابر والأصاغر ، والخواصّ ، والغرباء ؛ وخواصّ مماليكه . ولا يركب في السَّيْر برقبة ولا عصائب ، ولا تتبعه جنائب ، ويقصد في الغالب تأخير النزول إلى الليل . فإذا دخل الليل حُمِلت أمامه فوانيسُ كثيرةٌ ومَشَاعلُ ، فاذا قارب مُخَيَّمه ، تُلُقّي بالشموع المركبة في الشمعدانات المكفّتة ، وصاحت الجاويشية بين يديه . وترجل الناس كافة إلا حَمَلة السلاح والأوشاقيةُ وراءه ؛ ومشت الطبردارية حوله حتّى يدخل الدهليز الأوّل من مُخَيَّمه فينزل ويدخل إلى الشقة ، وهي خيمة مستديرة متسعة ، ثم منها إلى شقة مختصرة ، ثم إلى لاجوق . وبدائر كل خيمة من جميع جوانبها من داخلها سور خركاه من خشب ، وفي صدر اللاجُوق قصرٌ صغير من خشب ينصب للمبيت فيه ؛ وينصب بازاء الشقة حَمّامٌ بقدور من رَصاص وحوض على هيئة الحمامات بالمدن إلا أنه مختصر . فاذا نام طافت به المماليك دائرةً وطاف بالجميع الحَرَس . وتدور الزّفّة حول الدهليز في كل ليلة مرتين : عند نومه وعند استيقاظه من النوم ، ويطوف مع الزّفّة أميرٌ

من أكابر الأمراء وحوله الفوانيس والمشاعل ، ويبيت على باب الدهليز أرباب الوظائف من النقباء وغيرهم . فاذا دخل إلى المدينة ، ركب على هيئة ركوبه لصلاة العيد بالمِظَلّة وغيرها ، هذا ما يتعلق بخاصته .

أما موكبه الذي يسير فيه جمهور مماليكه ، فشعاره أن يكون معهم مقدّم المماليك والأستادار ، وأمامهم الخزائن والجنائب والهُجْن . ويكون بصحبته في السفر من كل ماتدعو الحاجة إليه من الأطباء والكحّالين والجرائحية وأنواع الادوية والأشربة والعقاقير وما يجري مجرى ذلك ، يُصْرَف ذلك لمن يعرض له مرض بالطريق .

الهيئة السابعة

(النوم)

وقد جرت العادة أنه يبيت عنده خواصّ مماليكه من الأمراء وأرباب الوظائف من الجمدارية وغيرهم ، يَسْهَرون بالنَوْبَة بقسمة بينهم على بناكيم الرمل ، كلما انقضت نَوْبَةُ قوم أيقظوا أصحاب النوبة الذين يلونهم ،

ويتعاني كل منهم ما يشاغله عن النوم فقوم يقرءون في المصاحف ، وقوم يلعبون بالشّطْرنج والأكل (١) وغير ذلك

* * *

المقصد السادس

(في عادته في إجراء الأرزاق ؟ وهو على ضربين)

الضرب الأوّل

(الجاري المستمر : وهو على نوعين)

النوع الأوّل

(الإقطاعات)

والإقطاعات في هذه المملكة تجري على الأمراء والجُنْد وعامّة إقطاعاتهم بلاد وأراضٍ [يَسْتَغلها مُقْطَعُها ويتصرف فيها كيف شاء ، وربما كان فيها نقد يتناوله من جهات ، وهو القليل ، وتختلف باختلاف حال أربابها .

فأما الأمراء بالديار المصرية فقد ذكر في « مسالك الأبصار » أنّ أكابر الأمراء يبلغ إقطاعُ الواحدِ منهم مائتي

(١) أي وقوم يتشاغلون بالأكل الخ .

ألف دينار جيشية . وربما زاد على ذلك . ويتناقص باعتبار انحطاط الرتبة إلى ثمانين ألفَ دينار وما حولها ، ويبلغ إقطاع الواحد من أمراء الطبلخاناه ثلاثين ألفَ دينار فأكثر ، وينقص إلى ثلاثة وعشرين ألف دينار ، ويبلغ إقطاع الواحد من أمراء العشرات تسعة آلاف دينار إلى مادون ذلك ؛ ويبلغ إقطاع الواحد من مقدّمي الحَلْقة إلى ألف وخمسمائة دينار ، وكذلك أعيان جند الحَلْقة إلى مائتين وخمسين ديناراً .

وأما إقطاعات الشام فلا تُقارب هذا المقدار بل تكون بقدر الثلثين في جميع ما تقدّم ، خلا أكابر الأمراء المقدمين بالديار المصرية ، فليس بالشام من يبلغ شأوهم إلا نائب الشام فانه يقاربهم في ذلك . قال في « مسالك الأبصار » : وليس للنوّاب في الممالك مَدْخَل في تأمير أمير عوَضَ أمير ، بل إذا مات أميرٌ صغير أو كبير طولع به السلطان فأمّرَ مكانه مَنْ أراد ممن في خدمته . ويخرجه إلى مكان الخدمة ، وأما منْ كان في مكان الخدمة أو ينقل إليه من بلد آخر فعلى ما يراه في ذلك .

أما جُنْد الحَلْقة : فمن مات منهم استخدم النائب

عِوضَه ، وكتب بذلك رُقْعة في ديوان جيش تلك المملكة ، ويُجَهَّزُ مع بريدي إلى الأبواب السلطانية فيُقابَلُ عليها من ديوان الجيش بالحضرة ، ثم إن أمضاها السلطان كتب عليها (يكتب) ويكتب بها مربعة من ديوان الجيش ، ويكتب عليها منشور .

وبجميع الأمراء بحضرة السلطان الرواتبُ الجاريةُ في كل يوم : من اللحم ، والتوابل ، والخبز ، والعليق ، والزيت ؛ ولأعيانهم الكسوة والشّمعُ ؛ وكذلك المماليك السلطانية وذوو الوظائف من الجند مع تفاوُت مقادير ذلك بحسَب مراتبهم وخُصوصيّتهم عند السلطان وقربهم إليه . قال في « مسالك الأبصار » : وإذا نشأ لأحد الأمراء ولد ، أطلق له دنانيرٌ وخبزٌ ولحم وعليق إلى أن يتأهل للإقطاع في جملة الحَلْقة ، ثم منهم من ينقل إلى العشرة أو الطبلخاناه على حسب الحظوظ والأرزاق .

* * *

النوع الثاني

(رزق أرباب الأقلام)

وهو مبلغٌ يصرف إليهم مُشاهَرةً . قال في « مسالك

الأبصار » : وأكبرهم كالوزير له في الشهر مائتان وخمسون ديناراً جيشية ، ومن الرواتب والغَلّة ما إذا بسط وثُمِّن كان نظير ذلك . ثم دونَ ذلك ودونَ دونه ، ولأعيانهم الرواتب الجارية : من اللحم ، والخبز ، والعليق ، والشّمع ، والسّكّر ، والكسوة ونحو ذلك ، إلى غير ذلك مما هو جار على العلماء وأهل الصلاح من الرواتب والأراضي المؤبدة وما يجري مجراها مما يتوارثه الخلف عن السلف مما لايوجد بمملكة من الممالك ، ولا مصر من الأمصار .

الضرب الثاني

(الإنعام وما يجري مجراه : ما يقع في وقتٍ دون وقت ؛ وهو على خمسة أنواع)

النوع الأوّل

قال في « المسالك » : ولصاحب مصر في ذلك اليدُ الطّولى حتى بَقِي بابهُ سوقاً يَنْفُقُ فيه كل مجلوب ، ويحضر الناس إليه من كل قُطْرٍ حتى كاد ذلك يَنْهَك

المملكة ويودي بمُتَحَصِّلاَتِها عن آخرها . قال : وغالب هذا مما قرّره هذا السلطان ، ولقد أتعب مَنْ يجيء بعده من كثرة الإحسان .

وهي على ثلاثة أصناف .

الصنف الأول

(تشاريف أرباب السيوف)

وهي على طبقات ، أعلاها ماهو مختص بالأمراء المقدّمين من النوّاب وغيرهم : فوقانيّ أطلس أحمر بطرز زركش ، مُفَرّى بسنجاب ، بدائره سجف من ظاهره مع غشاء قندس ، وتحته قَبَاءٌ أطلس أصفر ، وكلوتة زركش بكلاليب ذهب ، وشاش رفيع موصول به طرفان من حرير أبيض ، مرقومان بألقاب السلطان مع نقوش باهرة من الحرير الملوّن ، ومِنْطَقَة ذهب مركّبة على حاشية حرير تشدّ في وسطه ؛ ويختلف حال المِنْطَقَة بحسب المراتب . فأعلاها أن يعمل من عمدها بواكير وسَطاً ومحبسين ، موصّعة بالبَلَخْشِ والزُّمُرُّدِ واللؤْلُؤِ

ثم مَا كَانَ ببيكارية واحدة موصعة ، ثم مَا كَانَ ببيكارية واحدة من غير ترصيع ، فاذا كان التشريف لتقليد ولاية مُفَخَّمَةٍ ، زيد سيفاً محلّى بذهب وفرساً مُسْرَجاً ملجماً بكنبوش زركش ؛ وربما زيد أكابر النوّاب كنائب الشام تركيبة زَركَش على الفوقاني ، وشاش حرير سكندريّ مموج بالذهب . ويعرف ذلك بالمتمر . وعلى ذلك كان شاش صاحب حماة ، ويكون عوض كنبوشه زناري أطلس أحمر ؛ ودون ذلك من التشاريف أقبية طرد وحش من عمل الإسكندرية ومصر والشام ، مجوّخ : جاخاتٌ مكتوبة بألقاب السلطان ، وجاخاتٌ صوَرُ وحوش أو طيور صِغَار ، وجاخات ملوّنة مموّجة بقصب مذهب ، يفصل بين جاخاته نقوشٌ ، يركب على القَبَاء طراز زركش ، وعليه السنجاب والقندس كما تقدّم ، وتحته قباء من الطرح السكندريّ المفرج ، وكلوتة زركش بكلاليبَ وشاش كما تقدّم ، وحياصة ذهب تارة تكون ببيكارية وتارة لاتكون ، وهذه لأصاغر أمراء المئين ومَنْ يُلْحق بهم . وكذلك أصحاب الوظائف المختصة

بذلك كالجوكندار والولاة ومن يجري مجراهم (١) .

ثم للتشاريف أماكن .

منها إذا ولي أمير أو صاحب مَنْصِب وظيفة فإنه يلبس تشريفاً يناسب ولايته التي وَلِيها على حسب ماتقتضيه الرتبة علوّاً وهبوطاً .

ومنها عيد الفطر ، يخلع فيه على جميع أرباب الوظائف : من الأمراء وأرباب الأقلام كالأستادار والدّوادار وأمير سلاح والوزير وكاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش ونحوهم ، كلٌّ منهم بما يناسبه .

قال في « مسالك الأبصار » : ومن عادة السلطان أن يُعِدَّ لكل عيد خِلْعة على أنها للبوسه من نسبة خِلَعَ أكابر المئين فلم يلبسها ، ولكن يختص بها بعضَ أكابر المئين يخلعها عليه .

ومنها الميادين ، يخلع فيها على أكابر الأمراء: كل

(١) لم يذكر في الأصل الصنف الثاني والثالث وهما تشاريف الوزراء والكتاب وتشاريف القضاة والعلماء . وقد تكلم عليهما في الضوء ، فانظره

ميدان يختص بأمير أو أكثر يلبس فيه خلعة من المفرّج المُذْهَب .

ومنها دَوَران المحمل في شوّال ، يخلع فيه على أرباب الوظائف بالمحمل كالقاضي والناظر والمحتسب والشاهد والمقدّمين والأدلة وناظر الكسوة ومباشريها ومَنْ في معناهم .

* * *

النوع الثاني

(الخيول)

قد جرت عادة صاحب مصر أن ينعم على أمرائه بالخيول مرتين في كل سنة : المرة الأولى عند خروجه إلى مرابط خيوله على القُرْط في أواخر ربيعها ، فينعم على الأخِصَّاء من أمرائه بما يختاره من الخيول على قدر مراتبهم ، وتكون خيول المقدّمين منهم مُسْرَجة ملجَمة بكنابيش من زركش ، وخيولُ أمراء الطبلخانات عُرْياً من غير قُمَاش . المرة الثانية عند لَعِبه الكُرَةَ بالميدان ، وتكون خيول المقدّمين والطبلخانات مُسْرَجَةً مُلْجَمَةً

بفضة يسيرة بلا كنابيش ؛ وكذلك يرسل إلى نوّاب الممالك الشامية كل أحد بحسبه ، وليس لأمراء العشرات في ذلك حظ إلا ما يتفقدهم به على سبيل الإنعام .

قال المقرّ الشهابيّ بن فضل الله : ولخاصة المقربين من الأمراء المقدّمين والطبلخانات زيادات كثيرة في ذلك بحيث يصل بعضهم إلى مائة فرس في كل سنة ؛ وله أوقاتٌ أخرى يفرّق فيها الخيلَ على مماليكه،وربما أعطى بعض مقدّمي الحَلْقة ؛ وكلُّ مَنْ مات له فرس من مماليكه دفع إليه عوضه ، وربما أنعم بالخيول على ذوي السّنّ من أكابر الأمراء عند الخروج إلى الصيد ونحوه .

ولخيول الأمراء في كل سنة إطلاقات أراض بالأعمال الجيزية لزرع القُرْط لخيولهم من غير خرَاج ؛ وللمماليك السلطانية البرْسيم المزدرَع على قدر مراتبهم ، وما يدفع إليهم من القرط يكون بدلا من عليق الشعير المرتّب لهم في غير زمن الربيع عوضاً عن كل عليقة نصف فدّان من القرط القائم على أصله في مدّة ثلاثة أشهر .

* * *

النوع الثالث

(الكُسْوة والحوائص)

قد جرت عادة السلطان أنه ينعم على مماليكه وخواصّ أهل المناصب من حـَمَلة الأقلام في كل سنة بكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف على قدر مراتبهم ، ومن عاداته أنه إذا ركب للعب الكرة بالميدان فرّق حوائصَ من ذهب على بعض الأمراء المقدّمين ، يفرّق في كل موكب ميدان على أميرين بالنّوْبة حتّى يأتي على آخرهم في ثلاث سنين أو أربع بحسب ماتقع نَوْبته في ذلك . قال في « المسالك » : أما أمراء الشام فلا حظّ لهم من الإنعام في أكثَرَ من قَبَاء واحد يلبس في وقت الشتاء إلا من تعرّض لقصد السلطان فإنه ينعم عليه بما يقتضيه حاله .

* * *

النوع الرابع

(الإنعام والأوقاف) (١)

وأكثر الأوقات لاضابط لعطائه إنما يكون بحسب

---

(١) في الضوء « والإدرار » .

مزية المنعَم عليه عند السلطان وقربه منه . قال في « مسالك الأبصار » : ولخاصة الأمراء المقدّمين أنواع من الإنعامات كالعَقَار والأبنية الضَّخمة التي ربما أُنْفق على بعضها فوق مائة ألف دينار ، وكساوي القماش المنوّع ، وفي أسفارهم في وقت خروجهم إلى الصيد وغيره العلوفات والأموال .

• • •

النوع الخامس

(المأكول والمشروب)

أعظم أسمطة هذا السلطان تكون بالإيوان الكبير أيامَ المواكب . إذا خرجت القضاة وسائر أرباب الأقلام من الخدَمة ، مُدّ السماطُ بالايوان الكبير من أوّله إلى آخره بأنواع الأطعمة المنوّعة الفاخرة ، ويَجْلس السلطانُ على رأس الخِوَان، والأمراءُ يَمْنَةً ويَسْرَةً على قدر مراتبهم في القرب من السلطان ، فيأكلون أكلاً خفيفاً ثم يقومون ، ويجلس مَنْ دونهم طائفة بعد طائفة ، ثم يُرفَع الخِوَان . وأما في بقية الأيام فيمدّ الخِوَانُ في

طرَفي النهار لعامّة الأمراء خلا البرّانيين، فانه لايحضُره منهم إلا القليل النادر .

ففي أوّل النهار يمدّ سماطٌ أولُ لايأكل منه السلطان شيئاً ، ثم سِماط ثَانٍ بعده قد يأكل منه السلطان وقد لايأكل ، ثم سماط ثالث بعده يسمى الطارىء ، ومنه مأكول السلطان .

وفي أُخْرَيَاتِ النهار يمدّ سماطان الأوّل والثاني المسمى بالخاص ، ثم إن استُدْعي بطارىء حضر ، وإلا فبحسب ما يؤمر به ، وفي كل هذه الأسمطة يسقى بعدها المشروب من الأقسما السكّرية عقب الأكل . وأما في الليل فيبيت بالقرب من مبيته أطباقٌ من أنواع المآكل المختلفة والمشروب الفائق ليتشاغل أصحاب النوَب بالمأكول والمشروب عن النوم . قال في « مسالك الأبصار » : ولكل ذي إمرة بمصر من خواص السلطان عليه السكر والحَلْوى في شهر رمضان ، والضَّحية على مقادير رُتَبهم .

* * *

المقصد السابع

(في اختصاص صاحب هذه المملكة بأماكنَ داخلة في نطاق مملكته ، يمتاز بها على ملوك الأرض من المسلمين وغيرهم)

منها الكعبة المعظمة داخلة في نطاق هذه المملكة ، واختصاصه بكسوتها ودَوَران المحمل في كل سنة .

أما كسوة الكعبة ، فانها كانت في الزمن الأوّل مختصّةً بالخلفاء . وكانت خلفاء بني العبّاس يجهزونها من بغدادَ في كل سنة ، ثم صارت إلى ملوك الديار المصرية يجهزونها في كل سنة ، واستقرّت على ذلك إلى الآن . ولا عِبْرة بما وقع من استبداد بعض ملوك اليمن في بعض الأعصار بذلك في بعض السنين ، وهذه الكسوة تُنْسَج بالقاهرة المحروسة بمشهد الحُسَين من الحرير الأسود مطرّزةً بكتابة بيضاء في نفس النسج ، فيها : ﴿ إنَّ أوّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنّاسِ لَلَّذي بِبَكّةَ ﴾ الآية . ثم في آخر الدولة الظاهرية برقوق استقرّت الكتابة صفراء مشعّرة بالذهب . ولهذه الكسوة ناظر مستقلٌ بها ، ولها

وقف أرض بيسوس من ضواحي القاهرة يُصْرف منها على استعمالها .

وأما دَوَران المَحْمَل ، فقد جرت العادة أنه يدور في السنة مرتين : المرّة الأولى في شهر رجب بعد النصف منه ، يحمل وينادى لأصحاب الحوانيت التي في طريق دَوَرانه بتزيين حوانيتهم قبل ذلك بثلاثة أيام ، ويكون دَوَرانه في يوم الاثنين أو الخميس لايتعدّاهما ، ويحمل المَحْمَلُ على جمل، وهو في هيئة لطيفة من خركاه،وعليه غِشاءٌ من حرير أطلس أصفر ، وبأعلاه قُبّة من فضة مطلية،ويبيت في ليلة دَوَرانه داخلَ باب النصر بالقربِ من باب جامع الحاكم ، ويحمل بعد الصبح على الجمل المذكور ويسير إلى تحت القلعة ، فيركب أمامَه الوزيرُ والقضاةُ الأربعة والمحتسبُ والشهودُ وناظر الكسوة وغيرهم ، ويركب جماعة من المماليك السلطانية الرمّاحة ملبسين المصفّات الحديد المُغَشّاة بالحرير الملوّن ، وخيولهم ملبسة البركستوانات والوجوه الفولاذ كما في القتال ، وبأيديهم الرماح ، عليها الشطفات السلطانية فيلعبون تحت القلعة كما في حالة الحرب ، ومنهم جماعة صغار بيد

كل منهم رمحان يديرهما في يده وهو واقف على ظهر الفرس ، وربما كان وقوفه في نَعْل من خشب على ذُبَاب سيفين من كل جهة ، وهو يفعل كذلك ويهيئُوا من أزيار النفط وغيرها جملة مستكثَرة ، ويطلق تحت القلعة في خلال ذلك ، ثم يذهب إلى الفُسْطَاط فيمرّ في وسطه ، ثم يعود إلى تحت القلعة ويفعل كما في الأوّل إلا أنه أقل من ذلك ؛ ثم يحمل من (١) جامع الحاكم ويوضع في مكان هناك إلى شوّال ؛ وفي خلال ذلك كله الطبلخانات والكوسات السلطانية تضرب خلفه ، ويخلَع فيه على جماعة مستكثَرة ؛ وكذلك يفعل في نصف شوّال إلا أنه يرجع من تحت القلعة إلى باب النصر ويخرج إلى الرَّيْدانيّة للسفر ولا يتوجه إلى الفُسْطَاط .

* * *

(١) لعله إلى جامع الخ .

المقصد الثامن

(في انتهاء الأخبار إليه ، وهو على ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(أخبار الملوك الواردة عليه مكاتبات منهم)

وقد جرت العادة أنه إذا وصل رسولٌ من ملك من الملوك إلى أطراف مملكته كَاتَبَ نـائب تلك الجهةالسلطانَ ،عرّفه بوُفُوده ، واستأذنه في إشخاصه إليه ، فتبرُزُ المراسيمُ السلطانية بحضوره فيحضُر . فاذا وقع الشّعور بحضوره فإن كان مرسله ذا مَكَانة عظيمة من الملوك : كأحد القانات من ملوك الشرق ، خرج بعض أكابر الأمراء كالنائب وحاجب الحُجّاب ونحوهما للقائه . وأُنْزِل بقصور السلطان بالميدان الذي يلعب فيه بالكُرَة ، وهو أعلى منازل الرسل . وإذا كان دون ذلك تلقاه المهمندار ،واستأذن عليه الدّوادار ،وأنزله دارَ الضيافة أو ببعض الأماكن على قدر رتبته ، ثم يرتقب يومَ موكبٍ فيجلس السلطان بإيوانه ، وتحضر أعيان المملكة الذين شأنهم الحضور من أرباب السيوف والأقلام ، ويحضُر ذلك الرسول وصحبته الكتاب الوارد معه ، فيُقَبِّلُ الأرض

ويتناول الدوادار الكتابَ منه فيمسحه بوجه (١) الرسول ، ثم يدفعه إلى السلطان فيفُضُه ويدفعه إلى كاتب السر فيقرؤه على السلطان ويأمر فيه أمرَه .

النوع الثاني

(الأخبار التي تَرِدُ عليه من جهة نوّابه)

عادة هذا السلطان أن يطالعه نُوّابُه في مملكته بكل مايتجدّد عندهم من مهمّات الأمور أو ماقاربها ، وتؤخذ أوامره وتعود أجوبته عليهم من ديوان الإنشاء بما يراه في ذلك ، أو يبتدئهم هو بما يقتضيه رأيه ، وينفّذ على البُرُد أو أجنحة الحَمَام الرسائلي على مايأتي ذكره في المقالة الثالثة من الكتاب إن شاء الله تعالى .

وقد جرت العادة أنه إذا ورد بَرِيدٌ من بلد من بلاد المملكة أو عاد المجهّز من الأبواب الشريفة بجواب ، أحضره أمير جاندار والدوادار وكاتب السر بين يدي السلطان فيُقَبِّلُ الأرض ، ثم يأخذ الدوادار الكتاب

(١) أي من عادتهم مسح الكتاب بوجه حامله ثم يناوله للسلطان .

فيمسحه بوجه البريديّ ، ثم يناوله للسلطان فيفُضّه ويجلس كاتب السر فيقرؤه عليه ويأمر فيه بأمره .

وأما بطائق الحمام ، فإنه إذا وقع طائر من الحمام الرسائلي ببطاقة أخذها البرّاج وأتى بها الدّوادار ، فيقطع الدوادار البطاقة عن الحمام بيده ، ثم يحملها إلى السلطان ويحضر كاتب السرّ فيقرؤها كما تقدّم .

* * *

النوع الثالث

(أخبار حاضرته)

جرت العادة أن واليَ الشُّرْطَةِ يستعلم متجدّدات ولاياته من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك في كل يوم من نوّابه ، ثم تكتب مطالعة جامعةٌ بذلك وتحمل إلى السلطان صبيحة كل يوم فيقف عليها . قال في « مسالك الأبصار » : وأما مايقع للناس في أحوال أنفسهم فلا .

* * *

المقصد التاسع

(في هيئة الأمراء بالديار المصرية وترتيب إمرتهم)

واعلم أن كل أمير من أمراء المئين أو الطبلخانات، طان مختصر في غالب أحواله . ولكل منهم بيوت، ندمة كبيوت خدمة السلطان من الطشت خاناه . فراش خاناه . والركاب خاناه . والزرد خاناه . لطبخ ، والطبلخاناه . خلا الحوائج خاناه فإنها مختصة سلطان ، ولكل واحد من هذه البيوت مهتار متسلم صلته ، وتحت يده رجال وغلمان لكل منهم وظيفة نصبه ، وكذلك لكل منهم الحواصل من إصطبلات يول ومناخات الجمال وشون الغلال ؛ وله من أجناده تادار ، ورأس نوبة ، ودوادار ، وأمير مجلس ، تمدارية ، وأميرآخور ، واستادار صحبة ، ومشرف . يصف البيوت في دواوين الأمراء بالكريمة ، فيقاله وت الكريمة كما يقال في بيوت السلطان البيوت الشريفة ، كذلك كل فرد منها فيقال : الطشت خاناه الكريمة فراش خاناه الكريمة ، وكذا في الباقي ؛ ويوصف

الإصطبل بالسعيد فيقال : الإصطبل السعيد ، وكذلك المُنَاخ ؛ وتوصَف الشُّوَن بالمعمورة فيقال : الشُّونة المعمورة . قال في « مسالك الأبصار » : ومن رَسْم الأمراء أن يركب الأمير منهم حيث ركب وخلفه جنيب مُسْرَج مُلْجَم وربما ركب الأمير من أكابرهم بجنيبين سواء في ذلك الحاضرة والبَرّ . قال : ويكون لكل منهم طُلب مشتمل على أكثر مماليكه ، وقدّامهم خِزَانة محمولة للطبلخاناه على جمل واحد ، يجرّه راكب على جمل آخر ، والألف على جملين وربما زاد بعضهم على ذلك . وأمامَ الخزانة عِدّة جنائب تُجَرُّ على أيدي مماليكَ رُكّاب خيل وهِجْن وركّابة من العرب على هجن ، وأمامهم الهِجْن بأكوارها مجنوبة ، للطبلخاناه قطار واحد وهو أربعة ، ومركوب الهَجّان والألف قطاران، وربما زاد بعضهم . قال : وعدد الجنائب في كثرتها وقلتها إلى رأْي الأمير وسَعَة نفسه ، والجنائب المذكورة منها ماهو مُسْرَجٌ مُلْجَمٌ ، ومنها ماهو بعباءة لاغير . انتهى كلامه .

ومن عادتهم أيضاً أن الأمير إذا ركب يكون أكابر

أجناده من أرباب الوظائف : كرأس نَوْبة والدَّوادار ، وأمير مجلس ، ومشاة الخدمة أمامه ؛ وكلٌّ من كان منهم أكبر كان إليه أقرب ؛ وتكون الجمدارية من مماليكه الصِّغار خلفه وأميرآخوره خلف الجميع ، ومعه الجنائب والأوشاقية على قاعدة السلطان في ذلك .

ومن عادة أكابر مجالس (١) بيوتهم أن ينصب للأمير بشتميخ خلف ظهره من الجوخ الأحمر المزهر بالجوخ الملوّن ، برنك ذلك الأمير وطراز فيه ألقابه ، ويجلس على مقعد مُسْنِداً ظهره إلى البشتميخ ، وربما جلس أكابرهم على مدوّرة من جلد ورجلاه على الأرض ، وتكون الناس في مجلسه في القرب إليه على حسب مراتبهم .

ومن عادة كل أمير كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه مابين هناب أو دواة أو بقجة أو فرنسيسية ونحو ذلك ، بشطفة واحدة أو شطفتين ، بألوان مختلفة ، كل أمير بحسب مايختاره ويؤثره من ذلك ، ويجعل ذلك دهاناً على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم كمطابخ

---

(١) لعله « ومن عادة الأكابر في مجالس الخ » .

السُّكَّر ، وشون الغلال ، والأملاك والمراكب وغير ذلك ، وعلى قُمَاش خيولهم من جوخ ملَّون مقصوص . ثم على قماش جمالهم من خيوط صوف ملوَّنة تنقش على العبي والبلاسات ونحوها ، وربما جعلت على السيوف والأقواس والبركصطوانات للخيل وغيرها .

ومن عوائد أمراء العسكر بالحضرة السلطانية أنهم يركبون في يومي الاثنين والخميس في الموكب منضمين على نائب السلطنة الكافل إن كان ، وإلا فعلى حاجب الحُجّاب ،ويسيرون تحت القلعة مرَّات ، ثم يقفون بسوق الخيل،وتُعْرَض عليهم خيول المناداة ، وربما نُودِي على كثير من آلات الخيل والخيَم والحركاوات والأسلحة . قال في « مسالك الأبصار » : وقد ينادي على كثير من العَقَارات ، ثم يطلُعُون إلى الخِدْمة السلطانية على ماتقدَّم .

ومن قاعدة هذه المملكة أن أجناد الأمراء كافة تُعْرَض بديوان الجيوش السلطانية وتثبت أسماؤهم مفصّلة فيه ، وكانوا فيما تقدَّم يحلون بالديوان . أما الآن ، فقد ترك ماهنالك واكتُفِي بأوراق تكتب من دواوين الأمراء

بأسماء أجناده وتخلّد بديوان الجيوش . ثم كلما مات واحد منهم أو فُصِل من الخدمة ، عُرِض بديوان الجيش واحد مكانه يعبر فيه عرض من ديوان ذلك الأمير .

ومن عادتهم أن من مات من الأمراء والجند قبل استكمال سنة خدمته حوسب في مستحق إقطاعه على مقدار مدّته ، وكتب له بذلك محاسبة من ديوان الجيوش ، ويكون مايتَحصّل من المغلّ شركة بين المستقِر وبين الميت أو المنفصل على حسب استحقاق القراريط ، كل شهر من السنة بقيراطين .

ومن عادة الأمراء أنه إذا مر السلطان في متصيّداته باقطاع أمير كبير ، قدّم له من الإوَزّ والدَّجاج وقصب السكر والشعير ماتسمو إليه همة مثله فيقبله منه ، ثم ينعم عليه بخِلْعة كاملة يلبسها ، وربما أمر لبعضهم بشيء من المال فيقبضه .

* * *

"٣"

مملكة تونس

وما أضيف إليها

مملكة تونس
وما أضيف إليها

(حدودها)

وأما حدودها فعلى ما أشار إليه في « التعريف » : حَدُّها من الشرق العَقَبة الفاصلة بينها وبين الدِّيار المصرية ؛ ومن الشَّمال البحر الرُّوميّ ؛ ومن الغرب جزائرُ بني مَزْغِنّان الآتي ذكرها ؛ ومن الجَنُوب آخر بلاد الجريد والأرض السواخة إلى مايقال إن فيه المدينةَ المسماةَ بمدينة النُّحاس .

قال في « مسالك الأبصار » : وحدّها من الجنوب الصَّحراء الفاصلةُ بينها وبين بلاد جباوة المسكونة بأُمَم من السُّودان . وحدُّها من الشرق آخرْ حدود أطْرابُلُس ، وهي داخلة في التحديد . وحدُّها من الشمال البحر الشاميّ : وهو الرومي . وحدّها من الغرب آخر حُدود بَدْليس

المجاورة لجزائر بني مَزْغِنّان ، آخر عُمّالة صاحب برّ العُدْوة .

وقد نقل في « تقويم البُلْدان » في الكلام على بُونةَ عن ابن سعيد أنَّ آخر سلطنة بِجايةَ من الشرق مدينةُ بُونةَ الآتي ذكرُها ، وأنها أوّلُ سلطنة أفْريقيّةَ من الغرب . قال في « مسالك الأبصار » : وطولُها خمس وثلاثون يوماً ، وعرضها عشرون يوماً .

* * *

(في بيان ما اشتملت عليه هذه المملكةُ من الأعمال
وما انطوى عليه كلُّ عمل)

وهذه المملكة تشتمل على عملين :

العمل الأول : أفريقيّة . قال في « تقويم البلدان » : بفتح الهمزة (١) وسكون الفاء وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة تحت وكسر القاف ومثناة تحتُ بعدها هاء في الآخر . وقد اختُلف في سبب تسميتها أفريقية . فقيل إن

(١) ضبطها ياقوت بكسر الهمزة وتبعناه فيما تقدم ويظهر أن فيه لغتين .

أفْرِيقس (١) أحد تَبَابعة اليمن افتتحها واستولى عليها فسمِّيت بذلك . وقيل إنما سميت بفارق بن (بيصر بن حام بن نوح عليه السلام) (٢) .

وكانت قاعدتها القديمةُ (سُبَيْطَلَة) بضم السين المهملة وفتح الباء الموحدة وسكون المثناة من تحتها وفتح الطاء (٣) المهملة واللام في آخرها هاء . وهي مدينة أزليّة وبها آثار عظيمة تدُلُّ على عظم أمرها .

قال الإدريسي : وكانت قبل الإسلام مدينةَ افريسيس (٤) ملك الروم الأَفارِقَةِ ، فتحها المسلمون في صدر الإسلام وقتلوا مَلِكها المذكور .

ثم صارت قاعدتُها في أوّل الاسلام (القَيْرَوَانَ)

---

(١) في المعجم والسبائك أفريقيس بياء بعد القاف وبسين مهملة في الآخر . وفي العبر كالأصل إلا أنه بالمعجمة وقد تقدم بها كثيراً .

(٢) بياض بالأصل وما بين القوسين عن معجم البلدان لياقوت .

(٣) في معجم ياقوت : وطاء مكسورة .

(٤) في التقويم « جرجيس » وفي المعجم جرجير .

بفتح القاف وسكون المثناة تحتُ وفتح الراء المهملة وواو وألف وفي آخرها نون . وهي مدينة بنيت في صدر الاسلام بعد فتح أفْرِيقيّة في جنوبيّ جبل شماليّها ؛ وهي في صحراءَ ، وشُرْب أهلها من ماء الآبار. وقال في « العزيزي » : من ماء المطر ؛ وليس لها ماءٌ جارٍ . ولها وادٍ في قبلة المدينة به ماءٌ مالِحٌ يستعمله الناس فيما يحتاجونه . قال في « العزيزي » : وهي أجلُّ مُدُن الغرب (يعني في القديم) . وكان عليها سور عظيم هدمه زيادةُ الله بن الأغلب . قال الإدريسي : وبينها وبين سُبَيْطَلَة سبعون ميلا .

ثم صارت قاعدتُها بعد ذلك (المَهْدِيّةَ) بفتح الميم وسكون الهاء وكسر الدال المهملة نسبة إلى المَهْدي . وهي مدينة بناها عُبَيْد الله المهديّ جدّ الخلفاء الفاطميين بمصر في سنة ثلاث وثلاثمئة ؛ وهي على طَرَف داخلٍ في البحر كهيئة كفٍ متصل بزَنْد ، والبحر محيطٌ بها غيرَ مَدْخَلِها ، وهو مكان ضيق كما في سَبْتَةَ . ولها سور حَصين شاهقٌ في الهواء ، مبنيّ بالحجر الأبيض بأبراجٍ عِظَام . وبها القُصور الحسنةُ المُطِلّة على البحر ..

ثم صارت قاعدتُها بعد ذلك (تُونُسَ) بضم المثناة من فوقُ وسكون الواو وضم النون وفي آخرها سين مهملة، وهي قاعدة هذه المملكة الآن . ومُسْتَقَرّ سلطانها . وهي مدينة قديمةُ البناء ، وهي على بحيرة مالحة خارجةٍ من البحر الرُّوميّ ، طولُها عشرة أميال وتُونُس على آخرها .

قال البكري : يدَوْر هذه البُحَيرة نحوُ أربعة وعشرين ميلا . قال في « العزيزي » : وهي مدينة جليلة ، لها مِياهٌ ضعيفةٌ جاريةٌ يُزْرَعُ عليها ؛ وفيها الخِصب وكثرة الغَلاَّت . وهي في وطاءةٍ من الأرض في سَفْح جبل يُعْرف بأمّ عَمْرو . يَسْتدير بها خَنْدقٌ وسُور حَصين ، ولها ثلاثة أرباضٍ كبيرة من جهاتها ، وأرضُها سَبِخة ، وجميع بنائها بالحجر والآجُرّ . وأبنيتُها مسقّفة بالأخشاب . ودُورُ أكابرها مفروشةٌ بالرُّخَام . وذم في « الروض المعطار » بيوتَها فقال: هي كما يقال : ظاهِرُها رُخَام ، وباطنُها سُخَام . وشُربُ أهلها من الآبار ، وبيوتها صَهاريج يُجْمع فيها ماءُ المطر لغَسْل

القُماش ونحوه ؛ وبها الحَمّامات والأسواق الجليلة ؛ وبها ثلاثُ مَدَارِسَ : وهي الشماعية والفرضية ، ومدرسة الهواء ؛ وبها البساتين البعيدة والقريبة منها ، والبساتين محيطة ببُحَيرتها المقدّم ذكرها من جنوبيها .

قال في « مسالك الأبصار » : ومذ خَلاَ الأندلس من أهله ؛ وأوَوْا إلى جَنَاح ملوكها ، مَصّروا إقليمها ، ونَوّعوا بها الغِراسَ ، فكثُرت مستنزَهاتها ، وامتدَ بَسِيط بساتينها . قال : وبها يُعْمَل القُمَاش الأفريقي : وهو ثياب رِفَاع من القُطْن والكتَان مَعاً ، ومن الكتّان وحده ، وهو أمتع من النّصافي البغداديّ وأحسَن . ومنه جُلُّ كَسَاوي أهل المَغْرِب . وللسلطان بها قلعةٌ جليلة يَسْكنها ، يُعَبّرون عنها بالقَصَبة كما هو مصطلح المَغَاربة في تسمية القلعة بالقَصَبة . وللسلطان بها بستانان أحدهما مُلاصق أرباضَ البلد يسمّى برأس الطابية ؛ والثاني بعيدٌ من البساتين يسمّى بأبي فِهر ، بينه وبين البلد نحو ثلاثةِ أميال ، والماء مُنْساق إليهما من ساقية بجبل يعرف بجبل زَغْوان (بفتح الزاي وسكون الغين المعجمتين ونون في الآخر) ، على مَسِيرةِ يومين من تُونُس.

وأما ما اشتملَتْ عليه من المُدُن سوى القواعدِ المتقدّمة الذكر .

فمن مشارق (سُوسَةُ) بضم السين المهملة وسكون الواو وفتح السين الثانية ثم هاء . وهي مدينةٌ على ساحل البحر . وهي في جَنُوبي تُونُس وشرقِيِّها في طَرَفٍ داخل في البحر . قال في « العزيزي » : وهي مَدينة أزَليّة بها سُوقٌ وفنادق وحَمامات . قال الإدريسيّ : وهي عامرة بالناس ، كثيرةُ المَتَاجر ، والمسافرون إليها قاصِدُون وعنها صادِرُون ، وعليها سورٌ من حجر حَصِينٌ .

وذكر في « مسالك الأبصار » : أن عليها سُوراً من لَبِن ، وأنها قليلةُ العِمارة لاستيلاء العرب عليها .

ومنها (صَفَاقُسُ) بفتح الصاد المهملة ثم فاء وألف وقاف مضمومة وفي آخرها سين مهملة . وهي مدينة على ساحل البحر شَرْقِيّ المَهْدِيّة ، قال في « تقويم البُلْدان » : وهي مدينة صغيرة في مستَوٍ من الأرض ، وجَنُوبيّها جبل يسمّى جبل السَّبْع بفتح السين المهملة

والباء الموحدة وعين مهملة في الآخر . يستدير عليها سُورٌ ؛ وشُرْب أهلها من الآبار ؛ ولها بساتينُ قليلة ؛ ومن بحرها يُستخرَج الصُّوف المعروفُ عند العامّة بصُوف السَّمَك المتّخَذُ منه الثيابُ النّفيسةُ . قال ابن سعيد ـ أنا رأيته كيف يُخْرَج ، يغوص الغَوّاصون في البحر فيُخرِجون كمائمَ شبيهةً بالبصل بأعناق ، في أعلاها زُوَيْرة ، فتُنْشَر في الشمس فتَنْفتح تلك الكمائم عن وَبَر ، فيُمَشّط ويؤخَذ صوفُه فيُغْزَل ، ويعمل منه طعمة لقيام من الحرير ، وتُنْسَج منه الثيابُ .

ومنها (قابِسُ) بفتح القاف وألف ثم باء موحدة وفي آخرها سينٌ مهملة . وهي مدينة على ثلاثة أميال من البحر . قال في « العزيزي » : وعليها سُور وخَنْدق . قال في « تقويم البُلْدان » : وهي في أفرْيقيّة كدِمَشْقَ في الشام ، يَنْزِل إليها نهرانِ من الجبل في جَنُوبيّها ، يخترقان في غُوطَتِها . قال : وقد خُصَّت من بلاد أفريقيّةَ بالمَوز وحَبِّ العزيز والخِيَار .

ومنها (أطْرَابلُسُ) بفتح الهمزة وسكون الطاء

وفتح الراء المهملتين وألف وباء موحدة بعدها لام مضمومتان وسين مهملة في الآخر . وهي مدينة شرقيَّ تونُسَ على البحر . قال في « تقويم البلدان » : وهي آخِرُ المُدُن التي شرقِيَّ القَيْرَوَانِ ، وإذا فارقها المسافر مشرِّقاً لايجد مدينةً فيها حَمّام حتّى يصل الإسكَنْدريةَ . وبناؤها بالصَّخْر ، وهي واسعةُ الكُورة ، وبها الخِصْب الكثير ؛ وليس بها ماءٌ جارٍ ، بل بها جِبَاب عليها سواق . قال في «العزيزي» وبها مَرْسىً للمراكب .

ومنها (قَصْر أحمدَ) وضبطه معروف . قال ابن سعيد : وهو حدّ أفريقيّةَ من الشرق وحدّ بَرْقةَ من الغرب . وهو قرية صغيرة ، وحَوْلَه قُصور نحو اثنَيْ عشر ميلا ؛ وهي بلادُ زيتونٍ ونخيلٍ ، وأهلها يَجْلُبون الخيلَ للإسْكَندريّة ، ومنها يركب المسافرُ البَرِّيّةَ إلى الشرق .

ومن مَغَارب تُونُس على مسيرة يومين (باجَةُ) قال في « المشتَرَك » : بفتح الباء الموحدة وألف وتخفيف الجيم ثم هاء . وهي مدينة كبيرة ، ولها بساتينُ قليلة وعيونُ

ماء ؛ وعليها سورٌ حصين ، مبنيَّةٌ في مستوٍ من الأرض ؛ على نحو يوم من البحر ، ويقابلها على البحر مَرْسى الخَرَز .

ومنها (نَبْزَرْت) بفتح النون وسكون الباء الموحدة وفتح الزاي المعجمة والراء المهملة وفي آخرها تاء مثناة من فوق ، وقيل: هي بتقديم الموحدة على النون . وهي مرسى تُونُس . وهي مدينة على نهرٍ يجري في شَرْقِيِّها وعليه مستَنْزَهاتها . قال في « تقويم البُلْدان » : ولها بُحَيْرة حُلْوة في جَنُوبِيِّها ، وبُحَيْرَة مالحةٌ في شرقِيِّها ، تصُبُّ كلٌّ واحدة منهما في الأخرى ستةَ أشهر ؛ فلا الحلوةُ تفسُد بالمالحة ولا المالحة تعْذُب بالحُلوة . قال الشيخ عبد الواحد : أما زيادة الحُلْوة فبكثْرة السُّيُول أيامَ الشتاء ، وتقلُّ عنها السيولُ في أيام الصيف فتَعْلُو عليها المالحة .

ومنها (بُونة) قال في « اللباب »: بضم الباء الموحدة وسكون الواو ثم نون وهاء . قال في « مسالك الأبصار » : وهي المسمَّاة الآنَ بَلَد العُنّاب ؛ وهي مدينة على ساحل البحر . قال في « العزيزي » : وهي مدينة جليلة عامرة خِصْبةُ الزَّرع ، كثيرةُ الفواكه ، رَخِية ؛ بظاهرها

مَعادِنُ الحديد ؛ ويُزْرَع بها الكَتّان الكثيرُ . قال : وحَدَّث بها عن قريب مَغَاصُ مَرْجانٍ ، ولكن ليس كَمرْجانِ مَرْسى الخَرَز .

ومن قِبْليّ تُونُس للجَنُوب (بلادُ الجَرِيد) .

ومنها (تُوزَرُ) . قال في « تقويم البُلْدان » عن الشيخ عبد الواحد : بضم المثناة من فوقُ وسكونِ الواو وفتح الزاي المعجمة وراء مهملة في الآخر . وهي قاعدة بلاد الجَرِيد ، وبها بساتينُ ومَحْمَضات ونخيلٌ وزيتونٌ ؛ ولها نهر يَسْقِي بساتينها ؛ والمطر بها قليل ؛ ويُزْرَع بها الكَتّان والحِنّاء . قال في « تقويم البُلْدان » : وبذلك وبِقِلّة المطر تُشْبِه مِصْرَ . وقد عابها في « الروض المِعْطار » بأن أهلها يبيعون ما يتَحَصَّل في مَرَاحِيضهم من رَجيع الناس ، يُفَحِّلون به بُقُولهم وبساتينهم ؛ ولكنهم لايَرْغَبون فيه إلا إذا كان جافاً ، فيحمِلُهم ذلك على عَدَم الاِستنجاء في مَرَاحِيضهم ، ويخرج أحَدُهم من بيته حتّى يأتي القَناةَ فيستَنْجِيَ من مائها ؛

وربما اتخذ أحدُهم المراحيضَ على قارعة الطريق للواردين عليها ليأخُذ ما يتحصّلُ من ذلك فيبيعه .

ومنها (قَفْصة) بفتح القاف وسكون الفاء ثم صاد مهملة وهاء في الآخر . قال ابن سعيد : وهي قاعدةٌ مشهورةٌ من بلاد الجَريد بها النّخيل والفُستُق . قال : ولا يكون الفُستُق ببلاد المَغْرب إلا في قَفْصة . وبها من الفَوَاكه والمشمومات أنواع كثيرة ؛ ومنها يُجلَب دُهْن البنَفْسَج وخَلّ العُنْصُل ، وإليها يُنْسَب جلدُ الأَرْوى المتخَذُ منه النّعال الشديدةُ اللّيُونة.

ومنها (المِسيلة) قال في « تقويم البُلْدان.» عن الشيخ عبد الواحد : بكسر الميم والسين المهملة وسكون المثناة من تحت وفي آخرها لام ألف ، والجاري على الألْسِنة فتح الميم وهاء في الآخر . وهي مدينة من بلاد الجَريد ، قال في « العزيزي » : وهي مدينة مُحْدَثة ، بناها القائمُ الفاطِميُّ سنةَ خمسَ عشرةَ وثلاثمئة . قال ابن سعيد : ولها نَهَر يمُرّ بغربيّها ويغُوص في رِمال الصّحارى .

ومنها (بِسْكَرَةُ) قال في « اللباب » بكسر الباء

الموحدة، وقيل بفتحها، وسكون السين المهملة وكاف وراء مهملة بعدها هاء . وهي مدينة من بلاد الجَرِيد ، قال ابن سعيد : وهي قاعدةُ بلاد الزّابِ ، ولها بلادٌ ذاتُ نخيلٍ وفواكه وزروع كثيرة ؛ ومنها يُجْلَبُ التمرُ الطيِّبُ إلى تونُسَ وبجايةَ .

ومنها (طُرّا) قال في « تقويم البلدان » عن عبد الواحد : بضم الطاء وتشديد الراء المهملتين وفي آخرها ألف ، ونُقِل عن بعضهم إبدال الألف هاءً . وهي مدينة من بلاد الجَرِيد. قال في « تقويم البُلْدان » : وبها يُعْمَل الزّجَاج الصافِي وتفاصيل الصوف ، ومنها يُجْلَب إلى الإسكندرية .

ومنها (غَدَامِسُ) بفتح الغين والذال المعجمتين(١) وألف وميم مكسورة وسين مهملة . وهي مدينة في الصحراء جَنُوبِي بلاد الجَرِيد ، على طريق السُّودان المعروفين بالكانِمِ . قال : في « العزيزي » : وهي مدينة جليلة عامرة ، في وَسَطها عينٌ أزَلِيَة عليها أثَرُ بُنْيان رُومِيٍ

(١) أوردها ياقوت باهمال دالها ونص على فتح الغين وضمها. ونحو ذلك في القاموس المحيط .

عجيب ، يَفيض الماءُ منها ويقتسمُه أهلُ المدينة بأقساط معلومة،وعليه يَزْرَعون . وأهلها قوم من البربر مسلمون : قال في « تقويم البُلدان » : وبها الجلود المفَضلة ؛ وليس لهم رئيس سِوى مشايخهم .

ومنها (قلعة سِنَان) . قال في « مسالك الأبصار » : وهو قصر لايُعْرَف على وجه الأرض أحصَنُ منه ، على رأس جبل منقطع عن سائر الجبال في غاية العُلُوّ ، بحيث يقصُر سهم العَقّار عن الوصول إليه ، يرتقى إليه من سُلّم نُقِر في الحجر طوله مائة وتسعون درجة ، وبه مَصَانعُ يجتمع فيها ماء المطر ، وبأسفله عينُ ماء عليها أشجار كثيرةُ الفواكه .

* * *

العمل الثاني

(بلاد بِجاية)

وبِجَايَةُ (بكسر الباء الموحدة وفتح الجيم وألف ثم ياء مثناة تحت وهاء في الآخر) : مدينةٌ من مُدُن الغرب الأوسط . قال في « تقويم البلدان » : هي قاعدة الغَرْب الأوسط ، وهي مُقابل طُرْطُوشةَ من الأنْدَلُس ؛ وعرضُ البحر بينهما ثلاثُ مَجَارٍ . قال في « مسالك الأبصار » : وهي مدينةٌ قديمة مسورةٌ ، أضيف إلى جانبها رَبَض أُدير عليه سُور ضامٌ لنِطاق المدينة فصارا كالشيء الواحد . قال : والربَض في وَطاءَة ، والمدينة القديمة في سَفْح جبل ، ويدخل إليها خَوْر من البحر الروميّ تدخُل منه المراكب إليها . قال في « تقويم البُلْدان » ولها نَهَر في شرقيها ، على شاطئه البساتينُ والمَنَازِهُ . قال في « مسالك الأبصار » : وبها عينان من الماء : إحداهما

كبيرة ومنها شُرْب أهلها ، ولها نَهَر جار على نحو ميلين منها ، تَحُفُّ به البساتينُ والمناظرُ على ضَفَّتيه ممتدة نحوَ اثنَيْ عشرَ ميلا ، متصلا بعضُها ببعض لا انفصالَ بينها إلا ما يُسْلَكُ عليه إلى البساتين ، إلى أن يصُب في بحر الروم . وبضَفَّتيْه للسلطان بُستانانِ متقابِلان شرقاً وغرباً الشرقيّ منهما يسمّى الربيع .

وغربيّ بجاية (جزائرُ بني مَزْغِنّانَ) بفتح الميم وسكون الزاي وكسر الغين المعجمتين ثم نونان بينهما ألف،الأولى منهما مشدّدة ، كما في « تقويم البُلدان » عن الشيخ شُعيب ، وبعضهم يُسْقِط النون الأخيرة . وفي « مسالك الأبصار » : مَزْغِنّانةُ بزيادة هاء في الآخر . وهي فُرْضةٌ مشهورةٌ هناك . قال في « مسالك الأبصار » : وهي بلدة حسنة على ساحل البحر ، تقابل (مَيُورْقةَ) من بلاد الأندَلُس ، بانحراف يسير ، وبُعْدُها عن بجاية ستةُ أيام .

ومن المُدُن التي بأعمال البِجاية (قُسْطِينةُ) قال في « تقويم البُلْدان » : بضم القاف وسكون السين وكسر

الطاء المهملتين وسكون المثناة من تحتُ ثم نون وهاء . قال : وعن بعض المتأخرين أن بعد السين وقبلَ الطاء نوناً ، وحينئذ فتكون بضم السين وسكون النون .قال في « تقويم البُلْدان » : وهي على آخر مملكة بِجَاية َ وأوّلِ مملكة أفْرِيقيّةَ . قال الإدريسي : وهي على قطعة جبل منقطع مربَّع فيه بعضُ استدارة ، لايتوصل إليه إلا من جهة بابٍ في غربيِّها ليس بكثير السّعَة ، ويُحيط بها الوادي من جميع جهاتها . قال في « تقويم البُلْدان » : ولها نَهَر يصُبُّ في خَنْدَقِها يُسْمَع له دَوي هائل ، ويُرى النهر في قعر الخَنْدقِ مثلَ ذُؤابة النجم لشدّة ارتفاع البلد عن الخَنْدق . قال الإدريسيّ : وهي مدينة عامرة ، وبها أسواق وتِجَارات . قال : وتُقيم الحنطة في مَطَاميرها مئةَ سنة لاتَفْسُد .

وشرقيّ قُسْطِينةَ في آخر مملكة بِجايةَ (مَرْسى الخَرَز) بفتح الخاء المعجمة والراء المهملة وزاي معجمة في الآخر . ومنه يستخرج المَرْجانُ من قعر البحر على ماتقدّم في الكلام على الأحجار النفيسة فيما يحتاج الكاتب إلى وصفه من المقالة الأولى .

ومنها (سَطِيفُ) بفتح السين و كسر الطاء المهملتين ثم ياء مثناة من تحت ساكنة بعدها فاء . وهي مدينة حَصينة ، بينها وبين قُسْطِينَة أربعُ مراحل ، ولها حِصْن في جهة الجنوب ، عن بِجايةَ على مرحلتين منها ؛ ولها كُورَة تشتمل على قُرىً كثيرةٍ غزيرة المياه كثيرة الشجر المُثْمِر بضروب من الفواكه ؛ وبها الجَوْز الكثير ، ومنها يُحْمل إلى سائر البلاد .

ومنها (تَاهَرْتُ) . قال في « اللباب » : بفتح التاء المثناة فوقُ وألف وهاء وسكون الراء المهملة وفي آخرها تاء ثانية . قال في « تقويم البُلْدان » : ونقلتُ من خط ابن سعيد عوض الألف ياء مثناة تحتُ.قال:وهوالأصح، لأن ابن سعيد مَغْرِبيّ فاضلٌ . قال ابن حوقل : وهي مدينة كبيرةٌ خِصْبة ، كثيرةُ الزَّرْع ، كانت قاعدةَ الغرب الأوسط،وبها كان مقام مُلوك « بني رُسْتم » حتى انقرضت دولَتُهم بدولة الفاطميين خُلَفاء مصر . وذكر الإدريسيُّ أنها كانت في القديم مدينتين : القديمةُ منها على رأس جبل ليس بالعالي . قال في « العزيزي » : وتاهَرْتُ القديمةُ تسمّى « تاهَرْتَ عبد الخالق » وهي

مدينة جليلة كانت قديماً تسمّى « بغداد المَغْرِب » وتاهَرْت الجديدة على مرحلة منها ؛ وهي أعظم من تاهَرْتَ القديمة ؛ والمياه تخترق دُورَ أهلها . وهي ذات أسواق عامرة ؛ وبأرضها مَزَارِعُ وضِيَاع جَمّة ، ويمرّ بها نَهَر يأتيها من جهة الغرب ؛ ولها نهر آخر يجري من عيون تجتمع فيه ، منه شُرْب أهلها ؛ وبها البساتينُ الكثيرةُ المُونِقة ، والفواكه الحسنةُ ، والسّفَرْجل الذي ليس له نظير : طَعْماً وشَمّاً ؛ ولها قلعة عظيمة مُشْرِفة على سُوقها . وتاهَرْتُ كثيرة البَرْد ، كثيرة الغُيوم والثّلْج ؛ وسُورها من الحَجَرُ ؛ ولها ثلاثة (١) أبواب : باب الصّفَا ، وهو باب الأَنْدَلُس ؛ وباب النازل ، وباب المَطَاحن .

* * *

(١) في « المعجم » أربعة أبواب باب الصفا وباب الأندلس الخ .

(فيما يتعلق بمعاملاتها : من الدنانير ، والدراهم ، والأرطال ، والمكاييل ، والأسعار)

أما الدنانير ، فإنها تُضْرَب باسم مَلِكهم ، وزِنةُ كلِّ دينار من دنانيرهم (١) . . . . ويعبِّرون عنه بالدينار الكبير ؛ وذهبُهم دُونَ الذهب المصريِّ في الجَوْدة ، فهو ينقُص عنه في السِّعر .

وأما الدراهم ، فقد ذكر في « مسالك الأبصار » عن أبي عبد الله بن القُوَيع : أن دراهمهم على نوعين : أحدهما يُعْرَف بالقديم ، والآخر بالجديد ؛ ووزنهما واحد إلاأن الجديد منها خالصُ الفضَّة ، والقديمَ مغشوشٌ بالنحاس للمعاملة ، وتفاوُتُ مابينهما أنَّ كل عشرة دراهِم عتيقة بثمانية دراهم جديدة ؛ وإذا أُطْلِق الدرهمُ عندهم فالمراد به القديمُ دونَ الجديد ، ثم مُصْطَلَحُهم أن كل عشرة دراهم عتيقة بدينار ، وهذا الدِّينار عندهم مسمّى لاحقيقة له ، كالدينار الجَيْشي بمصر ، والرائج بإيران .

---

(١) بياض في مخطوطتي المكتبة الخديوية والمكتبة الأزهرية .

وأما أرطالها ، فزنة كلّ رِطْل ستَّ عشرةَ أوقيةً ، كل أوقيّة أحد وعشرون درهماً من دراهمها :

وأما كيلها ، فلهم كيلان : أحدهما يسمّى القفيز ، وهو ستَّ عشرة وَيْبَةً ، كل وَيْبة اثنا عشر مُدّاً قَرَوياً ، وهو يقارب المُدّ النبويّ ، على صاحبه أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام . وهو أيضاً ثمانية أمدادٍ بالكيل الحَفْصِيّ : وهو كيل قدّره ملوكها الحَفْصِيون آباء ملوكها القائمين بها الآن ، بقدر مُدّ ونصف من المدّ المقدّم ذكره . والثاني يسمّى الصَحْفة ، وكل صَحْفة اثنا عشر مُدّاً بالحَفْصِيّ .

* * *

(في ذكر أسعارها)

قد ذكر في « مسالك الأبصار » : أن أوْسَطَ الأسعار بها في غالب الأوقات أن يكون كلُّ قفيز من القمح بخمسين درهماً ، والشعيرُ دون ذلك . قال : وغالب سعر اللحم الضأن عندهم كلُّ رِطْل أفْرِيقيّ بدرهم قديم ؛ وبقيّةُ اللحوم دُونَه في القيمة ، وفي الرَّبيع ينحطُّ السِّعْر عن

هذا القدر . وذكر أن الدجاجة الجَيِّدة عندهم بدِرْهمين جديدين . ثم قال : وأحوالُها مقاربة في ذلك للديار المِصْرية لقرب المجاورَة . وقد ذكر في « مسالك الأبصار » : أن تُونُس وبِجايةَ في المعاملة والسعر متقاربتان .

* * *

(في صفات أهل هذه المملكة في الجملة)

قال في « مسالك الأبصار » : ولأهل أفْرِيقيّة لطفُ أخلاق وشمائلَ بالنسبة إلى أهل برِّ العُدْوة وسائر بلاد المغرب : بمجاورتهم مصر وقُرْبِهم من أهلها ، ومخالطتهم إيّاهم ، ومخالطةِ مَنْ سكن عندهم من أهل إشْبِيلِيةَ من الأنْدَلُسِ . وهُمْ مَنْ هُمْ ! خِفّةَ رُوح ، وحلاوةَ بادرةٍ . قال : وهم على كل حال أهلُ انْطِباع ، وكرم طِبَاع ، وناهيك من بلاد من شِعْر ملِكها السلطان أبي العبّاس قولُه :

مَوَاطِنُنا في دَهْرِهِنّ عجائِبُ
وأزمانُنَا لم تَعْدُهُنّ الغَرائِبُ

مَوَاطن لم تَحْكِ التواريخُ مِثْلَها
ولا حدّثَتْ عنها اللّيالِي الذواهِب

وقوله :

انْظُر إلينا تَجِدْنا مابنا دَهَشْ
وكيف يَطْرُق أُسْدَ الغابة الدَّهَشُ

لاتَعْرِفُ الحادِثَ المرْهُوبَ أنفُسُنا
فإننا بارتكاب الموت نَنْتَعِشُ !

وقوله :

عسى اللهُ يُدْنِي للمُحِبينّ أوْبةً
فتُشفى قلوبٌ منهُمُ وصُدُورُ

وكَمْ من قَصِيٍّ الدار أمسى بحُزنه
فأعْقَبه عند الصَّبَاح سُرُورْ

وإذا كان هذا رِقّةَ طبع السلطان ، فما ظَنُّك بغيره من العلماء والأُدَباء ؟ .

* * *

(في ذكر مَنْ ملكها جاهليةً وإسلاماً)

أما مُلوكُها في الجاهليّة قبل الإسلام ، فإن بلاد المَغْرِب كلّها كانت مع البَرْبر ، ثم غلبهم الرُّوم الكيتم عليها ، وافتتحوا قاعدتها « قَرْطَاجَنّةَ » وملكوها ، ثم جرى بين الرُّوم والبربرِ فتَنٌ كثيرة كان آخرُها أن وقَع الصُّلحُ بينهم على أن تكون المُدُن والبلاد الساحليّة للرُّوم ، والجبالُ والصحارى للبَرْبَر ، ثم زاحم الفَرَنْجُ الرُّومَ في البلاد ، وجاء الإسلام والمستولِي على بلاد المغرب من ملوك الفَرَنْجة « جِرْجِيس » ملكهم ، وكان مُلْكُه متصلا من طَرَابُلسَ من جهة الشرق إلى البحر المحيط من جهة الغرب ، وكرسيّ مُلْكه بمدينة (سُبَيْطَلَةَ) وبقيتْ في يده حتى انتزعها المسلمُون منه في سَرِيّة عبدِ الله بن أبي سَرْح ، في خلافة عثمانَ بنِ عَفّان .

وأما ملوكها في الإسلام ، فعلى أربع طبقات .

الطبقة الأولى

(الخلفاء)

قد تقدّم أنّ أوّل من افتتحها (عبدُ الله بن أبي سَرْح) في خلافة عُثمان بن عَفّان رضي الله عنه ،

زحف إليها في عشرين ألفاً من الصحابة وكبار العرب ،
ففرّق جموعَ النّصرانية الذين كانوا بها : من الفرَنجة ،
والروم والبربر ؛ وهدَم سُبَيْطلَة : قاعدتَها وخرّبها ؛
وعاثت خيُول العرب في ديارهم إلى أن صالحوا عبدَ الله
ابن أبي سَرْح بثلاثمئة قنطار من الذهب ، وقفَل عنهم
سنة سبع وعشرين من الهجرة ، بعد فتح مصر بسبْع
سنين أو ثمان .

ثم أغزاها معاويةُ بنُ أبي سُفْيان (مُعاويةَ بنَ
حديج السّكُوني) سنة أربع وثلاثين .

ثم ولّى معاويةُ (عقبةَ بنَ نافع) بنِ عبد قيس
الفِهْري سنة خمس وأربعين فبنى عُقبةُ القَيْرُوانَ .

ثم استَعْمل معاوية على مصر وأفريقيّةَ (مَسْلَمَةَ
ابن مُخَلّد) فعزل عقبةَ عن أفريقيّة ، وولى عليها
(مولاه أبا المُهاجِر ديناراً) سنة خمس وخمسين . ولما
استقلّ يزيدُ بن معاوية بالخلافة ، رجع عقبةُ بنُ نافع
إلى أفْرِيقيّة سنة ثنتين وستين .

ثم ولّى عبدُ الملك بن مَرْوان عليها زُهَيْر بنَ

قيس البَلَويّ في سنة سبع وستين إلى أن قُتِل في سنة تسع وستين فولّى عليها (حَسّان بن النعمان الغَسّاني) ، فسار ودخل القَيْرَوانَ . وافتتح قَرْطَاجَنّةَ عَنْوة وخَرّبها ، فخرجت عليه الكاهِنةُ مَلِكة الغرب فهزمَتْه ، ثم عاد إليها وقتلها . واستولى على بلادها ؛ ثم رجع إلى عبد الملك واستخلف على أفريقية رجلا اسمه صالح .

ثم ولّى الوليد بن عبد الملك (موسى بن نُصَير) بضم النون ، فقَدِم القَيْرَوانَ وبها صالِحٌ . ثم قفل موسى إلى المَشْرِق واستخلف على أفريقية ابنه عبد الله .

ثم عزله سليمانُ بن عبد الملك في خلافته ، وولّى مكانه (محمد بن يزيد) .

ثم ولّى عمرُ بن عبد العزيز في خلافته (إسماعيلَ ابن عبيد الله بن أبي المهاجر) .

ثم ولّى يزيدُ بن عبد الملك (يزيدَ بن أبي مُسْلم) مولى الحجاج وكاتبه ، فقدمها سنة إحدى ومائة فقتله البربرُ ، وردّوا محمدَ بن يزيد الذي كان عليهم قبله

إلى ولايته ، وكتبوا إلى يزيدَ بن عبد الملك بذلك فأقرَّه عليهم .

ثم ولّى يزيدُ بن عبد الملك (بشرَ بن صفْوانَ الكَلْبيّ) فقَدِمها سنة ثلاث ومائة ، ومات سنة تسع ومائة .

ثم عزله هشامُ بنُ (١) عبد الملك . وولّى مكانه (عُبَيْدةَ بنَ عبد الرحمن السُّلَميّ) فقَدِمها سنةَ عشر ومائة ، ثم عزل هشام عبيدة . وولّى مكانه (عبدَ اللهِ بن الحَبْحابِ) مولى بَني سَلُول ، فقدِمها سنة أربعَ عشْرةَ ومائة ، وبنى جامع تُونُس . واتخذ بها دارَ الصِّناعة للمراكب البحريّة .

ثم عزله هشامُ بن عبد الملك وولّى مكانه (كُلْثومَ ابن عياض) ثم قُتل فبعث هشام بن عبد الملك على أفريقيّة (حنظلةَ بن صَفْوانَ الكلبي) فقدِمها سنة أربع وعشرين ومائة ، فخرج عليه (عبد الرحمن بنُ حبيب) سنةَ

---

(١) كذا في العبر » أيضاً وعبارة « الكامل » فاستعمل هشام بعده عبيدة الخ .. وهو المناسب .

ستٍّ وعشرين ومائة . فقفل حنظلةُ إلى المشرق سنة سبع وعشرين . واستقل عبد الرحمن بملك أفريقيّة .

ووليَ مَرْوان بن محمد آخِرُ خلفاء بني أمية ، فكتب له بوِلاَيتها .

ثم كانتْ دولة بني العَبّاس فأقرّه عليها السّفّاح ، ثم المنصورُ ، ثم قُتِل سنة سبع وثلاثين لعشر سنين من إمارته واشترك في إمارتها (حبيبُ بن عبد الرحمن ، وعمّه عمران بن حبيب ، وأخوه إلياسُ بنُ عبد الرحمن) ثم قتله عبد الملك بن أبي الجعد، ثم غلب عليها (عبد الأعلى ابن السّمْح المَعَافِري) .

ثم ولّى أبو جعفر المنصورُ (محمدَ بن الأشعث) الخُزَاعي ، فقَدِم القَيْروان سنة خمس وأربعين ومائة ، وبنى سُورها .

ثم ثارت عليه المُضَرية وأخرجوه منها سنة ثمان وأربعين ، وولّوا عليهم (عيسى بن موسى) الخُراساني .

ثم وَلّى أبو جعفر المنصورُ عليها (الأغلبَ بنَ سالم)

ابن عقال بن خفاجةَ بن سَوَادةَ التميمي بعده ، فقدم القَيْروانَ وسكّن الناس ، ثم قُتل سنة خمسين ، ومائة وقام بأمر أفريقيّةَ المخارق بن غفار .

ولما بلغ المنصورَ قَتْلُ الأغلب ، بعث مكانَهُ عمر ابن حفص بن قَبِيصة ، ابن أبي صُفْرة التميمي أخي المهلّب ، فقدمها سنة إحدى وخمسين . ثم انتقضت عليه البربر فضَعُف أمرُه ، فولّى (يزيدَ بنَ حاتم) بن قَبِيصة ابن المهلب بن أبي صفرة التميمي ، ودخل القَيْروانَ منتصَفَ سنة خمس وخمسين ، وهلك سنةَ سبعينَ ومائة في خلافة هرون الرشيد ، وقام بأمره بعده ابنه (داود).

ثم ولّى الرشيدُ أخاه (رَوْحَ بن حاتم) فقدمها منتصفَ سنة إحدى وسبعين ومائة ، ومات في رمضان سنة أربع وسبعين ، فقام حبيبُ بن نصر مكانه ، وسار ابنه (الفضلُ) إلى الرشيد فولاّه مكان أبيه ، فعاد إلى القَيْروان في المحرّم سنة سبع وسبعين ومائة ، ثم قتله ابنُ الجارُود في منتَصَف سنة ثمان وسبعين ومائة فولّى الرشيد مكانه (هَرْثَمةَ بن أعْيَن) فسار إلى القَيْروان .

وقَدِمها سنة تسع وسبعين ومائة ، ثم استعفى فأعفاه الرشيدُ لسنتين ونصفٍ من وِلايته .

وولّى مكانه (محمدَ بن مقاتل الكَعْبي) فقدِم القَيْروان في رمضان سنة إحدى وثمانين ، وكان سيء السيرة .

ثم ولّى الرشيد (إبراهيم بن الأغلب) فقدم أفريقيّة منتصَفَ سنة أربع وثمانين ومائة ، وابتنى مدينة العبّاسيّة بالقُرب من القَيْروان وانتقل إليها . وفي ولايته ظهرتْ دعوة الأدارِسة من العَلَويّة بالمغرب الأقصى . ثم مات إبراهيم في شوّال سنة ست وتسعين ومائة بعد أن عهد لابنه أبي العبّاس (عبدِ الله بن إبراهيم) بن الأغلب بالولاية . فقدِم القَيْروان في صفر سنة سبع وتسعين ومائة . ثم مات في ذي الحجة سنة إحدى ومائتين .

ووَلي مكانَهُ أخوه (زيادةُ الله بن إبراهيم) وجاءه التقليد من قِبَلِ « المأمون » ؛ وفي ولايته كان ابتداء فتح صِقِلّيّةَ على يد أسَدِ بن الفُرات ؛ وتُوُفّي في رجب سنة ثلاث وعشرين ومائتين لإحدى وعشرين سنةً ونصفٍ من ولايته .

وولِيَ مكانَهُ أخوه (أبو عِقال الأغلبُ) بن إبراهيم ابن الأغلب ، وتوفي في ربيع سنة ست وعشرين ومائتين .

ووَلِيَ بعده ابنه (أبو العَبّاس محمد بن الأغلب بن إبراهيم) فدانتْ له أفريقيّةُ ، وبنى مدينةً بقُرْب تاهَرْت وسَمّاها العباسيّة ؛ سنة سبع وثلاثين ومائتين ، وبنى قصر سُوسَةَ وجامِعَها سنة ست وثلاثين ومائتين . وتوفي سنة ثنتين وأربعين .

وولي مكانه ابنُه أبو إبراهيم (أحمدُ بن أبي العباس محمد بن الأغلب) فأحسن السيرة ، وكان مُولَعاً بالعمارة ، فبنى بأفريقيّة نحواً من عشرة آلاف حصن . وتُوفّيَ آخِرَ سنة تسع وأربعين لثمانِ سنينَ من ولايته .

ووليَ مكانه ابنُه (زيادةُ الله الأصغرُ) بن أبي إبراهيم أحمد ، وتوفي آخِرَ سنة خمسين ومائتين .

وولي مكانه أخوه (محمد أبو الغَرَانِيق) بنُ أبي إبراهيم أحمد ، ففتح جزيرة مالِطةَ سنة خمس وخمسين ومائتين ، وبنى حُصُوناً ومَحَارِس على مسيرة خمسةَ عشرَ يوماً من بَرْقَة في جهة المغرب ،وهي الآن معروفة

به . وفي أيامه كان أكثرُ فُتوح صِقِلّيّةَ . فلما مات حمل أهلُ القَيْروان أخاه إبراهيمَ بن أحمد أخي أبي الغَرَانيق على الوِلاَية عليهم لحُسْن سيرته فامتنع . ثم أجاب وانتقل إلى قَصْر الإمارة، وقام بالأمر أحسَنَ قيام . وكان عادلا حازماً فقطع أهل البَغْي والفساد وجلس لسَماع الظُّلاَمات، وبنى الحُصونَ والمَحَارِسَ بسواحل البحر ، حتى كانت النارُ تُوقَد في ساحل سَبْتة للإنذار بالعدوّ فيتصل إيقادُها بالإسكندرية في الليلة الواحدة ، وبنى سُورُ سُوسةَ وانتقل إلى تُونُس فسكنها . وفي أيامه ظهرتْ دعوة العُبَيْدِيين بالغَرْب ، ثم مات سنة تسع وثمانين ومائتين .

ووَلِي ابنُه العَبّاس (عبدُ الله بن إبراهيم) أخي محمدٍ أبي الغَرَانيق ، وكان عادلا ، حَسَن السيرة ؛ بصيراً بالحروب ، فنزل تُونُسَ مكانَ أبيه (١) ودخلوا

---

(١) في الكلام سقط أو اختصار مخل والذي يؤخذ من « العبر » أن أبا عبد الله الشيعي استولى في عهد أبي العباس هذا على كتامة ودخلوا في أمره كافة وحصلت بينه وبين أبي العباس حروب كانت نهايتها انهزام الشيعي وهدم قصره . ثم أن زيادة الله بن أبي العباس هذا صانع بعض الخدم على قتل أبيه فقتل نائماً في شعبان سنة تسعين ومائتين اهـ ملخصاً من العبر ج ٤ ص ٢٠٥ .

في أمره جملةً وجرى بينه وبينه حروب ، ثم قتل في شعبان سنة تسعين ومائتين .

وولي ابنه أبو مضر (زيادة الله) فأقبل على اللّذّات واللّهو ، وأهمل أمورَ المُلْك وقتل أخاه وعمومته وأخواته ، وقوي حال الدعاة لعبيد الله المهدي جدّ الخلفاء الفاطميين بمصر فحمل زيادةُ الله أمواله وأثقاله ولحق بمصر ، فمنعه عاملها من الدُّخُول إليها إلا بأمر المقتدر الخليفة ، فسار إلى العراق فاستأذن عليه ، فأتاه كتاب المقتدر بالرجوع إلى القَيْروان وإظهار الدّعْوة ، فوصل إلى مصر فأصابه بها علّة سقط منها شَعرُه ، ورجع إلى القدس فمات بها ، وانقرضت دولة بني الأغلب بالمغرب .

* * *

الطبقة الثانية

(العُبَيْدِيُّون) (١)

وكان مَبْدأ أمرهم أن محمداً الحبيبَ بن جعفر

---

(١) أي من الفاطميين وأتباعهم .

المُصَدّق ، بن محمد المكتوم ، بن إسماعيل الإمام ، ابن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن عليّ زين العابدين ، ابن الحُسَين السِّبْط ، بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، كان مقيماً بسَلَمْيةَ من أعمال حِمْص ؛ وكان أهل شيعتهم بالعِراق واليَمَن وغيرهما يتعاهدُونه بالزيارة إذا زاروا قبر الحسين عليه السلام ؛ فلما أدركته الوفاةُ عَهِد إلى ابنه عُبَيد الله وقال له : أنت المهديُّ وتُهاجر بعدي هِجرةً بعيدة وتلقى مِحْنة شديدةً ، وشاع خبرُ ذلك في الناس . واتصل بالمكتفِي خليفةِ بني العبّاس ببغداد فطلبه ففرّ من الشام إلى العراق ، ثم لحق بمصر ومعه ابنُه أبو القاسم غلاماً حَدَثاً وخاصّتُه ؛ وكان أبو عبد الله الشِّيعي قد بعث إليه يخبره بما فتح اللهُ عليهم من البلاد الغربِيّة ، فعزم على اللُّحوق به ؛ وخرج من مصر إلى أفريقيّة في زيٍّ التُّجّار ، وسار حتّى وصل إلى سِجِلْماسةَ من بلاد المغرب ؛ فورد على عاملها كتابٌ بالقبض عليه ، فقَبَض عليه وحبسه هو وابنَه أبا القاسم . ولما استفحل أمر أبي عبد الله الشِّيعي ، استخلف على أفريقيّة أخاه أبا العباس وارتحل إلى سِجِلْماسة ، فأخرج المهديَّ

وابنَه من الحبس وبايع للمَهديّ ؛ ثم ارتحلوا إلى أفريقيّة ونزلوا رُقادةَ في ربيع سنة سبع وتسعين ومائتين ، وبُويع للمهديِّ البيعةَ العامّةَ واستقام أمره وبعث العُمّال على النواحي .

وولّى عهدَه ابنَه (أبا القاسم محمداً) ويقال نِزَار ، وبنى مدينة المهديّة ، وجعلها دار مُلْكه . ولما فرغ منها صعِد على سُورها ورمى بسهم في جهة المَغْرب ، وقال : إلى هنا ينتهي صاحبُ الحِمار (فكان الأمر كذلك . وذلك أنه خرج بالمغرب خارجيّ اسمه أبو يزيد يعرف بصاحب الحمار وتبعه الناس فقصد مدينة المهدية يريد فتحها فانتهى إلى حيث انتهى سهم المهدي ثم رجع من حيث أتى فعظم أمر المهدي) واستولى على فاس ، ودَخل ملوكُها من الأَدَارسة تحت طاعته في سنة ثمان وثلاثمئة ؛ ومَهّد المغرب ، ودَوَّخ أقطاره ، وتُوفّي في ربيع الأوّل سنة اثنتين وعشرين لأربع وعشرين سنة من خلافته .

وولي بعده ابنه (القائمُ بأمر الله أبو القاسم) المتقدّم ذكره ، وفي أيامه خرج أبو يزيد صاحبُ الحمار . وتوفّي سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة ، وكان قد عهد إلى ابنه المنصور بالله إسماعيل . فقام بالأمر بعده ، وكَتَمَ موتَ أبيه فلم يتسَمَّ بالخليفة ولا غيّرَ السِّكة والخطبةَ والبُنودَ ؛ وتُوفِّي سلخَ رمضان سنة إحدى وأربعين وثلاثمئة لسَبْع سنينَ من خلافته .

ووليَ الأمر بعده ابنه (المعزُّ لدين الله مَعَدّ) فاستقام له الأمر ، وانتهت مملكته بالغرب إلى البحر المحيط ، وافتتح مصرَ على يد قائده « جَوْهر » في منتَصف شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمئة ، واختطّ له القاهرة ؛ ثم قدم المُعِزُّ إلى مصر ، ودخل القاهرة لخمس من رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمئة على ماسبق في الكلام على مملكة الديار المصرية .

* * *

الطبقة الثالثة

(ملوكها من بني زيري)

كان المُعِزُّ مَعَدٌّ الفاطميّ حين قَدِم مصرَ على ماتقدّم

استخلف على أفريقيّةَ والمغرب (بُلُكّينَ بن زيري) ابن منّاد البربري ، ويقال : الحِميَريّ وأنزله القَيْروان ، وسمّاه يُوسفَ ، وكنّاه أبا الفُتُوح ، ولقّبه سيفَ الدّولة وبقي حتّى تُوُفّيَ سنة ثلاث وسبعين وثلاثمئة ومات المعزُّ بالقاهرة ، وانتقلت الخلافةُ بعده إلى ابنه العزيز نزار ، فولّى على أفريقيّةَ والمغرب بعد بُلُكّين ابنه (المنصورَ بن بُلُكّين) بولاية عهد من أبيه وبقي حتى تُوفّيَ سنة خمس وثمانين وثلاثمئة .

وقام بأمره بعده (ابنه باديسُ) بن المنصور فبقِيَ حتّى تُوُفِّي سنةَ ست وأربعمائة بمعَسْكَره فجأةً وهو نائم بين أصحابه .

وبويع ابنه (المُعِزّ بن باديس) وهو ابن ثماني سنين ، واستمرّ مُلْكُه بأفريقية وعظُمَ مُلْكُه بها ؛ وكان المُعِزُّ مُنْحرفاً عن الرَّفض والتشيُّع ، مُنْتَحِلا للسُنّة ، وأعلَن بذلك في أوّل ولايته ؛ ثم كان آخرُ أمره أنْ خلَع طاعةَ العُبَيْديّين ، وقطَعَ الخطبة لهم بأفريقيّة سنة أربعين وأربعمائة على عهد المستَنْصر العُبَيدي خليفة

مصر ؛ وخطب للقائم بن القادرِ الخليفةِ العبّاسي ببَغْداد ، فاضطرَب لذلك مُلْكُه ، وثارَتْ عليه الثُّوار ، وملَكُوا منه النّواحِيَ ؛ ومات المُعِزُّ سنةَ أربع وخمسين وأربعمِائة.

وقام بأمره من بعده ابنُه (تميمُ بن المُعِزّ بن باديس) وغلبه العرَب على أفْريقيّةَ ، فلم يكن له إلا ما ضَمّه السُّور ؛ واستمرّت الثُّوّار في أيامه وبقِيَ حتّى هلك سنةَ إحدى وخمسمائة .

وملك بعده ابنه (يحيى بن تميم) فراجع طاعةَ العُبَيْدِيّين خُلَفاءِ مصرَ ، ووصلَتْه منهم المخاطبَات والهَدَايا والتُّحَف ؛ وأكثر في غَزْو النصارى من الفرنجة وغيرهم ، حتّى لقّبُوه بالجرية من وراء البحر ، ومات فَجْأَةً في قصره سنة تسع وخمسمائة .

وملك بعده ابنه (علِي بن يحيى) وقام بالأمر على طاعة خُلَفاء العُبَيْديين بمصر ، ومات سنة خمسَ عشرةَ وخمسمائة .

وملك بعده ابنه (الحسنُ بن علي) وهو ابن اثنَيْ عَشْرَة سنةً ، وقام بأمره مولاه صَنْدل ، ثم مولاه

مُوَفّق : وغلبه النصارى على المهدِية وبلاد الساحل كلّها إلى أن استنقذها منهم عبدُ المؤْمِن شيخ الموحِّدين : ولحَق الحسنُ بالجزائر ونزل بها إلى أن فتح الموحِّدون الجزائر سنة سبع وأربعين وخَمْسِمِائة بعد ملْكِهم المغرب والأنْدَلُس ، فخرج إلى عبد المؤمْن فأحسن إليه وبقِيَ حتّى افتتح المهدِيّةَ فأنزله بها ، فأقام بها ثماني سنين . ثم سار إلى مَرّاكش فمات في طريقه ، وانقرضتْ دولةُ بني بادِيسَ من أفريقية في أيامهم عند وقوع الفِتَن .

* * *

الطبقة الرابعة

(المُوَحِّدون أصحاب المهدِيِّ بنِ تُومَرْت ، وهم القائمون بها إلى الآن)

وكان أوّلَ من افتتحها منهم (عبدُ المؤمن بنُ عليّ) أحد أصحاب ابن تُومَرْت والخليفة بعده . وذلك أنه لما وقع بها ما تقدّم من الاضطراب وقيام الثُّوّار واستيلائهم

على النّواحي ، وكان الموحّدون قد استولَوْا على الأنْدَلُس والغربِ الأقصى والغربِ الأوسط إلى بِجَايَّةَ ، بعث عبدُ المؤمن المذكورُ العساكِرَ إلى أفريقية مع ابنه عبد الله في سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، فافتتح أفريقيّة ، واستكمل فتحَها سنة ستٍّ وخمسين . وولّى عليها ابنه السيدَ أبا موسى (عمرانَ بنَ عبد المؤمن) وأسره عليّ ابن يحيى المعروف بابن غانِيةَ عند فتحه بِجايةَ ، واعتقله بها في صفر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة .

ولما وَلِيَ (المنصورُ يعقوبُ بنُ عبد المؤمن) بعد أبيه عبد المؤمن ، ولّى على أفريقيّة في أوّل ولايته أبا سعيد ابنَ الشيخ أبي حفص عمر ، ثم غلب ابنُ غانِيةَ على أكثر بلاد أفريقيّة واستولى على تُونُس ، وخطب للخليفة العبّاسي ببغداد ؛ ثم جهّز الناصر بنُ المنصور بنِ عبد المؤمن الشيخَ أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص من مراكش إلى أفريقيّةَ سنة اثنتين وستمائة فانتزعها من ابن غانِيَةَ ؛ ثم وصل الناصر بن المنصور إلى أفريقيّة بعد ذلك ودخل تُونُس ، وأقام بها إلى منتَصَف سنة ثلاث

وستمائة ، وعزم على الرحيل إلى مَرّاكُش فروّى نظره فيمن يوليه أمرها فوقع اختياره على الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص ؛ ورحل الناصرُ إلى المغرب وقعد مَقْعَد الإمارة بقَصَبَة تُونُس يومَ السبت العاشر من شوّال سنة ثلاث وستمائة وبقِي حتى تُوُفِّي مُفْتَتَح سنة ثمان عشرةَ وستمائة .

وولي بعده ابنُه الأميرُ (أبو زيد عبدُ الرحمن) وقعد بمجلس أبيه في الإمارة ، وورد كتابُ المستنصِر بن الناصر خليفةِ بني عبد المؤمن بعزله لثلاثة أشهر من وِلاَيته .

وولّى المستنصر مكانه السيدَ أبا العُلى (إدريسَ بن يوسف) بن عبد المؤمن ، ودخل إلى تُونُس في ذي القعدة من السنة المذكورة ، فنزل بالقَصَبَة ورتّب الأمورَ ؛ ومات بتُونُس سنة عشرين وستمائة .

ثم مات المستنصر وصار الأمر (لعبد الواحد المخلوع) ابن يوسف بن عبد المؤمن . فبعث بوِلاَية أفريقيّة إلى (أبي زيد) بن أبي العلى .

ثم صار الأمر إلى العادل فولّى (أبا محمد عبدَ الله)

ابنَ أبي محمد عبد الواحد بنِ الشيخ أبي حفص ، ودخل تونُسَ سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، وأقام في إمارته إلى أن ثار عليه أخوه الأمير (أبو زَكريّا يحيى) بن أبي محمد عبد الواحد ووليَ مكانه ، ودخل تونُسَ في رجب سنة خمس وعشرين وستمائة ، وافتتح قُسَنْطِينةَ وبِجايةَ سنة ست وعشرين وانتزعهما من بَني عبد المؤمن .

ثم ملك تِلِمْسان من يَدِهم بعد ذلك وبايعه أهلُ الأنْدَلُس ، ومات ببونة لسبع بَقِينَ من جمادى الآخرةِ سنة سبع وأربعين وستمائة لثنتين وعشرين سنة من وِلايته .

وبويع بعده ابنه ووليُّ عهده المستنصرُ بالله (أبو عبد الله محمد) ودخل تُونُس في رجب من السنة المذكورة فجدّد بيعته بها ، وهو أوّل من تلقب من الحَفْصِيِّين بألقاب الخِلافة كما سيأتي . وانتهى أمره إلى أن بُويع له بمكّةَ المعظّمةِ ، وبُعِث بالبيعة إليه ، واستولى على ما كان بيد أبيه من الغرب الأوسط ببجايَة وقُسَنْطِينةَ ، وفتح الجزائرَ ، وبقِيَ حتّى مات يوم الأضحى سنةَ خمس وسبعين وستمائة .

وبُويع بعده ابنُه (الواثق يحيى) بن المستنصر ليلةَ موتِ أبيه ، فأحسن السّيرة وبسط في الرعية العدلَ والعطاء ؛ وبعث إليه أهلُ بِجَاية بالبَيْعة ، وخرج عليه عمُّه (أبو إسحاق) أخو المستنْصر ودخل بِجَايةَ ، وبايعه أهلها في ذي القَعْدة سنة سبع وسبعين وسبعمائة واستولى على قُسَنْطِينةَ ، وقَوِيَ أمره ببجايةَ وما معها ؛ وبلغ ذلك الواثقَ بنَ المستنصر ، فتيقّن ذَهَابَ الملك منه فانخلع عن الأمر لعمه أبي إسحاق إبراهيمَ بنِ يحيى ، ومن هنالك عُرِف بالمخلوع ،وأشْهد على نَفْسه بذلك في أوّل ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وستمائة . وبلغ ذلك السلطان أبا إسحاقَ فسار إلى تُونُس . ودخلها في نصف ربيع الآخِرِ من السنة المذكورة ، واستولى على المملكة جميعها ، واعتَقَل الواثِقَ وبَنيه ، ثم دَسَّ عليهم مَنْ ذَبَحهم في الليل في صفر سنة تسع وسبعين وستمائة ؛ وبقي حتّى خرج عليه (أحمد بنُ رَوْق) (١) ابن أبي عمارة من بيوتات بجاية الطارئين عليها من المسيلة

(١) في « العبر » أحمد بن مرزوق . وهو تصحيف .

سنة إحدى وثمانين وستمائة ، وكان شبيهاً بالفضل بن يحيى المخلوع فعُرِف بالدَّعِيِّ ، واستولى على تُونُس بعد خروج السلطان أبي إسحاق منها ، ولحق أبو إسحاق ببجاية فمنعه ابنه الأمير أبو فارس (عبد العزيز) من الدُّخُول إليها فانخلع له عنها وأشْهَد عليه بذلك ، ودعا الناس إلى بيعته في آخر ذي القَعْدة من السنة المذكورة فبايعوه وتلَقّب بالمعتَمِد ، ثم كان بين الدعيّ والأمير أبي فارس واقعة قتل فيها الأمير أبو فارس في سنة اثنتين وثمانين وستمائة . وخرج السلطان أبو إسحاق فلَحِق بتِلِمْسان ومعه ابنُه الأمير أبو زكريا ؛ ودخل أهل بِجايَة في طاعة الدَّعِيِّ .

ثم خرج على الدَّعِيّ الأميرُ (أبو حفص عمرُ بن يحيى) بن عبد الواحد بن أبي حفص ، فكانت بينهما حربٌ انهزم الدَّعِيّ في آخرها . واستولى أبو حفص على تونس وسائر المملكة ، وتلقب بالمستنْصِر واختفى الدَّعِيّ ثم ظَفِر به أبو حفص بعد ذلك وقتله وبايعه أهلُ تِلِمْسان وطَرابُلس وما بينهما .

وخرج الأميرُ (أبو زكريّا يحيى) بن السلطان

أبي إسحاق على بِجايةَ وقُسَنْطِينة فملكهما واقتطعهما عن مملكة أفريقيّةَ ، وقسم دولةَ الموحدين بدولتين ، ولم يزل السلطان أبو حفص في مُلْكه إلى أن مَرِض في ذي الحجة سنةَ أربع وستين وستمائة ومات آخر ذي الحجة من السنة المذكورة .

وكان الواثقُ بنُ المستنصر لما قُتِل هو وأبوه ترك جارية حاملا ، فسماه الشيخ محمد المَرْجانّي « محمداً » وأطعم الفقراءَ يومَئِذ عصيدةً من عَصِيدة البُرِّ فلقب بأبي عصيدة ، فلما مات السلطان أبو حفص بايع الناسُ (أبا عَصِيدة) المتقدّم ذكره . ومات الأمير أبو زكريا صاحب بجايةَ وما معها على رأس المائة السابعة .

وقام بعده في تلك الناحية وليّ عهده ابنه (أبو البقاء خالد) فاستمرّ في تلك الناحية ، وبقي السلطان أبو عَصِيدةَ في مملكة أفريقيّةَ حتّى مات في ربيع الآخرِ سنةَ تسع وسبعمائة ولم يخلف ابناً .

وكان بالقصر (أبو بكر بن عبد الرحمن) بن أبي بكر ، بن يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص في

كَفَالة السلطان أبي عَصيدَةَ ، فلما مات أبو عصيدة بايعه أهل تُونُس ، ثم ارتحل السلطان أبو البقاء خالد : صاحبُ بجايةَ إلى جهة تُونُس طالباً مُلْكَها بعد أبي عصيدةَ ، فخرج (أبو بكر الشهيد) في أهل تُونُس للقائه فانهزموا عنه ، وقُبِض على أبي بكر الشهيد واعتُقِل ثم قُتِل بعد ذلك فسمّي الشهيدَ ، واستقلّ السلطان أبو البقاء خالد بمُلْك تُونُس وبجايةَ وحاز جميع المملكة ، وتلقّب الناصرَ لدين الله وبقِيَ حتى بُويع (أبو يحيى زكريّا بن أحمد) بن محمد اللحياني ، بن عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص ، فبُويع بطَرَابلس ، وخرج على أبي البقاء خالد فخافه فخلَع نَفْسه فاعتُقِل وجاء السلطان أبو يحيى على أثره في رجب سنة إحدى عشرَةَ وسبعمائة ، فبُويعَ البيعةَ العامّةَ ودخل تُونُسَ واستولى عليها ؛ ثم اضطرب عليه أمْرُه ، فخرج من تُونُس إلى قابِس أولَ سنة سبعَ عشرةَ وسبعمائة بعد أن استَخْلف بتُونُس ، وانتهى إلى قابس فأقام بها وصرّف العُمّال في جهاتها ؛ وقصد السلطان أبو بكر صاحب بجايةَ تُونُسَ ، وكان بينه وبين أهلها وقعةٌ انتهى الحال في آخرها إلى أنّ السلطانَ

أبا بكر رجع إلى بجايةَ . وبايع أهلُ تُونُس محمداً المعروف (بأبي ضَرْبةَ) ابن السلطان أبي يحيى في سنة سبعَ عشرةَ المذكورة .

ثم قصد السلطان أبو بكر صاحبُ بجاية تُونُسَ ، وبها أبو ضَرْبةَ فغلبه عليها ، ودخلها في ربيع الآخر سنة **ثمان عشرةَ** وسبعمائة ، وبُويعَ بها البيعةَ **العامّةَ . ولحق** السلطانُ أبو يحيى اللحيانيُّ بمصر في أيام الملك الناصر « محمد بن قلاوون » فأحسن نُزُلَه وأقام عنده إلى أن مات ، ولحق ابنُه أبو ضربة بتِلِمْسانَ فأقام بها إلى أن مات ، واستقلَّ السلطانُ أبو بكر بأفريقية وبجايةَ إلى أن غلبه على تُونُس (إبراهيمُ بنُ أبي بكر) الشهيدِ المتقدّم ذِكْرُه أوّلا ، ودخلها في رجب سنة خمس وعشرين وسبعمائة .

ثم غلبه عليها السلطان أبو بكر وانتزعها من يده في شوّال من السنة المذكورة ، واستقرّ في يده مُلْكُ أفريقيّة وبجايةَ إلى أن مات فَجْأة في جوف الليل في

ليلة الأربعاء ثاني رجب الفَرْدِ سنة سبع وأربعين وسبعمائة بمدينة تُونُس .

وبُويع ابنه (أبو حفصٍ عُمرُ) بن أبي بكر من ليلته ، وجلس من الغَدِ وبُويع البيعةَ العامّةَ . وكان أبوه قد عهد إلى ابنه الآخر أبي العبّاسِ أحمد ، وكان ببلاد الجريد فاستجاش على أخيه وقدم عليه تُونُس ، وكانت بينهما واقعة قُتل فيها أبو العباس واستقرّ السلطان أبو حفص على ولايته . وكان السلطان أبو بكر حين عهّد لابنه أبي العباس أرسل العهدَ إلى السلطان أبي الحسن المَرينيّ : صاحب تلِمْسان وسأله في الكتابة عليه ، فلما قُتِل أبو العباس المذكور ثَقُل ذلك على السلطان أبي الحسن وخرج إلى أفريقيّة في سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، ووصل إلى بِجايةَ ثم إلى قُسَنْطِينة فملكهما ؛ ثم سار إلى تُونُس فلقيه السلطانُ أبو حفص عمرُ ، وكانتْ بينهما واقعة قُبِض فيها على أبي حفص ثم قُتِل . ودخل السلطان أبو الحسن إلى تُونُس واستولى على جميع المملكة مضافةً إلى مملكته ، وكمل له بذلك ملك جميع المغرب .

ثم غَلَبَ (أبو العباس الفضلُ) ابن السلطان أبي بكر على بجاية وقُسَنْطِينة وملكهما ، وسار السلطان أبو الحسن إلى المغرب واستخلف على تُونُس ابنَه أبا الفضل فسار الفضلُ بن السلطان أبي بكر من بجاية إلى تُونُس فخرج منها أبو الفضل بن أبي الحسن فاراً إلى أبيه بالمَغْرِب ، ودخلها الفضلُ بن السلطان أبي بكر وملكها سنة تسع وأربعين وسبعمائة واستولى على جميع المملكة ، وبقِيَ إلى أن قُبِض عليه في جمادى الأُولى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة .

وبُويع بعده أخوه (أبو إسحاق إبراهيم) ابن السلطان أبي بكر ، وهو يومئذ غلام قد ناهز الحُلُم ، وقُتِل الفضلُ في جوف الليل من الليلة القابلة خَنْقاً ، واستولى على أفرِيقِيّةَ وبِجايةَ وقُسَنْطينةَ ، وبقي حتّى غلبه بنو مَرِين على بجاية وقُسَنْطينة ، وملكهما منه أبو عِنَان سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة .

ثم استولى السلطان (أبو العبّاس أحمد) بن محمد بن أبي بكر على قُسَنْطينة سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وبُويعَ بها .

ثم غلبه عليها أبو عنَان وقَفَل إلى المغرب سنةَ سبع وخمسين وقد استَخْلَفَ بها ، فتجهز إليها(أبو إسحاق إبراهيم) صاحب تُونُس وملكها من يد عامل أبي عِنَان سنةَ إحدى وستين ؛ ثم قَوِي أمر السلطان أبي العبّاس وعاد إلى قُسَنْطِينة ومَلَكها في السنة المذكورة .

ثم استولى (أبو عبد الله محمد) بن محمد بن السلطان أبي بكر في رمضان سنة خمس وستين وسبعمائة فأساء السيرة بها ، فسار إليه السلطانُ « أبو العَبّاس » من تُونُس فقتله ودخل بِجاية تاسعَ عشر شعبان سنة سبع وستين وسبعمائة وملكها ، وبقيَتْ بيده وتُونُس بيَد السلطان أبي إسحاق إبراهيم ابن السلطان أبي بكر إلى أن تُوفِّي السلطان أبو إسحاق فجأة في الليل في سنة سبع وسبعين وسبعمائة .

وبويع بعده ابنُه (أبو البقاء خالد) واستبدّ عليه منصورٌ مولى أبيه ، وابنُ الباليقي حاجبُ أبيه فلم يكن له في الدولة تَحكُّم .

ثم رحل السلطان أبو العَبّاس من بِجايةَ إلى تُونُسَ

وقبض على السلطان أبي البقاء خالد بن إبراهيم بعد حصاره أياماً واعتقله وملك تُونُس وانتظم في مُلْكه أفريقيةُ وبجايةُ وقُسَنْطِينةُ وأعمالها . وبقي حتّى مات في شعبان سنةَ ستٍّ وثمانين وسبعمائة .

وكان أبو العبّاس هذا له شعر رائق ، طلب مرةً كاتب إنشائه يحيى بن أجاد . وكان يحيى ثَملاً ، فخافه على نفسه إن هو طلع إليه على تلك الحالةِ فكتَبَ إليه :

أصْبَحَ العبْدُ يحيي	كصَبَاحِ ابنِ أكْثَمْ
شغَلَتْهُ الحُمَيّــــا	وهو بالأمر مُهْتَمْ
فَخَشِي من رَقِيــبٍ	فَرَأى الدارَ أكْتَمْ

فلمّا قرأها وقّع بخطه تحت خطّه :

قرَّ عَيْناً بعَيْشٍ	صَفْوُه بك قَدْ تَمْ
أنْتَ أزكى عَبِيدِي	هاهُنا كُنْتَ أو ثَمْ

فكان ذلك سببَ توبة يحيى .

وبويع بعده ابنه أبو فارس (عَزُّوز) في رابع شعبان من السنة المذكورة واستولى على تُونُس وبِجايةَ وقُسَنْطينة

وسائر أعمالها . وهو السلطان أبو فارس عَزُّوز بن السلطان أبي العباس أحمد ، بن السلطان أبي بكر بن يحيى ، بن إبراهيم ، بن عبد الواحد ، بن الشيخ أبي حفص .

قلت : وهو باقٍ إلى زماننا في سنة ثلاثَ عشرةَ وثمانمائة ، وقد شاع ذكر شجاعته وعَدْلِه حتّى إنه دوّخَ البلاد ومهّدَها وقتَل العربَ وأبادَهم ، ودخل مَنْ بَقِيَ منهم في طاعته بعد أن لم يَدِينُوا لطاعة غيره ؛ وقطع المُكُوسَ من بلاده ، وأزال الحاناتِ من تُونُسَ ، مع تواضُع وقُرْبٍ من الفقراء ، وأخذ بيد المظلومين ، ووُجُوه بِرّ رتّبها وقرّرها لم تُعْهَد لأحد من قبله ، إلى غير ذلك من صفات الملوك المحمودة التي امتاز بها عن الملوك ، ذلك فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء .

* * *

(في منتمى ملوك هذه المملكة القائمين بها الآن ، من الموَحِّدين في النّسب ، ودعواهم الخلافةَ ، وبيانِ أصل دولتهم ، وتسميتهم الموَحِّدين)

أما منتماهم في النسب ، فقد ذكر في « التعريف » :

أن المَلِك القائم بها في زمانه يَدّعي النسبَ إلى أمير المؤمنين عُمرَ بن الخطّاب رضي الله عنه ؛ ومن أهل النّسَب مَنْ يُنْكِر ذلك : فمنهم من يجعله من بَني عديّ بن كعب رَهْطِ عمرَ ، وليس من بني عُمَر ، ومنهم من يقول : بل من هَنْتاتةَ وليسوا من قبائل العرب في شيء وهم الحَفْصيُّون نسبة إلى أبي حفص : أحد العشرة أصحاب ابن تُومَرْت . وهم بقايا الموحِّدين إذ كان من تقرير ابن تُومَرت أن الموحدين هم أصحابه ، ولم يَبْقَ مُلْكُ الموحِّدين إلا في بني أبي حفص هذا .

واعلم أن النّسابين قد اختلفوا في نَسَبه على ثلاثة أقوال .

أحدها : نسبته إلى أمير المؤمنين : عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه ، وهؤلاءِ يقولون : هو أبو حفص عمرُ ابنُ يحيى ، بنِ محمد ، بن وانّودين ، بن عليّ ، بن أحمد ابن وَالآل ، بن إدريسَ ، بن خالد ، بن اليَسَع ، بن إلياس ، بن عمر ، بن وافتق ، بن محمد ، بن نُجَيَة ، ابن كَعْب ، بن محمد ، بنِ سالم ، بنِ عبد الله ، بن

عُمَر بن الخطّاب . قال قاضي القضاة « وليّ الدين بن خلدون » : ويظهر أن هذا النسب القُرشيّ وقع في المَصامِدَة من البربر ، والتحم بهم واشتملتْ عليه عَصَبيتهُم ؛ شأنُ الأنساب التي تقع من قوم إلى قوم .

الثاني : نسبتُه إلى بني عديّ بن كعب : رهطِ عمر بنِ الخطاب رضي الله عنه الذي ينتَسِب فيه ، وهو أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب بن نُفَيل بن عبد العُزّى بن رِيَاح بن عبد الله بن قُرْط بن رَزَاح بن عَدِيّ بن كعب جدّ النبي صلى الله عليه وسلم وباقي نسبه إلى عدنان معروف .

الثالث : نسبتُه إلى هَنْتاتَة — بفتح الهاء وإسكان النون وفتح التاء المثنّاة فوقُ وبعدها ألفٌ ثم تاء مثناة فوقُ مفتوحة ثم هاء — : قبيلة من قبائل المَصَامدة من البربر ، بجبال دَرَن المتاخِمةِ لمَرَّاكش ؛ وهي قبيلة واسعةٌ كبيرةٌ ، ويقال لها بالبربرية « يَنْتي » وكان أبو حفص هذا هو شيْخَهم وكبيرَهم ، وهو الذي دعاهم إلى اتباع ابن تُومَرْت والحمل على طاعته .

وأما دعواهم الخلافةَ ، فقد قال في « التعريف »

عند ذكر سلطان زمانه منهم : لايدّعي إلا الخلافة ويتلقّب بألقاب الخُلفاء ، ويُخاطَب بأمير المؤمنين في بلاده .

واعلم أن أوّل من تلقّب منهم المستنصر بالله أبو عبد الله محمد بن السلطان أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص ، على أن أباه كان يمتنع من التلقب بألقاب الخلافة ، ويمنعُ من يُخاطبُه بها مقتصراً على التلقب بالأمير خاصّةً حتّى إن بعض شعرائه رفع إليه قصيدةً مدحه بها أوّلها :

ألا جُلْ بالأمير المُؤْمنينا فأنْتَ بها أحقّ العالَمينا

فأنكر ذلك عليه . وإنما حمل المستنصرَ على ذلك أن الخلافة في زمنه قد تعطّلت في سائر الأقطار . وذلك أن الخلافة الأُمَويّةَ ودعاوى بني عبد المؤمن قد زالت عنها في المغرب بغلبة بني مَرين عليهم وانتزاعهم الأمر منهم ؛ وخلافةَ العُبَيديِّين قد زالت من مصر ؛ وخلافةَ بني العبّاس قد زالت من بغداد باستيلاء التتر عليها .

وأما مبدأ دولتهم ومَصيرُ آخرها إلى بني حفص بأفريقيّةَ ، فإن أصل قيامها ابن تُومَرْت : وهو محمد ابن عبد الله تُومَرْت ، بن وجُلّيد ، بن يامصال ، بن حمزة ، بن عيسى فيما ذكره محققو المؤرخين . وبعضهم يقول : محمد بن تومرت ، بن نيطاوس ، بن سافلا ، ابن مسيعُون ، بن ايكَلديس ، بن خالد ، أصله من هَرْغة من بطون المَصَامِدة من البربر . وبعضُ المؤرّخين يجعل نسبَهُ في أهل البيت ويقول : هو محمد بن عبد الله ، ابن عبد الرحمن ، بن هُود ، بن خالد ، بن تمام ، بن عدنان ، بن سُفْيان ، بن صفوان ، بن جابر ، بن عطاء ، ابن رباح ، بن محمد ، من ولد سليمان بن عبد الله ، ابن حسن ، بن الحسن ، بن عليّ ، بن أبي طالب . وسليمان هذا أخو إدْريسَ الأكبر الذي كان لبنِيه الدولةُ بالغرب على ما مر في الكلام على مكاتبة صاحب بَرّ العُدْوة .

ويقال إن سليمانَ هذا لحِقَ بالمغرب إثر أخيه إدْريسَ وقيل : بل هو من قَرَابة إدريس اللاحقين به إلى المغرب ويكون على هذا المقتضى نَسَبُهُ قد التحم بنسب المَصَامِدة ،

واتصل بهم وصار في عدادهم كما تقدّم في نَسَب أبي حَفْص .

وكان أهلُ بيته أهلَ دينٍ وعبادة ، وشبَّ محمدٌ هذا فيهم قارئاً محبِاً للعلم ، وارتحل في طلب العلم إلى المشرق على رأس المائة الخامسة ، ومَرَّ بالأندَلُس ، ودخل قُرْطُبَةَ وهي إذ ذاك دارُ عِلْم ؛ ثم لَحِق بالإسكَنْدريّة وحَجَّ ، ودخل العراقَ ، ولَقِي أكابِرَ العلماء به يومئذ وفُحولَ النُّظّار ، ولقي أئمةَ الأشعريّة من أهل السُّنّة وأخذ بقولهم في تأويل المتشابِه . ويقال إنه لقِيَ أبا حامدِ الغزاليَّ رحمه الله واستشاره فيما يُريده من قيام الدولة بالمغرب .

ورجع إلى المغرب وقد حَصل على جانبٍ كبير من العلم ، وطَعَن على أهله في الوقوف مع الظاهر وحَمَلَهم على القول بالتأويل والأخذِ بمذهبِ الأشعَرِيّة في جميع العقائد ، وألّف العقائدَ على رأيهم مثل المُرْشِدة وغيرها . وكان مع ذلك يقول بعصمة الإمام على مذهب الإمامية من الشِّيعة . وانتهى إلى بِجايةَ فأقام بها يدرِّس العلم

ويأمُرُ بالمعروف وينهى عن المنكر . وهناك لقيه عبد المؤمن أحدُ أصحابه وارتحل معه إلى المغرب وصار إلى بلاد هـَرْغة من البربر . فاجتمع إليه الطلبةُ ونَشَر العلمَ ، وأظهر مذْهَبَ الأشعرية .

وكان الكُهّان والمنَجّمون يتحدثون بظهور مَلِك بالمغرب من البربر ، وشاع في الناس أنه ذلك الملك . واختار من أصحابه عشرةً فجعلهم خاصّته : وهم عبد المؤمن بن عليّ ، وأبو حَفْص عمرُ بن علي ، ومحمدُ بن سليمان ، وعمرُ بن تافركين ، وعبد الله بن ملُويَات وغيرهم . ودعا المَصَامدة إلى بَيْعته على التوحيد وقتال المجسّمين ، فبايعوه على ذلك سنة خمسَ عشْرَةَ وخمسمائة .

ولما تكاملَتْ له البَيْعةُ لَقّبوه بالمَهْديّ ، وكان قبل ذلك يلقب بالإمام ، وكان عبدُ المؤمن أخصَّ أصحابه به ، وكان يلقّبه بالخليفة ، وأبو حَفْص بعده في الخصُوصية ، وكان يلَقّبه بالشيخ ؛ وكان يسمّي أتباعه الموَحّدين تعريضاً بمن يَجْنح عن التأويل ويقِفُ مع الظاهر فيوقعُه في التجسيم وغيره ، ولم تُحْفَظْ عليه

بِدْعةٌ إلا ماوافق فيه الإماميّةَ من القول بعِصْمة الإمام . وقد مر ذكر مدّة ولايته ثم استِخلافُ عبد المؤمن بعده في الكلام على مكاتبة صاحب بَرِّ العُدْوة . وقد تقدّم ابتداء انتقال مملكة إفريقيّة إلى بني حفص وانسحابها فيهم إلى زماننا على الترتيب .

* * *

(في ترتيب المملكة بها : من زي الجُنْد ، وأرباب الوظائف ، من أرباب السُّيُوف والأقلام ، ومقادير الأرزاق الجاريةِ عليهم ، وزِيِّ السلطان ، وترتيبِ حاله في المُلْك)

أما الجند ، فقد نقل في « مسالك الأبصار » عن أبي عبد الله بن القُوَيع : أن الذي قَرَّره لهم مَهْدِيُّهم ابن تُومَرْت ثم عبدُ المؤمن وأبناؤه بعده أنّه ليس لهم أمراءُ ولا أتباعٌ يطلب بعدّتهم كعِدّة الأمراء بمصر ، وإنما لهم أشياخٌ من أعيانهم لاعدّةَ لهم ولا جُندَ ، بل المرء منهم بنفسه فقط ؛ ولكل طائفة منهم رئيس يتولّى النظرَ في أحوالهم يسمّونه المِزْوار .

أما الجُنْد فمن الموَحِّدين والأنْدَلُسيين وقبائل بها من المضافة إليهم ومن قبائل العرب ومَنْ هاجر إليهم من العرب القدماء ، الذين هاجروا في مدّة بني عبد المؤمن ، والمماليكِ التُّرك المبتاعة من الديار المصرية ، ومن الفرَنج وغيرهم .

وحاصل ماذكره في « المسالك » أن الجند عندهم على سبع طبقات .

الطبقة الأُولى : الأشياخُ الكِبَار من الموحِّدين الذين هم بقَايا أتباع المهديّ بن تُومَرْت . قال في « مسالك الأبصار » : وهم بمثابة أُمَراء الألُوف بمصر ، وبمثابة التُّويْنَات أمراءِ التوامين بمملكة إيران .

الطبقة الثانية : الأشياخُ الصِّغار من الموحِّدين أيضاً : وهم دُونَ مَنْ تقدّم منهم في الرتبة .

الطبقة الثالثة : الوَقّافون . قال في « مسالك الأبصار » : سألتُ ابن القُوَيْع عن معنى الوَقّافين ماهو ؟ فقال : هم قومٌ لهم خاصيّة بالسلطان يسكُنُون معه في القَصَبة : وهي القلعة ، بمنزلة الأمراء الخاصكيّة . قال : وهم

طبقتان : وَقّافون كبار . ووَقّافون صغار . وكلهم يَقِفُون بين يديه في أوقات جلوسه إذا جلس الناس .

الطبقة الرابعة : عامّة الجُنْد .

الطبقة الخامسة : الجُنْد من قبائل العرب .

الطبقة السادسة : الصِّبْيان : وهم جماعة من الشّبّاب بمَثَابة المماليك الكتّانية بالديار المصرية . يكونون في خِدْمة السلطان .

الطبقة السابعة : الجُنْد من الإفْرنج ، ويعبّر عنهم بالعُلُوج ؛ وهم لخاصة السلطان لا يطمئِنُّ إلا إليهم .

وأما عِدّة العسكر . ففي « مسالك الأبصار » عن ابن القُوَيع أنها لاتبلغ عَشْرَةَ آلاف وإنما العَدَد الجمُّ في العرب أهلِ البادية ولهم قوة شَوكةٍ .

* * *

وأما أرباب الوظائف فعلى ضربين :

الضرب الأوّل

(أرباب السُّيوف ، وهم ثمانية)

الأوّل : الوُزَراء : وهم ثلاثةُ وزراءَ : وزير الجُنْد وهو المرْدُود إليه الحديثُ في أمر الجُنْد . قال في « مسالك الأبصار » : وهو بمثابة الحاجب بالدِّيارِ المِصْرية ؛ ووزيرُ المال : وهو المتحدّث في أمر المال ، ويعبّر عنه بصاحب الأشغال ؛ ووزيرُ الفضل وهو كاتب السِّرِّ .

الثاني : شيخُ الموحِّدين . قال ابن القُوَيع : وشيخ الموحدين كأنه نائب السلطان ، ويسمّى الشيخَ المعظّمَ ، وهو الذي يتولّى عَرْض الموحدين وأمورَهم .

الثالث : أهل المَشُورة : وهم ثلاثة من أشياخ الموحدين يجلِسُون بمجلسه للرأي والمَشُورة .

الرابع : صاحب الرِّقاعات . قال ابن سعيد : وهو الذي يتولّى إبلاغَ الظُّلامات إلى السلطان وإيصالَ قِصَصِهم إليه وعَرْضَها عليه ثم يخرج بجوابها عنه . قال في « مسالك الأبصار » : وهذا بمَثَابَة الدوادار (يعني بالديار المصرية) .

الخامس : صاحب العلامات : وهو المتولّي أمورَ الأعلام ، وهو بمثابة أمير عَلَم بالديار المصرية . وفي معناه آخر إليه أمرُ دقّ الطبول ، يأمر بدَقّ الطُّبول عند ركوب السلطان في المَوَاكب .

السادس : الحافظ : وهو صاحب الشُّرْطة ، وعنه يعبِّر المصريُّون بوالي المدينة .

السابع : محرِّكو الساقة : وهم قوم يكونون بأيديهم العِصِيُّ ، يرتِّبون الناسَ في المواكب ، بمنزلة النُّقَباء بالديار المصرية .

الثامن : صاحبُ الطّعام : وهو بمنزلة إستاددار الصُّحْبَة .

* * *

الضرب الثاني

(أرباب الأقلام)

وقد ذكر منهم ثلاثة :

الأوّل : قاضي الجماعةِ : وهو مثلُ قاضي القُضاة بالديار المصريةِ .

الثاني : المُحتَسِب : وهو معروف .

الثالث : صاحب كُتُب المَظَالم . قال في « مسالك الأبصار » : وهو الموَقّع على القِصَص وكأنه بمَثَابة مُوَقّع الدَّسْت بمصر والشام .

* * *

(في ذكر الأرزاق المُطْلَقة من جهة السلطان)

ويختلِفُ الحال فيها باختلاف أحوال أربابها .

فأما أشياخُ الموحِّدين الكِبارُ ، فقد نقل في « مسالك الأبصار » عن القاضي أبي القاسم بن بَنُّون أنَّ لهم أرضاً يزرَعُونها أو يُحكِّرونها ويكون لهم عُشْرُ ماطلع منها . وهذه الأرض بمثابة الإقطاع بمصر ؛ ولكل واحد منهم في كل سنة حَرْثُ عشرةِ أزواجٍ بَقَراً ؛ كل زوج بشُعْبتيْنِ ، كل شُعْبة رأسان من البقر ، فيكون لكل واحد عشرون شعبة . قال في « مسالك الأبصار » : وهذه الشعبة هي المسماة في بلاد دمشق بالفدّان . ولهم مع ذلك راتب يفرّق عليهم في طُول السنة . يسمُّونه البَرَكات بمثابة الجَوَامك بمصر ؛ يفرّق أربعَ مَرَّات في السنة

في عيد الفطر تَفْرِقةٌ . وفي عيد الأضحى تفرقةٌ . وفي ربيع الأوّل تفرقةٌ . وفي رَجبٍ تفرقةٌ ؛ يُصيبُ كلَّ واحد منهم من ذلك أربعون ديناراً مسماةً ، تكون بثلاثمئة درهم عتيقة ، والسلطان يأخذُ معهم بسَهْم كواحد منهم على السّوَاء . فيكون جملة مالكُلٍّ واحد منهم في كل سنة مائةً وعشرين ديناراً مسماة . عنها ألفٌ ومائتا درهم مَغْربية ، عنها من نقد مصر والشام ستمائةٍ وخمسون درهماً . وما يَتَحَصَّل من مَغَلٍّ عشرين فَدّاناً بقدر مثلها . قال في « مسالك الأبصار » : فيكون تقدير ما لأحد المشايخ الكِبَار الذين بمثابة أمراء الألوف بمصر والشام في كل سنة ألفٌ وثلاثمئة وعشرةُ دراهم نُقرةً بمعاملة مصر في كل سنة .

وأما الأشياخُ الصِّغار ، فلكل واحد منهم حَرْثُ خمسة أزواج من البقر ، على النِّصف من الأشياخ الكبار ؛ والبَرَكات في كل سنة على ماتقدّم في الكبار . قال ابن بَنُّون : ولعامّة الأشياخ الكِبار والصِّغار والوَقّافين والجند شيءٌ آخر يُفرّقه السلطان عليهم ، يُسمّى المواساة :

وهي غلة تفرّق عليهم عند تحصيل الغَلاَّت في المخازن . وشيء ثالثٌ يقال له الإحسانُ ، وهو مبلغ يفرّق عليهم . قال : وكِلاهما من السنة إلى السنة ليس لها قَدْر مضبوط ولا قَدْر مخصوص ، بل على قدر مايراه السلطان وبحَسَب أقدار الناس . ومقاديرُ العَطَايا بينهم متفاوِتةٌ . قال : وكذلك القبائلُ ومزاويرُهم على هذا النحو . قال ابن القُوَيع : والجند الغُرَباء يتميزون في الأعْطِيات على الموحِّدين . قال : وللعرب أهل البادية إقطاعاتٌ كثيرةٌ ؛ ومنهم من يخرُجُ مع السلطان إذا استدعاهم السلطانُ للخروج معه .

* * *

(في لبْس سلطان مملكة تُونُس ولبْس أشياخه ، وسائر جُنْده ، وعامّةِ أهل بلده)

أما لبْسُه فقد ذكر في « مسالك الأبصار » عن سلطان زمانه بأفْرِيقيّةَ : أن له عمامةً ليستْ بمُفْرِطة في الكِبَر ،

بحَنَك وعَذبَة صغيرةٍ . وقال ابن سعيد : له عمامةٌ كبيرةٌ من صُوفٍ وكَتّان فيها طِراز من حرير . ولا يتعَمّم أحدٌ من أهل دَوْلته قَدْرَها في الكِبَر . وذكر أن عَذَبَة عمامته تكونُ خلف أُذُنِه اليسرى ، وأنها مخصوصةٌ به وبأقاربِه ؛ وله جِبَابٌ يلبسها ، ولا يلْبَس هو ولا عامّة جُنْده وأشياخه خُفّاً إلا في السَفَر وغالب لبْسه ولبْس أكابر مشايخِه من قُماشٍ عندهم يسمّى السّفْسارِيّ ، يعمل عندهم من حرير وقطن أو حرير وصوف رفيع جِداً ، وقُماش يُعْرَف بالتِّلمسَاني يُعْمَل بتِلِمْسان : إما صوفٌ خالصٌ أو حرير خالص : مُختّم وغير مختَتّم . قال ابن بَنُّون : والسلطان يمتاز بلُبْس الخَزِّ ، ولَوْنُه لونُ الخُضرة والسّواد . قال : وهذا اللّون هو المسمى بالجَوْزي ، وبالغِيَار ، وبالنِّفْطِيِّ قال ابن سعيد : وهو مايخرج من البحر بصَفَاقُس .

قال في « مسالك الأبصار » : وهو المسمى بوبر السمك بمصر والشام يعني المعبر عنه بصوف السمك المقدّم ذكره

عند ذكر صَفَاقُس من بلاد أفريقية . قال ابن سعيد : وهي أفخر ثياب السلطان بتونس ونقل في « مسالك الأبصار » عن ابن سعيد : أنه يَلْبَس الثيابَ الصوف الرفيعة ، ذوات الألوان البديعة . وأكثر مايلبس المخَتّم الممتَزِج من الحرير والصُّوف ، بكمّين طويلين من غير كَثْرة طُول . ضيقين من غير أن يكونا مزنّدين . وثيابه دون شدّ نِطَاقٍ إلا أن يكون في الحرب فإنه يشُدُّ المِنْطقة ؛ ويلْبَس الأقبيةَ ؛ وله طَيْلَسان صوفٍ في نهاية اللّطافة ، كان يَرتدِي به ولا يضعَه على رأسه .

وأما لبْس الأشياخ والدواوين والوقافين والجند والقضاة والوزراء والكتاب وعامة الناس فعلى زيّ واحدٍ ، لاتكادتتفاوتالعمائم والجِبَابُ . ولا يمتاز الأشياخوالوقافون والجند إلا بشيء واحد لايكاد يظهر ولا يبين وهو صِغر العمائم وضيق القماش . ولباس عامة أهل أفريقية من الجُوخ ،ومن الثياب الصوف ، ومن الأقبية ،ومن الثياب

القطن ، فمن لبس غير هذا مما يجلب من طرائف الإسكندرية والعراق كان نادراً شاذاً .

(في شعار المُلْك بما يتعلق بهذا السلطان)

نقل في « مسالك الأبصار » : عن ابن القُوَيع أن له علماً أبيض يسمّى العلَم المنصور . يُحمل معه في المواكب ، وذكر أن الأعلام التي تحمل معه في المواكب سبعة أعلام : الأوسطُ أبيض وإلى جانبه أحمر وأصفر وأخضر . قال : ولا أتحقق كيف ترتيبها ،وأن ذلك غير أعلام القبائل التي تسير معه فلكل قبيلةٍ علَمٌ تمتاز به بما عليه من الكتابة ، والكتابة مثل«لا إله إلا الله»، أو«الملكُ لله»، وما أشبه ذلك ، وأن له الطبولَ والبوقات والنفير .

* * *

(في جلوس سلطان هذه المملكة في كل يوم)

قال ابن سعيد : عادةُ هذا السلطانِ في مملكتهِ

تونُس : أنه يخرُجُ باكِرَ كلَّ يوم إلى موضعٍ يُعْرَف بالمَدْرسة ، ويبعث خادماً صغيراً يستَدْعِي وزيرَ الجُنْد من موضعه المعينِ له ، فيدخل عليه رافعاً صوته « بسلامٌ عليكم » عن بُعْد من غير أن يُومِئَ برأسه ، ولا يقُومُ له السلطان ، فيجلس بين يَدي السلطان ، ويسأله السلطانُ عما يتعلّق بأمور الجُنْد والحُرُوب ؛ ثم يأمره باستِدْعاء مَنْ يُريده من أشياخ الجند أو العَرَب أو مَنْ له تعلُّق بوزير الجُنْد ؛ ثم يأمر باستدعاء وزير المال وهو المعروفُ بصاحب الأشغال فيأتي معه ويُسَلِّمان جميعاً من بُعْد على السلطان ، وإن كان قد تقدّم سلام وزير الجُنْد ؛ ثم يتقدّم وزير المال إلى مابين يَدَيِ السلطان ويتأخر وزير الجُنْد إلى مكان لايَسْمَع فيه حديثَهما ؛ ثم يخرج وزير المال ويستَدْعي من يتعلّق به ؛ ثم يحضُر صاحبُ الطعام بطعام الجُنْد ويَعْرِضه على وزيرهم لئلاَّ يكونَ فيه تقصيرٌ ؛ ثم يقوم السلطان من المَدْرسة إلى موضع مخصوصٍ ويَسْتَدْعِي وزيرَ الفَضْل : وهو كاتب السر ، ويسأله عن الكُتُب الواردةِ من البلاد ، وعما تحتاجُ خِزانةُ الكُتُب إليه ، وعما تَجدَّد في الحضرة

وفي البلاد مما يتعلّق بأرباب العلم وسائر فُنون الفضل والقُضاة ، ويأمر باستدعاء مَنْ يخُصُّه من الكُتّاب ويُملي عليه وزيرُ الفضل ما أُمِرَ بكتابته ، ويعلِّمُ عليه وزيرُ الفضل بخَطِّه ؛ ثم يستَدْعي السلطان مَنْ شاء من العلماء والفُضَلاء ويتَحاضَرُون مُحاضرةً خفيفةً .

وإن كان وزيرُ الفضل قد رَفَع قصيدةً لشاعر وافدٍ أو مرتّبٍ في معنىً استجدّ ، أمره السلطان بقراءتها عليه ، أو يأمر بحضور الشاعر ليُنْشدَها قائماً أو قاعداً بحَسب ماتقتضيه رُتْبته ، ويتكلّمُ السلطان مع وزير الفَضْل ومن حَضَر من الفضلاء في ذلك ويكتُب على كل قصيدةٍ بما يراه .

* * *

(في جلوسه للمظالم)

قال الشيخ شرف الدّين عيسى الزَّوَاوي : إذا جلس السلطانُ جلس حَوْلَه ثلاثةٌ من كبَار أشياخ الموحِّدين للرأْي والمَشُورة ، ويجلس معهم وزير الجُنْد إن كان كبيراً ، وإن لم يكن كبيراً وقَفَ بازاء أولئك الثلاثة ،

ويجلس دُونَهم عشرةٌ من أكابر أشياخه ، وربما كان الثلاثةُ المختَصُّون بالرأي من جملة العَشَرة المذكورين ؛ ويقف خمسون وَقّافاً وراءَ وزير الجُنْد . فاذا أمر السلطان بأمر بَلَّغه وزيرُ الجُنْد لآخَرَ واقفٍ وراءَه ، وبلّغه الآخر لآخَرَ . حتى ينتَهِيَ إلى مَنْ هو خارجَ الباب بنقل ناسٍ عن ناس ؛ ويقف دون الخمسين المذكورين جماعةٌ تسمّى بالوَقّافين بأيديهم السيوفُ حَوْلَه ، وهم دون الخمسين المذكورين في الرُّتبة . وقد ذكر ابن سعيد : أن يوم السبت مخصوصٌ عنده بأن يَقْعُد في قُبّة كبيرة في القَصَبة ؛ وهي القلعة . ويَحْضُر عنده أعيانُ دولته وأقاربه والأشياخُ ؛ ويجلس أقاربُه عن جانبه الأيمنِ . والأشياخ عن جانبه الأيْسَرِ ؛ ويجلس بين يديه وزير الجُنْد ، ووزيرُ المال ، وصاحبُ الشُّرْطة ، والمحتَسِب ، وصاحب كُتُب المَظَالم : وهو المُوقِّع على القصَص . ويقرأ الكاتبُ المعيّنُ ماوُقِّع له على قِصَص المظالم ، ويردّ كلَّ مايتعلق بوظيفةٍ إلى رَبِّ تلك الوظيفةِ وينَفِّذُ الباقيَ .

* * *

فارس من أكابر أشياخه من العشرة المقدَّم ذكرهم . ويمْشي إلى جانبه رَجُلان مقلّدان سيفَيْن رَجّالة إلى جانبه : أحدهما مُمْسِك بركابه الأيمن ، والثاني ممسكٌ بركابه الأيْسر ، ويليهما جماعةٌ رَجّالةٌ من أكابر دولته : مثلُ الثلاثة أصحاب الرأي ، والعشرة الذين يَلُونهم ، ومَنْ يَجري مَجْراهم من أعيان الجند ؛ وتسمّى هذه الجماعة ايربان . يمشُون حوله بالسُّيوف وبأيديهم عَكاكيزُ . قال : وربما مَشى في هؤلاء قاضي الجماعة : وهو قاضي القُضاة . وأمامَ هؤلاء الجماعة المَشّائين نفرٌ كثير من الموحِّدين أقارب السلطان بسيوف ومزَارِيقَ ، ويُسمّون بالمَشّائين . وقُدّامَهم جماعةٌ يقال لهم جفاوة : وهم عبيدٌ سودٌ بأيديهم حِراب في رُؤُوسها راياتٌ من حرير ، وهم لابسون جِباباً بِيضاً مُقلّدون بالسيوف . وأمامَ هؤلاء قومٌ يعبّر عنهم بعبيد المخزن ، وهم عوامُّ البلد وأهل الأسواق ، وبأيديهم الدَّرَق والسُّيوف ، ومعهم العَلَم الأبيضُ المسمّى بالعلم المَنْصور المقدّم ذكره في شِعَار السّلْطنة .

وعادتُهم أن يُنادى فيهم ليلةَ العيد أو ركُوب

السلطان لسَفَر . فيخرج أهل صناعة بظاهر البَلَد ، ويكون خَلْفَ السلطان صاحبُ العلامات . وهو أمير علَم راكب ، ووراءه أعلامُ القبائل ، ووراء الأعلام الطُّبُول والبُوقاتُ ؛ وخلفهَم محركُو الساقة الذين هم بمثابة النُّقَباء . وبأيديهم العِصِي يرتِّبون العساكرَ ، وخَلْف هؤلاء العسكُر . والفارسُ الذي عن يمين السلطان إليه أمر دَقّ الطبول يقول : « دُقّ فلانُ » باسم كبيرهم ، ويستمرّ مَنْ حولَ السلطان من المُشاة يمشُون ثم يركبون ؛ ويطيف بالسلطان جماعةٌ يقرءون حزباً من القرآن الكريم . ثم يقف السلطانُ ويدْعو ويؤمِّن وزيرُ الجند على دعائه ، ويؤمِّن الناس على تأمينه . ويُجِدّ الناسُ والسلطانُ السيْرَ . فان كانوا في فضاء كان مشيهم على هذا الترتيب ، وإن ضاق بهم الطريقُ مَشوا كيف جاء على غير ترتيب إلا أنّ الجندَ لا يتقدّمُون على السلطان . فاذا قَرُبوا من المَنْزِلة وقف السلطان ودعا وأمّن على دعائه كما تقدّم . وإن كان في صلاة العيد ذهب في طريق وعاد في أخرى .

* * *

(في خروج السلطان للتنزّه)

قد تقدّم في الكلام على مدينة تُونُس أنها على طرف بُحَيرة خارجةٍ من البحر الروميّ تُحدِق بها البساتين من كل جانب. وفي تلك البُحَيرة جزيرة يقال لها سكلة، لاساكِنَ بها. ربما ركب السلطان في السُّفُن وصار إليها في زمن الربيع ، وتُضْرب بها أخْبية ويُقيم بها للتنزّه أياماً ثم يعود . على أنه لاماءَ فيها ولا مرْعى ، ولكن لِمَا تُشْرف عليه من البسَاتين المستديرة بتلك البُحَيرة وما قبلها من الجَوَاسِق المُشْرفة ومَنْظَر البحر . وقد ذكر ابن سعيد : أنه ربما خرج إلى بُسْتانه ، فيخرج في نحو مِائَتَي فارس من الشّبَاب المعروفين بالصِّبيان الذين هم بمثابة المماليك الكتانية بالديار المصرية ، يُوَصِّلونه إلى البستان ويرجِعُون ، ويبقى وزراؤه الثلاثةُ نوّاباً له . وكل ماتجدّد عند كل واحد منهم من الأمر طالعه به وجاوبهم بما يراه . قال في « مسالك الأبصار » : وركوبه إلى البستان في زُقَاق من قَصَبَته إلى البستان ، مَحْجوب بالحِيطان لايراه فيه أحد .

* * *

الفهرس

* * *

١٩٨٣/٥/٥٠٠٠

